أوشو
OSHO

الذكاء

العيش في الوقت الحاضر

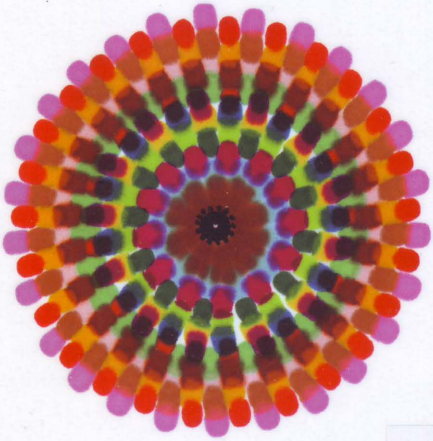

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

أوشو
OSHO

الذكاء

العيش في الوقت الحاضر

«رؤية لحياة جديدة»

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

يُمنع تصوير و/أو تحميل و/أو توزيع الكتاب إلكترونيًا أو التسهيل لذلك بأي شكل من الأشكال دون موافقة الناشر. يُرجى الاستحصال على النسخ الإلكترونية المصرّح لها من قبل الناشر فقط، وعدم المشاركة في قرصنة المواد الإلكترونية المحمية بموجب حقوق النشر أو التشجيع لها. نقدّر دعمكم لحقوق المؤلف.

القرصنة الإلكترونية جريمة يعاقب عليها القانون! لا تكن مجرمًا.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: publishing@all-prints.com

tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٩

ISBN: 978-6144-58-515-3

Originally published as **Intelligence: The Creative Response to Now.**

Copyright © 2004 OSHO International Foundation, Switzerland.

www.osho.com/copyrights

© 2019, All Prints Distributors & Publishers. All rights reserved.

OSHO is a registered trademark of Osho International Foundation. For further information please go to www.osho.com/trademark.

The material in this book is selected from various talks by Osho given to a live audience. All of Osho's talks have been published in full as books, and are also available as original audio recordings. Audio recordings and the complete text archive can be found via the online OSHO Library at www.osho.com

ترجمة: أنطوان باسيل

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

صورة الغلاف تقدمة: OSHO International Foundation

الإخراج الفني: فدوى قطيش

المحتويات

توطئة: ليس الذكاء ما تظنّونه ٧

الذكاء هبة من الطبيعة ١١

شاعريّة القلب ٢٥

انفتاح الكينونة ٢٨

ما يجعل الناس أغبياء ٣١

بقاء الأقوى ٣٢

السعي إلى الكفاءة ٣٨

الكبت والاستغلال ٤١

خطيئة المعصية ٤٥

اتباع الأوامر فحسب ٤٩

الذهن ـ صندوق باندورا ٥٥

الخروج من الهرم ٧٣

من الذهن إلى اللاذهن ٨١

من التفكير إلى الإدراك ٨٦

من الانفعال إلى الاستجابة ٩١

من الاعتقاد إلى الإيمان..... ٩٣
من الشفقة إلى التعاطف..... ٩٣
من التواصل إلى المشاركة..... ٩٤
السيّد والخادم..... ٩٦
المعروف والمجهول والعَصيّ على المعرفة..... ٩٨
خارج المألوف ـ التحرّر من التكييف..... ١١١
نوع جديد من العصيان..... ١١٥
ذكاء البراءة..... ١٢٢
عطيّة الحياة..... ١٣٢
اكتشاف مفتاح «إيقاف التشغيل»..... ١٣٤
أن تكون بسيطاً..... ١٣٧
نور لذاتك..... ١٤٧
أعراض، نقاط انطلاق وأحجار عثرة..... ١٥١
أجوبة عن أسئلة..... ١٥١
الخاتمة: إعادة اكتشاف الذكاء من خلال التأمّل..... ١٩١
عن المؤلّف..... ٢٠٣

توطئة

ليس الذكاء ما تظنّونه

اعلموا، في البداية، أن الثقافة والفكر ليستا مرادفين للذكاء. فأن يكون المرء مثقّفاً أو مفكّراً يعني أن يكون متكلّفاً؛ أن يدّعي الذكاء. وهذا الذكاء ليس حقيقيّاً لأنه ليس خاصتك، بل هو مستعار.

الذكاء هو نمو الوعي الداخلي. ولا علاقة له بالمعرفة، بل تربطه علاقة ما بالتأمّليّة. ولا يتصرّف الإنسان الذكي بالاستناد إلى تجربته الماضية؛ بل يتصرّف في الحاضر. وهو لا يتفاعل، بل يستجيب. ولهذا لا يمكن توقّع تصرّفه؛ لا يستطيع المرء أن يتأكّد أبداً مما سيفعله.

تبادل كاثوليكي وبروتستانتي ويهودي أطراف الحديث مع صديق قال إنه لم يتبقّ له من الحياة سوى ستّة أشهر.

وسأل الرجلُ الكاثوليكيَّ، «ماذا كنت لتفعل لو أن طبيبك قال إنه لم يتبقّ لك سوى ستّة أشهر من الحياة؟».

«آه»، قال الكاثوليكي، «سأقدّم كلّ مقتنياتي إلى الكنيسة، وأتناول القربان المقدّس كل يوم أحد، وأتلو صلاة السلام عليك يا مريم بانتظام».

وسأل الرجلُ البروتستانتيَّ، «وماذا عنك؟».

«سأبيع كلّ شيء وأجوب العالم وأستمتع بوقتي!».

«وأنت؟» قال لليهودي.

«أنا؟ سأستشير طبيباً آخر».

ذلك هو الذكاء! إنه ذكي!

الذكاء

الذكاء هبة من الطبيعة

الذكاء متأصّل في الحياة؛ وهو صفة طبيعية من صفات الحياة. وكما أن النار حامية والهواء غير مرئي والمياه تنساب نزولاً، فإن الحياة ذكيّة هي الأخرى.

والذكاء ليس إنجازاً. فأنت *تولد* ذكيّاً. الأشجار ذكيّة على طريقتها الخاصة، وهي تمتلك ما يكفي من الذكاء لتحيا. والطيور ذكيّة وكذلك الحيوانات. والواقع هو أن اللّه في الأديان يُظهر أن الكون ذكيّ، وأن هناك ذكاءً خفيّاً في كل مكان. وإذا كانت لديكم عيون ترى فستستطيعون رؤيته في كلّ مكان، لأن الحياة مرادفة للذكاء.

وحده الإنسان لم يعد ذكّياً. فهو قد أضرّ بالانسياب الطبيعي للحياة. ولا وجود لعدم الذكاء إلا لدى الإنسان. أسبق لك أن رأيت طيراً يمكنك وصفه بالغبي؟ أسبق لك أن رأيت حيواناً يمكنك أن تصفه بالأبله؟ لا، لأن مثل هذه الأمور لا تحدث إلاّ للإنسان. وقد حدث خطب ما. تضرّر ذكاء الإنسان وفسد وأُقعد.

أسبق لك أن رأيت طيراً يمكنك وصفه بالغبي؟ أسبق لك أن رأيت حيواناً يمكنك أن تصفه بالأبله؟ لا، لأن مثل هذه الأمور لا تحدث إلاّ للإنسان. وقد حدث خطب ما.

وما التأمّل إلا إصلاح لذلك الضرر. ولو تُرك الإنسان وشأنه، لما دعت الحاجة أبداً إلى التأمل. وستنتفي الحاجة إلى أي تأمّل إذا لم يتدخّل رجل الدين والسياسيّ في ذكاء المرء. فالتأمّل علاجيّ،

عليك في البداية خلق المرض ليحتاج الأمر من بعدها إلى التأمّل. وإذا انتفى المرض بطلت الحاجة إلى التأمّل. وليس من قبيل المصادفة أن تكون لفظتا *الطب medicine* و*التأمّل meditation* مشتقّتين من المصدر نفسه. فالتأمل علاجي.

يولد كلّ طفل ذكيّاً، وفي اللحظة التي يولد فيها الطفل ننقضّ عليه، ونبدأ بتدمير ذكائه، لأن الذكاء خطر على البنى السياسيّة، والاجتماعيّة والدينيّة. وهو خطر على البابا، خطر على رجل الدين، خطر على الزعيم. وهو خطر على الوضع القائم، على المؤسّسة. والذكاء متمرّد بطبيعته. ولا يمكن إكراه الذكاء على العبوديّة. الذكاء جازم، وفردي. ولا يمكن إرغام الذكاء على التقليد الآلي.

حُوّل الناس إلى نُسخ كربونيّة؛ توجّب تدمير فرادتهم، ولولا ذلك لاستحال وجود كلّ هذا الهراء الحاصل على الأرض. أنت تحتاج إلى زعيم لأنّك حُوّلت منذ البداية إلى شخص غير ذكي، وإلا لانتفت الحاجة إلى أي زعيم. ولماذا عليك أن تتبع أيّاً كان؟ فأنت ستتبع ذكاءك. وإذا شاء أحدهم أن يصير زعيماً، فعليه القيام بأمر واحد: عليه تدمير ذكائك بطريقة من الطرق. يجب هزّك من جذورك نفسها، وإدخال الخوف إلى قلبك. يجب أن تفقد الثقة بنفسك، ذلك ضروري. وعندها فقط يستطيع الزعيم أن يظهر.

إذا كنت ذكيّاً فستحلّ مشكلاتك بنفسك. فالذكاء يكفي لحلّ كلّ المشكلات. ومهما تنشأ مشكلات في الحياة، فأنت في واقع الأمر تمتلك من الذكاء ما هو أكثر من تلك المشكلات. فهو كناية عن زادٍ، عن هبة من الطبيعة. إلا أن هناك أشخاصاً طموحين يريدون الحكم والسيطرة؛ هناك طموحون مجانين، يولّدون فيك الخوف. والخوف أشبه بالصدأ، يقضي على كلّ ذكاء. وإذا أردت أن تقضي على ذكاء أحدهم، فأوّل ما عليك القيام به هو توليد الخوف. اخلق الجحيم وازرع الخوف في الناس، لأنهم عندما يخافون من الجحيم فسوف يخضعون وينحنون للكاهن أو لرجل الدين. سوف يستمعون إليه. وإذا لم يستمعوا إليه فسوف

إذا أردت أن تقضي على ذكاء أحدهم فأوّل ما عليك القيام به هو توليد الخوف. اخلق الجحيم وازرع الخوف في الناس.

يواجهون نار جهنّم. وهم بطبيعة الحال يشعرون بالخوف. عليهم أن يقوا أنفسهم نار جهنّم، ويحتاجون إلى الكاهن الذي يصبح عندها ضرورة.

سمعتُ عن رجلين شريكين في الأعمال. أعمالهما فريدة جدّاً من نوعها، وقد تعوّدا السفر في أنحاء البلاد. يمضي أحد الشريكين إلى مدينة ما ويجوبها ليلاً ويقذف قطران الفحم على نوافذ الناس، ويختفي مع حلول الصباح. وبعد يومين أو ثلاثة أيّام، يأتي الآخر ويعرض على الناس تنظيف قطران الفحم عن نوافذهم. ويدفع له الناس، بالطبع، مقابل ذلك، فهم مضطرون ليدفعوا له. هذان الرجلان كانا شريكين في الأعمال نفسها، أحدهما يتسبّب بالضرر والآخر يزيله.

يجب توليد الخوف، كما يجب ابتداع الطمع. والذكاء ليس طمِعاً. وستُدهش لمعرفة أن الطمع لا يتملّك الإنسان الذكي أبداً. فالطمع جزء من عدم الذكاء. وأنتم تكنزون للغد، لأنكم لستم واثقين أنّكم ستتمكّنون في الغد من الإمساك بحياتكم، وإلاّ فلم تكنزون؟ تصيرون بخلاء، تصيرون طمّاعين لأنكم لا تعرفون إذا كان ذكاؤكم سيتمكّن في الغد من مجاراة الحياة أو لا. من يدري؟ تختزن لأنك غير واثق بذكائك، وتصير طمِعاً. والشخص الذكي لا يخاف ولا يطمع.

يتلازم الخوف مع الطمَع. لذلك تتلازم الجنّة مع الجحيم. فالجحيم خوف والجنّة طمع. عليك بتوليد الخوف في الناس، وتوليد الطمع في الناس. ولّد فيهم القدر الأكبر الممكن من الطمع، اجعلهم على قدر كبير من الطمع، حيث لا ترضيهم الحياة، فيقصدون رجل الدين والزعيم. ويشرعون في تخيّل حياة مستقبليّة، تتحقّق فيها رغباتهم وأوهامهم المجنونة. انتبه، فأن تطلب المستحيل يعني أنّك غير ذكي.

يرضى الشخص الذكي تماماً بالممكن. يعمل في سبيل المحتمَل؛ ولا يطلب أبداً المستحيل أو غير المحتمَل. لا ينظر إلى الحياة وقيودها. وهو لا ينشد الكمال، لأن من ينشد الكمال عُصابي. وإذا كنتَ كماليّاً فستصير عُصابيّاً.

ولو أنّك، مثلاً، تحبّ امرأة وتطلب الإخلاص التام، فستُجنّ أنت وتُجنّ هي، لأن ذلك مستحيل. يعني الإخلاص التام أنها لن تفكّر، ولن تحلم حتى برجل آخر، وهذا غير ممكن. فمن أنت؟ ولماذا وقعتْ في حبّك؟ لأنّك رجل. وإذا أمكنها

الوقوع في حبّك، فلمَ لا يمكنها أن تفكّر بآخرين؟ ذلك الاحتمال يبقى مفتوحاً. وكيف ستتدبّر أمرها عندما تشاهد شخصاً جميلاً يمرّ بها وتثور فيها الرغبة؟ فحتى قولها إن «هذا الرجل جميل» يشكّل رغبة. فأنت لا تقول عن الشيء إنه جميل إلا عندما تشعر أنه يستحقّ أن تمتلكه، والتمتّع به. وأنت لا تتّخذ حياله موقف اللامبالاة.

لكن إذا طلبت الإخلاص التام، كما يفعل العديد من الناس، فمن المحتّم حدوث نزاع، وستبقى في حالة من الارتياب. ستبقى في حالة من الارتياب لأنك على معرفة أيضاً بذهنك. أنت تفكّر في نساء أخريات، فكيف يمكنك أن تثق بأن امرأتك لا تفكّر في رجال آخرين؟ أنت تعرف بماذا تفكّر وتعرف بالتالي أنها تفكّر في الأمور نفسها. وها هو الارتياب ينشأ وكذلك النزاع والعذاب. والحبّ الذي كان ممكناً بات مستحيلاً بسبب الرغبة المستحيلة.

يطلب الناس ما لا يمكن حدوثه. تريدون ضمانة للمستقبل، وهو ما ليس ممكناً. تريدون أماناً مطلقاً للغد، وهو ما لا يمكن ضمانه؛ هذا ليس في طبيعة الحياة. يعرف الشخص الذكي أن ذلك ليس في طبيعة الحياة. فالمستقبل يبقى مفتوحاً. قد يفلس المصرف، قد تهرب الزوجة مع شخص آخر، قد يموت الزوج، وقد يُثبت الأولاد أنهم غير صالحين. ومن يعرف ماذا يخبئه الغد؟ قد تمرض، قد تصير كسيحاً. من يعرف ماذا يخبئه لك الغد؟

طلب ضمانة للغد يعني البقاء في خوف دائم. الضمانة ليست ممكنة. وهكذا عندما تخاف من فقدان الضمانة لن تستطيع القضاء على خوفك. سيمْثُل الخوف أمامك وترتجف، وتفوّت عليك، في غضون ذلك، اللحظة الحاضرة. وأنت، برغبتك في الضمانة المستقبلية، تدمّر الحاضر الذي هو الحياة الوحيدة المتوفّرة. وتزداد أكثر فأكثر اضطراباً وخوفاً وطمعاً.

يولد طفل؛ والطفل ظاهرة منفتحة جدّاً، وفي غاية الذكاء. لكن ننقضّ عليه ونشرع في تدمير ذكائه. نبدأ بتوليد الخوف في داخله. تسمّون ذلك تعليماً، تسمّونه تمكين الطفل من التعامل مع الحياة. لكنه يولد غير خائف، وأنتم تولّدون فيه الخوف.

كما أن مدارسكم ومعاهدكم وجامعاتكم، كلّها تجعله أقلّ فأقلّ ذكاء. تطلب منه أموراً سخيفة. تطلب أن يستظهر أموراً سخيفة، أموراً لا يستطيع الطفل وذكاؤه الطبيعي رؤية أي مغزى فيها. ومن أجل ماذا؟ لا يستطيع الطفل رؤية المغزى. ولمَ حشو هذه الأمور في رأسه؟ لكن الجامعة تقول، والمعهد يقول، والمنزل والعائلة ومتمنّو الخير يقولون: «أَحَشْوٌ؟ أنتم لا تعرفون ذلك الآن، لكنّكم ستعرفون لاحقاً سبب الحاجة إليه».

حشو التاريخ، كل الهراء الذي استمرّ الناس بفعله في ناس آخرين، كل الجنون، ادرسه! ولا يستطيع الطفل معرفة المغزى من ذلك. وماذا تهمّ معرفة أن ملكاً ما حكم إنكلترا من تاريخ إلى تاريخ آخر؟ لكن عليه أن يستظهر تلك الأمور السخيفة. ومن الطبيعي أن تتكاثر الأعباء باطراد على الذكاء ويصبح كسيحاً. ويتجمع المزيد والمزيد من الغبار على ذكائه. وفي الوقت الذي يعود فيه الشخص من الجامعة يصبح غير ذكيّ؛ وتكون الجامعة قد قامت بعملها. ومن النادر جدّاً أن يتمكن شخص من التخرّج في الجامعة وهو لا يزال ذكيّاً. تمكّن أشخاص قليلون جدّاً من الإفلات من الجامعة، من تحاشيها، ومن المرور فيها، وقد أنقذوا بذلك ذكاءهم، ولكن هذه حالات نادرة جدّاً. فالجامعة آلية ضخمة مصمّمة لتدميركم.

في اللحظة التي تصيرون فيها متعلّمين لا تعودون أذكياء.

ألا تستطيعون رؤية ذلك؟ يتصرّف الشخص المتعلّم بطريقة خالية من أي ذكاء. اذهبوا إلى الناس البدائيين الذين لم يتعلّموا قط، وستجدون الذكاء الخالص وهو يعمل.

سمعتُ...

أن امرأة أخذت تحاول فتح صفيحة تعليب ولم تتمكن من ذلك. فمضت إلى البحث في كتاب الطبخ. وفي الوقت الذي بحثت فيه في الكتاب كان الطبّاخ قد فتحها. عادت وقد اندهشت. وسألت الطبّاخ: «كيف فعلت ذلك؟».

قال: «سيدتي، عندما لا يحسن المرء القراءة عليه أن يستخدم ذكاءه!».

إنه محقّ، نعم. عليك، عندما لا تحسن القراءة، أن تستخدم ذكاءك. وماذا تستطيع غير ذلك؟ وفي اللحظة التي تبدأ فيها بالقراءة: (أو بثلاثية القراءة والكتابة والحساب تلك)، لا تعود في حاجة أن تكون ذكيّاً، فالكتب ستتولّى أمر ذلك.

هل سبق لك أن راقبت التالي؟ عندما يبدأ الشخص بالطباعة يخسر خطّ يده؛ وعندها لا يعود خطّه جميلاً. ولا حاجة إلى ذلك: فسوف تهتمّ الطابعة بالأمر. وإذا حملت آلة حساب في جيبك، فسوف تنسى علم الحساب كلّه، لا تعود في حاجة إليه. وعاجلاً أم آجلاً سيحمل الجميع حواسيب صغيرة تحتوي على كلّ معلومات الموسوعة البريطانية *Encyclopaedia Britannica*. عندها تنتفي الحاجة كلّيّاً إلى الذكاء؛ إذ ستهتم الحواسيب بذلك.

اذهب إلى الشعب البدائي، الناس غير المتعلّمين، القرويين، وستجد ذكاء حاداً. صحيح أنهم ليسوا على قدر كبير من الاطلاع، وليسوا من أصحاب المعرفة، هذا صحيح؛ لكنهم على درجة هائلة من الذكاء. ذكاؤهم أشبه بشعلة لا يحيط بها أي دخان.

قام المجتمع بأمر خاطئ مع الكائن البشري، لأسباب معيّنة. فهو يريدكم عبيداً ويريد أن تعيشوا دائماً في حالة من الخوف. يريدكم على طمع دائم، وعلى طموح دائم، ويريدكم دوماً تنافسيّين. يريدكم غير محبّين، ويريدكم أن تمتلئوا غضباً وحقداً. يريدكم أن تبقوا ضعفاء، مقلّدين، نسخاً كربونيّة. لا يريدكم أن تصيروا مبدعين وفريدين من نوعكم ومتمرّدين، لا. ولهذا جرى تدمير ذكائكم.

تدعو الحاجة فقط إلى التأمّل لإبطال ما فعله المجتمع. فالتأمّل مضاد: يعكس الضرر ويقضي على المرض. وما إن يزول المرض حتى يفرض حسن حالك نفسه.

تدعو الحاجة فقط إلى التأمّل لإبطال ما فعله المجتمع. فالتأمّل مضاد: يعكس الضرر ويقضي على المرض. وما إن يزول المرض حتى يفرض حسن حالك نفسه.

ذهب الأمر بعيداً جدّاً في القرن الماضي. فقد أصبح التعليم الشامل كارثياً. تذكّروا أنني لست ضدّ العلم، بل أنا ضد *هذا* العلم. يستطيع نوع مختلف من العلم أن يسهم في شحذ ذكائكم وليس في القضاء

عليه؛ ولا يُثقل عليه بالوقائع غير الضروريّة، ولا بالمعرفة غير الضروريّة، ولا يُثقل عليه على الإطلاق، بل يساعده بالأحرى ليزداد إشراقاً ونضارة وشباباً.

هذا العلم يجعلك فقط قادراً على الاستظهار. أما ذلك العلم فيمنحك المزيد من الوضوح. هذا العلم يحطّم إبداعك. أما ذلك العلم فيساعدك أن تصير أكثر إبداعاً.

وعلى سبيل المثال، التعليم الذي أدعو إليه لا يتطلّب من الطفل الإجابة بالطريقة النمطيّة القديمة. وهو لا يشجّع التكرار، والترداد الببغاوي، بل يشجّع الابتكار. وحتى إن لم تكن إجابة الطفل المبتكرة بصحّة الإجابة المنقولة نفسها، لكنها ستمنح الطفل تقديراً لمحاولته تقديم إجابة جديدةٍ عن مسألة قديمة. من البديهي أن جواب الطفل لن يبلغ صحة جواب سقراط، كما أنه لن يكون بدقة إجابة أينشتاين نفسها، لكن من غير المعقول أن نطلب من طفلٍ أن يجيب بدقة أينشتاين نفسها. وإذا حاول أن يبتكر شيئاً جديداً، فمن الطبيعي أنْ تكون لابتكاره حدود، لكن يجب تقدير جهده في ابتكار شيء جديد والثناء عليه.

يجب ألا يكون التعليم تنافسيّاً. ولا ينبغي الحكم على الناس متجابهين. فالتنافس عنيف جدّاً ومدمّر جدّاً. فأنت مثلاً تصف من ليس متفوّقاً في علم الحساب بأنه متوسّط المقدرة. لكنّه ربما كان نجاراً بارعاً. ما من أحد ينظر إلى الأمر على هذا النحو. وربّما وصفت امرأة لا تجيد الآداب بأنها غبيّة، بيد أنها تجيد الموسيقى والرقص.

من شأن التعليم الحقيقي مساعدة الناس على إيجاد *حياتهم*، وتفعمهم بالحياة. فلو أن الطفل وُلد ليكون نجّاراً؛ فهذا هو الأمر الصائب الذي يتوجب عليه القيام به. ولا ينبغي لأحد أن يُكرِهه على أي شيء آخر. ومن شأن هذا العالم أن يصير عالماً عظيماً وذكيّاً إلى حدّ بعيد، لو سُمح للطفل بأن يكون نفسه، وجرت مساعدته ومساندته بكل الوسائل ومن دون تدخّل من أحد. في الحقيقة، ينبغي ألا يتلاعب أحد بالطفل. وإذا أراد أن يصير راقصاً، فلا ضير في ذلك إذ هناك حاجة إلى الراقصين. يحتاج عالمنا إلى الكثير من الرقص. وإذا أراد الطفل أن يصير شاعراً، فحسن. هناك حاجة إلى الكثير من الشعر؛ ولا يوجد أبداً كفاية منه. وإذا أراد الطفل أن يصير نجّاراً

أو صيّاد سمك، فحسن تماماً. وإذا أراد الطفل أن يصير حطّاباً، فحسن تماماً. ليس ضروريّاً أن يكون طموح الجميع الرئاسة أو رئاسة الحكومة. وسيهتم، في الواقع، عدد أقل من الناس بهذه الأهداف؛ وفي ذلك نعمة.

كلّ الأمور، الآن بالذات مقلوبة رأساً على عقب. فالذي أراد أن يصير نجّاراً صار طبيباً؛ ومن أراد أن يصير طبيباً صار نجّاراً. وكلّ واحد يحتلّ مكان الآخر. ومن هنا تجلّى المزيد من عدم الذكاء، لأن كلّ امرئ يقوم بعمل غيره. وما إن تشرع في رؤية ذلك، حتى تفهم لماذا يتصرّف الناس بطريقة عديمة الذكاء.

كنّا في الهند نمارس التأمّل بعمق، واكتشفنا عبارة واحدة هي: *سوادارما (Swadharma)*، أي «الطبيعة الذاتية». ويحمل ذلك معنى ضمنيّاً عظيماً لعالم المستقبل. فقد قال كريشنا، *سوادارمي نادانام شريّاه (Swadharma nadhanam Shreyah)*، *أي* «من الجيّد أن تموت بطبيعتك الذاتيّة، وأنت تتبع طبيعتك الذاتيّة». *بير دارماو بفاها باها (Per dharmo bavaha baha) أي:* «طبيعة الشخص الآخر خطرة جدّاً». لا تصبح مقلّداً. كن نفسك فحسب.

سمعتُ أنّه...

لطالما أراد بيل الذهاب لاصطياد الموظ(*) فادّخر ما يكفي من المال، ومضى إلى غابات الشمال. وزُوّد هناك بالمعدّات الضروريّة، ونصحه صاحب المتجر أن يستعين ببيار، أفضل منادٍ للموظ في المنطقة.

قال صاحب المتجر: «صحيح أن أجر بيار مرتفع، لكنّ في ندائه إغراء لا يستطيع أي موظ مقاومته».

سأله بيل «وكيف يجري ذلك؟».

«حسناً»، قال الآخر، «سيرصد بيار الموظ على مسافة ثلاثمئة متر، ثم يجمع يديه ويصدر نداءه الأوّل. وعندما يسمع الموظ ذلك ستثيره الرغبة

(*) الموظ: غزال أميركي ضخم - المترجم.

الاستباقيّة ويقترب إلى مسافة مئتي متر. وسيكرّر بيار النداء، مطلقاً المزيد من الأصوات الجاذبة، وسيقفز الموظ بتلهّف وفرح إلى مسافة مئة متر. ويطلق بيار في هذه المرّة نداء مثيراً بالفعل مع بعض من الاستطالة، ما يحثّ الموظ، وقد أثارته النيّة الشهوانيّة، على بلوغ نقطة لا تبعد عنك سوى عشرين متراً. وهذا هو الوقت الذي يتوجّب عليك فيه يا صديقي أن تطلق النار».

وتساءل بيل: «وافترِضْ أنني أخطأت؟».

«سيكون ذلك رهيباً»، قال الآخر.

«لكن لماذا؟»، سأل بيل.

«لأن المسكين بيار سيتعرّض للاغتصاب».

ذلك ما حدث للإنسان. التقليد، التقليد. فقدَ الإنسان كلّياً رؤية حقيقته الخاصة. يقول جماعة «الزن»: ابحث عن وجهك الأصلي. اكتشف أصالتك. من أنت؟ إذا لم تعرف من تكون ستواجهك دائماً حوادث ما، دائماً. ستكون حياتك مسلسلاً طويلاً من الحوادث، ومهما حدث لن يكون مرضياً أبداً. وسيشكّل الاستياء الطعم الوحيد لحياتك.

يمكنك أن ترى من حولك. لماذا يبدو هذا العدد الكبير من الناس على هذا القدر من البلادة والملل، يمرّرون الأيام كيفما اتّفق؟ يمرّرون وقتاً ثميناً جدّاً لن يتمكّنوا من استرجاعه أبداً، ويمرّرونه بهذا القدر من البلادة كما لو أنهم ينتظرون الموت. ما الذي حدث لهذا العدد الكبير من الناس؟ لمَ لا يتمتّعون بنضارة الأشجار نفسها؟ لمَ لا يغني الإنسان كما تغنّي الطيور؟ ما الذي حدث للكائنات البشريّة؟ أمر واحد حدث، هو دأب الإنسان على التقليد. دأب الإنسان على محاولة تحوّله إلى شخص غيره. ما من أحد في بيته. فكلّ امرئ يقرع باب غيره؛ من هنا جاء الاستياء والبلادة والملل والكرب.

سيحاول الإنسان الذكي أن يكون نفسه، بغض النظر عن الثمن. الإنسان الذكي

لن ينسخ أبداً، لن يقلّد أبداً. لن يردّد أقوال الآخرين كالببغاء. سيستمع الإنسان الذكي إلى صوته الجوهري الخاص. سيشعر بكيانه الذاتي، ويتحرّك على هذا الأساس، بغض النظر عن المجازفة.

هناك مجازفة! والمجازفة أقلّ عندما تقلّد الآخرين. وعندما لا تقلّد الآخرين تكون وحدك. وهناك مخاطرة! لكن الحياة لا تكون إلا لأولئك الذين يعيشون المخاطرة. تكون الحياة فقط لأولئك الذين يغامرون، ويقاربون التهوّر. لأولئك وحدهم فقط تكون الحياة. الحياة لا تكون للأشخاص الذين تعوزهم الحماسة.

الذكاء هو الثقة بكينونتك الخاصة. الذكاء مغامرة وإثارة. الذكاء هو أن تعيش في هذه اللحظة، لا أن تتحرّق شوقاً إلى المستقبل. لا يتمثّل الذكاء في التفكير بالماضي، ولا في إزعاج النفس بالمستقبل. فالماضي لم يعد موجوداً، والمستقبل لم يأتِ بعد. الذكاء هو في الاستخدام الأقصى للحظة الحاضرة المتوفّرة. وسينتج المستقبل عنها. لو أن هذه اللحظة عيشت بسرور وفرح، فستولد اللحظة التالية منها. وهي ستأتي بطبيعة الحال بالمزيد من الفرح، لكن لا حاجة إلى إزعاج النفس في شأنها. ولو أن يومي الحاضر كان ممتازاً، فإن غدي سيكون أكثر امتيازاً. ومن أين يأتي؟ إنه سينتج من اليوم.

لا يتمثّل الذكاء في التفكير بالماضي، ولا في إزعاج النفس بالمستقبل. فالماضي لم يعد موجوداً والمستقبل لم يأتِ بعد. الذكاء هو في الاستخدام الأقصى للحظة الحاضرة المتوفّرة.

إذا شكّلت هذه الحياة بركة، فحياتي التالية ستكون بركة أكبر. ومن أين يمكنها أن تأتي؟ ستنتج منّي، من تجربتي *المعيشة*. وهكذا فإن الشخص الذكي لا تقلقه الجنّة والجحيم، ولا الآخرة، ولا حتى اللّه، أو الروح. الذكي يعيش بذكاء فحسب، وكلّ الأمور التي تهمّ تتبع ذلك تلقائياً، بما في ذلك الروح والجنة واللّه والنعيم.

يعيش الناس ضمن معتقدات، والمعتقدات غير ذكية. عش من خلال المعرفة؛ فالمعرفة ذكاء. والذكاء تأمّل.

غيرُ الأذكياء يتأمّلون أيضاً، لكنهم يتأمّلون بالتأكيد بطريقة غير ذكيّة. يعتقدون أن عليك أن تقصد الكنيسة كل يوم أحد لمدّة ساعة، تلك الساعة التي يجب أن تُعطى للدين. وهذه طريقة غير ذكيّة في الارتباط بالدين. وماذا ستفعل الكنيسة بذلك؟ فحياتك الحقيقيّة هي في الأيام الستّة. والأحد ليس يومك الحقيقي. تعيش على غير تديّن على مدى ستّة أيام، ثم تذهب إلى الكنيسة لمدة ساعة أو ساعتين فحسب؟ من تحاول أن تخدع؟ تحاول خداع اللّه بأنك مواظب على الذهاب إلى الكنيسة...

أو، إذا بذلت محاولة أكبر بعض الشيء، تقوم في كلّ يوم بتأمّل تجاوزي لعشرين دقيقة في الصباح، وعشرين دقيقة في المساء. تجلس وعيناك مغمضتان وتكرّر التعويذة بطريقة غبيّة جدّاً: «أوم، أوم، أوم»؛ الأمر الذي يسهم في تبلّد الذهن. فتكرار التعويذة بطريقة آلية يسلبك ذكاءك. وهو لا يمدّك بالذكاء، ويشبه التهويدة.

الأمّهات على امتداد القرون عرفن ذلك. فكلّما تململ الطفل ورفض الذهاب إلى النوم، تأتي الأم وتنشد التهويدة. يشعر الطفل بالملل، ولا يتمكّن من الهروب. وإلى أين يذهب؟ فالأم تحتضنه على السرير. والطريقة الوحيدة للهرب هي في الإغفاء. ويغفو؛ يستسلم فحسب. يقول: «من الغباء البقاء مستيقظاً الآن، لأنها تقوم بأمر مضجر للغاية، وتواصل ترداد مجرّد بيت واحد».

هناك قصص ترويها الأمهات والجدّات للأطفال حين لا يذهبون إلى النوم. وإذا نظرتم إلى هذه القصص تجدون نمطاً معيّناً من التكرار الثابت. كنتُ منذ أيام أقرأ قصّة أخبرتها جدّة لطفل صغير أبى الذهاب إلى النوم، لأنه لم يشعر بالحاجة إلى النوم في ذلك الوقت بالذات. يقول له ذكاؤه إنّه صاحٍ تماماً، لكن الجدّة ترغمه. لديها أمور أخرى تفعلها، والطفل ليس مهمّاً.

يصاب الأولاد بالكثير من الحيرة، إذ تبدو الأمور على قدر كبير من العبثيّة. عندما يريدون النوم في الصباح، يريد الجميع إيقاظهم. وعندما لا يريدون المضيّ إلى النوم، يريد الجميع إجبارهم على النوم. تصيبهم حيرة شديدة. فما أمر هؤلاء الناس؟ عندما يأتي الرقاد، نقول إنه أمر جيّد؛ ذلك ذكاء. وعندما لا يأتي، فمن الجيّد تماماً أن نبقى مستيقظين.

وهكذا فإن الجدّة العجوز تقصّ حكاية. يبقى الولد مهتمّاً في البداية، لكن شيئاً فشيئاً... سيشعر أي ولد ذكي بالملل، ووحده الولد الغبي لن يشعر بالضجر.

والقصّة هي:

مضى رجل إلى النوم وحلم أنّه يقف قبالة قصر عظيم يحتوي على ألف غرفة وغرفة. وهكذا راح يذهب من غرفة إلى غرفة - إلى أن بلغ الغرفة الأخيرة وفيها سرير جميل. استلقى على السرير وغفا وحلم ... بأنه يقف عند باب قصر كبير يحتوي على ألف غرفة وغرفة. فجال على ألف غرفة إلى أن بلغ الغرفة الألف وواحدة. وهناك مرّة أخرى سرير جميل، استلقى عليه وغفا ... وحلم بأنّه يقف قبالة قصر... وتمضي القصّة على هذا المنوال!

وإلى متى، إذن، يمكن للولد أي يبقى متيقّظاً؟ سيغفو نتيجة الملل المجرّد. وهو يقول «فلننته من الأمر الآن!».

وللتعويذة الفعل نفسه. تكرّر، «رام، رام... أوم، أوم... اللّه، اللّه»، أو أيّ شيء مشابه. تستمرّ في الترداد، وتواصل التكرار. وها إنك تقوم بعملين: عمل الجدّة وعمل الولد. ذكاؤك كالولد وتعلّمك التعويذة كالجدّة. يحاول الولد وقفك، ويهتمّ بأمور أخرى، أمور جميلة، نساء جميلات، مناظر جميلة. لكنك تمسك به متلبّساً بالجرم وتعيده من جديد إلى «أوم، أوم، أوم». وشيئاً فشيئاً يشعر طفلك الداخلي بأنه لا جدوى من المقاومة؛ ويغفو.

نعم، يمكن للتعويذة أن تمنحك نوعاً من الإغفاء. إنها تنويم مغناطيسي ذاتي. ولا عيب في ذلك إذا وجدتَ صعوبة في النوم. وهي أمر جيد في حالة الإصابة بالأرق. لكن لا علاقة لها البتّة بالروحانيّة؛ إنّها طريقة غير ذكيّة جدّاً للتأمّل.

ما هي إذن الطريقة الذكيّة للتأمّل؟ الطريقة الذكيّة هي اعتماد الذكاء في كلّ ما تفعله. وأنتَ تسير، سرْ بذكاء وبإدراك. وأنتَ تأكل، كلْ بذكاء وبإدراك. هل تذكر أبداً أنك أكلت بذكاء؟ هل فكّرت يوماً في ما تأكله؟ أهو مغذٍّ؟ هل يمتلك أية قيمة غذائيّة، أم أنك تكتفي بحشو نفسك من دون أي غذاء؟

هل سبق لك مرّة أن راقبت ما تفعله؟ أنت تواصل التدخين مثلاً. ثم يأتي ذكاؤك

ويقول لك: ما الذي تفعله؟ لا تفعل سوى سحب الدخان ثم نفثه، وتدمير رئتيك في الوقت نفسه. ما الذي تقوم به فعلاً؟ تهدر مالك، وتهدر صحّتك. استحضر ذكاءك وأنت تدخّن، وأنت تأكل. استحضر الذكاء عندما تذهب وتمارس الحبّ مع الشريك. ما الذي تقوم به؟ هل تشعر فعلاً بالحبّ؟ تمارسُ أحياناً الحبّ من باب العادة. وهو في تلك الحالة بشع، ولا أخلاقي. على الحب أن يكون واعياً جدّاً، وعندها فقط يصير صلاة.

ما الذي تفعله بالتحديد وأنت تمارس الحبّ مع امرأتك؟ هل تستخدم جسد المرأة لإفراغ بعض الطاقة التي باتت كثيرة جدّاً عليك، أم أنّك تقدّم الاحترام والحبّ إلى المرأة؟ وهل تشعر نحوها بأي تقدير؟

لا أرى ذلك. الأزواج لا يحترمون زوجاتهم، بل يستخدمونهن. والزوجات يستغللن أزواجهن، ولا يحترمنهم. وإذا لم ينبع الاحترام من الحبّ فسيكون الذكاء مفقوداً في مكان ما. وإلا فستشعر بالجميل الكبير للآخر، وتصير ممارستك الحبّ تأمّلاً عظيماً.

مهما يكن ما تفعله، امنحه جودة الذكاء. قم به بذكاء: ذلك هو التأمّل.

مهما يكن الذي تفعله: سواء أكان أمراً غير ذات شأن، كتنظيف الأرض، أم أمراً بالغ الأهمية، فإمّا أن تفعله بذكاء، وإمّا أن تفعله من دون استخدام ذكائك. لكنك لن تكون فرحاً عندما تفعله بطريقة غير ذكيّة؛ لأنه أشبه بواجب تقوم به، وتحمل عبئه بشكل من الأشكال.

على الذكاء أن ينتشر في كلّ جوانب حياتك. فهو ليس بالأمر المخصص ليوم الأحد، ولا يمكنك القيام به لعشرين دقيقة، ثم نسيان أمره. على الذكاء أن يكون تماماً كالتنفّس. مهما يكن الذي تفعله: سواء أكان أمراً غير ذات شأن، كتنظيف الأرض، أم أمراً بالغ الأهمية، فإمّا أن تفعله بذكاء، وإمّا أن تفعله من دون استخدام ذكائك. لكنك لن تكون فرحاً عندما تفعله بطريقة غير ذكيّة؛ لأنه أشبه بواجب تقوم به، وتحمل عبئه بشكل من الأشكال.

* * *

تدور القصّة في الصف التاسع بمدرسة دينية للبنات. كانت بنات الصفّ يدرسن المحبّة المسيحية، وما تعنيه لهنّ في حياتهن. وقرّرن في النهاية أنها تعني «القيام بأمر مستحَبّ لشخص لا تحبّه». والفتيات ذكيّات جدّاً، واستنتاجهنّ صحيح تماماً. استمعن إلى ذلك من جديد. قرّرن في النهاية أن المحبّة المسيحيّة تعني «القيام بأمر مستحَبّ لشخص لا تحبّه».

اقترحت المعلّمة أن يعمدن في سياق الأسبوع إلى اختبار مفهومهن. وبعودتهن في الأسبوع التالي، طلبت المعلّمة التقارير. رفعت إحدى الفتيات يدها وقالت: «قمتُ بشيء ما!».

أجابت المعلّمة، «رائع! ما الذي فعلته؟».

«حسناً»، قالت الفتاة، «حضرت حصة الحساب مع فتاة مسخ».

«مسخ؟».

«نعم، تعرفين... مسخ، لها أربعة رؤوس، وكل أصابعها إبهامات، ولها ثلاث أقدام يسرى. وعندما تعبر ردهة المدرسة يقول الجميع: 'ها قد أتت الفتاة المسخ من جديد'،.. ليس لها أي صديقة، ولا يدعوها أحد إلى الحفلات، وهي كما تعرفين مسخ فحسب».

قالت المعلّمة: «أعتقد أنني أعرف تماماً ما تقصدينه. فما الذي فعلتِه؟».

«الحقيقة هي أن هذه الفتاة المسخ زميلة في حصة الحساب، وتعاني صعوبة كبرى. وأنا بارعة في الحساب، وعرضتُ أن أساعدها في فرضها».

«رائع»، قالت المعلّمة، «وماذا حدث؟».

«أنا في الواقع ساعدتها، وكان ذلك ممتعاً، وعجز لسانها عن شكري، غير أنني لا أستطيع الآن التخلّص منها!».

إذا فعلتَ شيئاً من باب الواجب فقط، من دون أن تحبّه فسوف تجد نفسك، عاجلاً أم آجلاً، عالقاً فيه، وتجد صعوبة في التخلّص منه. انظر في الساعات الأربع

والعشرين من يومك. كم من الأشياء تقوم بها ولا تستمدّ منها أي متعة ولا تسهم في نموّك؟ وأنت تريد، في الواقع، التخلّص منها. وإذا أنجزت في حياتك الكثير جدّاً من الأمور التي تريد فعلاً التخلّص منها، فأنت تعيش بطريقة غير ذكيّة.

سيصنع الشخص الذكي حياته، بطريقة تنطوي على شاعريّة العفويّة والحبّ والفرح. هذه حياتك، فإذا لم تكن لطيفاً مع نفسك، فمن ذا الذي سيكون لطيفاً معك؟ وإذا كنت تهدر حياتك فهذه مسؤوليّتك أنت.

أعلّمك أن تكون مسؤولاً تجاه نفسك. هذه مسؤوليّتك الأولى. وكل ما عدا ذلك يأتي لاحقاً.

أنت في قلب عالمك، في وجودك بالذات. فكن ذكيّاً. استحضر ميّزة الذكاء. وكلّما ازددت ذكاء، صرت أكثر قدرة على استحضار المزيد من الذكاء إلى حياتك. يمكن لكلّ لحظة أن تصير مشعّة جدّاً بالذكاء.... وتنتفي الحاجة عندها إلى أي دين؛ فلا تعود ثمة حاجة إلى التأمّل، ولا إلى ارتياد الكنيسة، أو أي معبد، أو كل ما هو إضافي. الحياة في جوهرها ذكيّة. وما عليك إلا أن تعيش بكلّيةٍ وبتناغم وبإدراك. وكل ما سيعقب ذلك سيكون جميلاً. الاحتفاء بالحياة يعقب إشراق الذكاء.

شاعريّة القلب

ذكاء العقل ليس ذكاء على الإطلاق؛ إنّه إلمام. ذكاء القلب هو الذكاء، الذكاء الوحيد الموجود. وما العقل إلا وعاء تجميع. وهو دوماً قديم، وليس جديداً أبداً. يكون مفيداً لأمور معيَّنة كحفظ الملفّات مثلاً! ويحتاج المرء إلى ذلك في الحياة. أمور كثيرة يجب تذكّرها. العقل كناية عن حاسوب عضوي. يمكنك مواصلة تجميع المعرفة فيه، ويمكنك استخراجها كلّما احتجت إليها. وهذا أمر مفيد للحساب، وللحياة اليوميّة، وللتسوّق. لكن إذا اعتقدت أن هذه حياتك كلّها، فستظلّ غبيّاً. لن تعرف أبداً جمال الإحساس، ولا بركات القلب، ولا النعمة التي لا

ذكاء العقل ليس ذكاء على الإطلاق؛ إنّه إلمام. ذكاء القلب هو الذكاء، الذكاء الوحيد الموجود.

تهبط إلا عبر القلب، ولا الورع الذي يشقّ طريقه عبر القلب. لن تعرف الصلاة أبداً، ولا الشعر ولا الحب.

يخلق ذكاء القلب الشعر في حياتك، ويحوّل خطواتك إلى رقص، ويجعل حياتك فرَحاً واحتفالاً وعيداً وضحكة. يمدّك بحسّ الفكاهة. يجعلك قادراً على الحبّ والمشاركة. تلك هي الحياة الحقيقيّة. فالحياة المعيشة بالعقل والرأس فقط هي حياة ميكانيكيّة. تصبح شخصاً آليّاً، ربّما ذا كفاية عالية. فالأشخاص الآليون كفيُّون جدّاً، والآلات أكثر كفاية من الإنسان. يمكنك أن تجني الكثير من خلال الرأس، لكنك لن تعيش الكثير. ربما امتلكت مستوى *حياة* أفضل، لكن لن تكون لك أي حياة فعلية.

الحياة تنبع من القلب، ولا تنمو إلّا عبره. ففي تربة القلب ينمو الحبّ وتنمو الحياة وتنمو الروح. وكلّ ما هو جميل، وكلّ ما له مغزى، وكلّ ما له دلالة، يأتي من القلب. القلب مركزك، والرأس طرف. وأن يحيا المرء بالرأس يعني أن يحيا في الأطراف من دون أن يدرك حتّى جمالات المركز وكنوزه. والحياة عند الطرف غباء.

الحياة عبر الرأس غباء. أما الحياة من القلب، مع استخدام الرأس كلّما دعت الحاجة، فذكاء. لكن المركز، السيّد، يقع في جوهر كيانك بالذات.

القلب هو السيّد، وما الرأس إلا الخادم، هذا هو الذكاء. لكن عندما يصبح الرأس هو السيّد، وينسى أمر القلب كلّياً، فذلك هو الغباء.

الخيار يعود إليك. تذكّر أن الرأس خادمٌ جيّد وله منفعة كبرى. لكنّه كسيّد سيّد خطر وسيدمّر حياتك بأسرها ويسمّمها. انظر من حولك! حياة الناس مسمّمة بشكل مطلق، سمّمها الرأس. لقد فقد الناس الإحساس، لم يعودوا حسّاسين، وما من شيء يهزّ مشاعرهم. تشرق الشمس، لكن ما من شيء يشرق في دواخلهم؛ ينظرون إلى الشمس بأعين فارغة. تمتلئ السماء بالنجوم، يا للروعة، يا للغز! لكن ما من شيء يتحرّك في قلوبهم، لا تتصاعد منها أي أغنية. العصافير تغنّي، وهم نسوا الغناء. تظهر الغيوم في السماء وترقص الطواويس، ولكن الإنسان لم يعد يعرف كيف يرقص إذ

صار كسيحاً. كذلك الأشجار تزهر، لكن الإنسان يفكّر، ولا يشعر أبداً، وبالتالي لا يمكنه أن يُزهر بعيداً عن المشاعر.

راقب، تفحّص، لاحظ، ألقِ نظرة أخرى على حياتك. فما من أحد آخر يساعدك. لقد اعتمدتَ على الآخرين أمداً طويلاً: لذلك صرت غبيّاً. والآن، اعتنِ بنفسك؛ فالمسؤوليّة ملقاة على عاتقك. أنت مدين لنفسك بإلقاء نظرة عميقة ثاقبة على ما تفعله بحياتك. أفي قلبك شِعر؟ إذا لم يكن، فلا تهدر الوقت. ساعد قلبك على نظم الشعر وغنائه. وهل في حياتك مكان للرومانسية؟ إذا لم يكن، فأنت فعليّاً مدفون.

اخرج من قبرك! دع الحياة تحظَ بالرومنسية، بشيء يشبه المغامرة. استكشف! فالجَمال والبهاء في انتظارك على أحر من الجمر. وأنت تواصل الدوران حول نفسك، ولا تدخل أبداً إلى معبد الحياة، وبابُهُ القلب.

الذكاء الحقيقي ينبع من القلب. وهو ليس فكريّاً، بل عاطفيّاً. لا يشبه التفكير بل يشبه الشعور. وهو ليس منطقيّاً، بل هو الحب.

لا يتوفّر الحبّ إلاّ لمن يواصلون شحذ ذكائهم. لا يكرّس الحب للشخص العادي. فهو لا يكون لغير الذكيّ. مع أن الشخص غير الذكي قد يغدو مفكّراً عظيماً. والواقع هو أن الأشخاص غير الأذكياء يحاولون أن يصبحوا مفكّرين؛ إنها طريقتهم في إخفاء عدم ذكائهم. والحبّ ليس للمفكّر. يحتاج الحب إلى نوع مختلف تماماً من الموهبة، إلى قلب موهوب، لا إلى رأس موهوب.

للحب ذكاؤه الخاص، ورؤيته الخاصة، وإدراكه الخاص، وطريقته الخاصة في فهم ألغاز الوجود. والشاعر أقرب إليه كثيراً من الفيلسوف. ويعيش المتصوّف تماماً داخل المعبد. ويمثل الشاعر عند الدرج، والفيلسوف يبقى خارجاً. يستطيع في أفضل الحالات الاقتراب من السبيل، لكنّه لا يبلغ الدرج أبداً. ويواصل الدوران. يواصل التحرّك حول المعبد دارساً أسواره الخارجيّة، ويغدو مسحوراً جدّاً إلى درجة ينسى معها تماماً أن الأسوار الخارجيّة ليست المعبد الحقيقي، وأن الألوهيّة في الداخل.

يبلغ الشاعر الباب، والباب على قدر كبير من الجمال، فيغدو مفتوناً به. يعتقد أنّه وصل، وماذا يجد أكثر من ذلك؟ يضيع الفيلسوف في تخمين ما في الداخل. لا

يذهب إلى هناك أبداً، يفكّر ويفكّر فحسب، يتفلسف. ويحاول الشاعر ولوج اللغز، لكنّه يعلق على مقربة من الباب. أما المتصوّف فيدخل إلى عمق قدس أقداس المعبد.

الحبّ هو الطريق، والذكاء المحب تحديداً. أنت تخلق، عندما يلتقي الحب والذكاء معاً، مجالاً يصبح فيه الممكن واقعاً. يحتاج الأمر إلى الذكاء المحب. فالذكاء بمفرده يصبح ذهنيّاً، والحب بمفرده يصبح عاطفة، لكن الذكاء المحب لا يصير أبداً فكراً أو عاطفة، بل يمدّك بنوع جديد من التكامل، ويجعلك تتبلور من جديد.

الذكاء بمفرده يصبح ذهنيّاً، والحب بمفرده يصير عاطفة، لكن الذكاء المحب يمدّك بنوع جديد من التكامل، ويجعلك تتبلور من جديد.

انفتاح الكينونة

الذكاء انفتاح للكينونة، قدرة على الرؤية من دون تحامل، وعلى الاستماع من دون تدخّل، وعلى التعايش مع الأشياء من دون أفكار مسبقة في شأنها. هذا هو الذكاء: انفتاح الكينونة.

وهذا هو السبب الذي يجعله مختلفاً تماماً عن الفكر والعقلانية. الفكر هو نقيض الذكاء تماماً. فالإنسان المفكّر يكون على شيء من التحامل، ويكون معبّأ بالمعلومات وبالمعتقدات المسبقة وبالمعرفة. لا يمكنه الإصغاء؛ وهو يتوصّل إلى النتيجة فعلاً قبل أن تتفوّه بأي كلمة. كل ما تقوله يجب أن يجتاز عدداً كبيراً جدّاً من الأفكار في ذهنه. ومتى وصل يصبح أمراً مختلفاً كلّياً. يطرأ عليه تحريف كبير، وهو كثير الانغلاق إلى حدّ أنّه يكاد يكون أعمى وأصمَّ. فجميع الخبراء، ذوي المعرفة، عميان.

أتعرفون الرواية القديمة عن العميان الخمسة الذين ذهبوا لرؤية الفيل؟

أخبرتْ معلّمة تلاميذها الصغار هذه الحكاية القديمة. روتها كلّها، ثم سألت صبيّاً صغيراً: «أيمكنك أن تخبرني من هم الأشخاص الذين مضوا لرؤية الفيل، ثم

شرعوا في الشجار في ما بينهم؟». أرادت أن تعرف إن كان الصبي قد استمع إليها، وهي تقصّ الحكاية.

وقف الصبي، وقال: «نعم، أعرفهم. إنّهم الخبراء».

فكّرت أن إجابته ستكون على النحو الآتي: «إنهم خمسة عميان». لكنّ الصبي الصغير قال: «هؤلاء كانوا الخبراء». وهو محق إلى حد بعيد جدّاً؛ نعم، كانوا خبراء. وجميع الخبراء عميان. تعني الخبرة أن تصبح أعمى حيال أي شيء آخر. تعرف الكثير والكثير عن أمور قليلة للغاية، لتبلغ من ثمّ في أحد الأيام الهدف النهائي المتمثّل في معرفة كل شيء عن لا شيء. عندها تنغلق كلّياً، فلا تفتح ولو نافذة واحدة؛ وتصير عندها بلا نوافذ.

إليكم ما هو الذكاء. الذكاء هو الانفتاح على الريح والمطر والشمس، الانفتاح على الكل. فعدم حمل الماضي ذكاء، وعدم العيش في الماضي والتعطّش له ذكاء، والاحتفاظ بالنضارة وبالبراءة ذكاء.

كان دونالد يقود سيّارته الرياضية في الجادة الرئيسيّة، عندما لاحظ فجأة ضوءاً أحمر يومض. إنها سيّارة شرطة.

توقّف دونالد سريعاً إلى جانب الطريق. قال فجأة: «أيها الشرطيّ، كنت أقود بسرعة خمسة وعشرين في منطقة حدود السرعة فيها ثلاثون».

قال الشرطي: «سيدي، أردت فقط».

قاطعه دونالد بسخط، معقّباً: «ثم إنني أستاء، بوصفي مواطناً، من تعريضي للخوف بهذا الشكل!».

تابع الشرطي: «أرجوك، اهدأ، استرخِ».

صاح دونالد بانفعال: «أسترخي؟ تريد تحرير محضر ضبط بحقّي، وتريدني أن أسترخي!».

قال الشرطي راجيّاً: «سيدي، أعطني فرصة للكلام. لن أحرّر في حقّك محضر ضبط».

«ألن تفعل؟». قالها دونالد مندهشاً.

«أردت فقط أن أبلغك أن إطارك الخلفي الأيمن فارغ من الهواء».

الحقيقة أن ما من أحد مستعدّ للاستماع إلى ما يقوله الآخر. هل سبق لك مرّة أن أصغيت إلى ما يقوله الآخر؟ تكون، قبل التفوُّه بكلمة واحدة، قد توصّلت بالفعل إلى الخلاصة. وخلاصتك صارت ثابتة؛ فأنت لم تعد متدفّقاً.

أن يصير المرء متجمّداً، يعني أن يصير غبيّاً، وأن يبقى متدفّقاً يعني أن يظلّ ذكيّاً. فالذكاء ينساب دوماً كالنهر. والغباء يشبه مكعّب الثلج، مجمّد. وهو دائم التماسك والثبات. هو محدَّد، ومؤكّد. أما الذكاء، فغير ثابت وغير متماسك، بل انسيابي. وليس له تحديد، ويواصل التحرّك بحسب الأوضاع. إنّه مسؤول لكنّه، ليس متماسكاً.

وحدهم الأغبياء ثابتون ومتماسكون. وكلّما ازدتَ ذكاء، غدوتَ أقلّ تماسكاً. فهل من أحد يعرف ماذا يخبّئه الغد؟ سوف يأتي الغد بتجربته الخاصة. وكيف تستطيع أن تكون متماسكاً مع أَمْسِك؟ إذا متّ تصبح متماسكاً. *وعليك* وأنت حيّ ألّا تكون متماسكاً، فأنت تنمو، والعالم يتغيّر والنهر ينساب إلى منطقة جديدة.

بالأمس، عَبَر النهر الصحراء وهو يمرّ الآن وسط الغابة؛ وذلك مختلف كلّياً. ويجب ألا تصبح تجربة الأمس هي ما يحدّدك إلى الأبد؛ وإلا تكون قد متّ بالأمس. على المرء أن يواصل التحرّك مع الزمن؛ أن يستمرّ مساراً. ولا ينبغي أن يتشيّأ. ذلك هو الذكاء.

ما يجعل الناس أغبياء

شبّه المتصوّفة الإنسان بالسلّم المزدوج الاستخدام: تستطيع استخدامه للصعود، وتستطيع استخدامه للنزول أيضاً. تستخدم السلّم نفسه للغايتين. وحده اتجاهك يتغيّر. السلّم هو نفسه، لكن النتيجة مختلفة تماماً.

الإنسان سلّم بين الجنّة والجحيم. وهذا ما يجعل الكائنات البشريّة وحدها تكبح وتتلاعب وتقتل وتحاول إخضاع الانسياب الطبيعي للطبيعة. وحدها الكائنات البشرية غبيّة، لأن في استطاعتها أن تصير مثل بوذا إذا أرادت. فهي تمتلك الذكاء، لكنّها قد تكون غبيّة. والغباء لا يعني غياب الذكاء، بل يعني ببساطة عدم استخدامه. ولو أنّ الذكاء غائب، لما أمكنك وصف الكائنات البشريّة بالغباء. لا يمكنك وصف الصخر بالغباء، فالصخر صخر، وليس للأمر علاقة بالغباء. لكنك تستطيع نعت البشر بالغباء، لأن مع البشر أملاً، شعاعاً من الضوء العظيم. مع الكائنات البشريّة باب يفتح على العالم الآخر. وفي وسع الإنسان تجاوز نفسه لكنه لا يفعل، ذلك هو غباؤه. في استطاعته النمو، لكنّه لا ينمو، ويتمسّك بكلّ أنواع عدم النضوج، ذلك هو غباؤه. يواصل العيش في الماضي الذي لم يعد له وجود، ويعيد الكَرّة؛ ذلك غباؤه. وقد يشرع في استقراء المستقبل الذي لم يأتِ بعد، وذلك غباؤه.

على المرء أن يعيش في الحاضر بشغف كبير، بحبّ كبير، بقوّة كبيرة، بإدراك،

بوعي. وهذا ما يشكّل ذكاءه. إنها الطاقة نفسها، لكنها تغدو غباء، إذا قُلبت رأساً على عقب؛ أَعِد ترتيبها، صحّحها، فتصبح ذكاء.

لا يشكّل الذكاء والغباء طاقتين منفصلتين. الطاقة التي تعمل بتناغم ذكاءٌ، والطاقة نفسها التي تعمل بتناقض غباء. يمكن للإنسان أن يكون غبيّاً، لكن لَا تعتقد أن ذلك أمر مؤسف. يبدو في الظاهر أمراً مؤسفاً، لكن يمكن اكتشاف مجد كبير، وأبهة عظيمة، مختبئين خلفه.

إلا أن المجتمع (أو ما يُسمّى الدين والدولة والجمهور)، يريدك أن تكون غبيّاً. ما من أحد يريدك ذكيّاً. جميعهم يكيّفونك لتبقى غبيّاً طوال حياتك، لسبب بسيط هو أن الأغبياء طيّعون. أما الأذكياء فيشرعون في التفكير وحدهم؛ يأخذون في التحوّل إلى أفراد. يشرعون في امتلاك حياتهم الخاصة، وأسلوب حياتهم الخاص وطريقتهم الخاصة في الرؤية وكينونتهم ونموّهم. لا يعودون جزءاً من العامة، لا يمكنهم ذلك. عليهم أن يدَعوا العامّة وراءهم، وعندها فقط يتمكنّون من النمو. تشعر العامّة بالإهانة؛ فهي لا تريد لأحد أن يكون أكثر من «إنسان عادي». ومن يصبح أكثر ذكاء وأكثر فرادة وأكثر إدراكاً، لا يعود بعد ذلك جزءاً من سيكولوجيّة الجماهير.

لا يمكنك إكراه البوذيين على اتّباع الأغبياء، والأغبياء كثر، وهم أغلبية، ٩٩,٩٪. تراهم يمتلكون سلطة كبرى، سلطة العنف، ويظهرونها كلّما دعا الأمر إلى ذلك.

يجد الكائن البشري نفسه في معضلة لسبب بسيط، وهو أنه ليس ذكيّاً فحسب، بل إنه مدرك ذكاءه أيضاً. وذلك أمر يتفرّد به الإنسان، إنه امتيازه، وحقّه، ومجده. لكن يمكن أن يتحوّل بسهولة كبيرة إلى عذابه.

بقاء الأقوى

يجد الكائن البشري نفسه في معضلة لسبب بسيط، هو أنه ليس ذكيّاً فحسب، بل إنه مدرك ذكاءه أيضاً. وذلك أمر يتفرّد به الإنسان، إنه امتيازه، وحقّه، ومجده. لكن يمكن أن يتحوّل بسهولة كبيرة إلى عذابه. يُدرك الإنسان أنّه ذكي. ويجلب هذا الإدراك معه مشكلاته الخاصة. وتتمثّل المشكلة الأولى في أنّه يخلق الأنا.

لا توجد الأنا إلا عند البشر، وهي تبدأ بالنمو مع نمو الطفل. ويساعد كلّ من الأهل والمدارس والمعاهد والجامعات على تعزيز الأنا، لسبب بسيط هو أن الإنسان قد اضطرّ على مدى القرون إلى الكفاح من أجل البقاء. وإذا بالفكرة الراسخة، وبعمليّة التكييف اللاواعية العميقة، تتمثّلان في أن صراع الحياة، يشهد أن الأنا القوية وحدها التي تبقى. باتت الحياة مجرّد كفاح للبقاء؛ بل إن العلماء جعلوا الفكرة أكثر إقناعاً من خلال نظريّة «البقاء للأقوى». وهكذا نساعد كلّ ولد أن يصبح أكثر وأكثر قوّة باطراد، وعند هذا الحد تنشأ المشكلة.

كلّما ازدادت الأنا قوّة، أخذت في تطويق الذكاء، بما يشبه الطبقة السميكة من الظلمة. فالذكاء نور والأنا ظلمة. الذكاء مرهف جدّاً والأنا شديدة القسوة. الذكاء أشبه بزهرة، والأنا بصخرة. ويقول أصحاب السلطات المزعومة إنك إذا أردت البقاء، فعليك أن تصبح قاسياً كالصخر، أن تكون قويّاً، لا تُقهر. عليك أن تصبح قلعة، قلعة مقفلة، حيث تستحيل مهاجمتك من الخارج. يجب أن تصبح منيعاً.

لكنّك تصبح عندها منغلقاً. وتشرع من ثمّ في الموت ويموت ذكاؤك، لأن الذكاء يحتاج إلى الأجواء المفتوحة والريح والهواء والشمس لينمو ويتوسّع وينساب. وهو يحتاج إلى دفق ثابت ليبقى حيّاً؛ لأنه إذا ركد سيتحوّل، ببطء، إلى ظاهرة ميتة.

نحن لا نسمح لأولادنا بالبقاء أذكياء. ويتمثّل أول الأمور في أنّهم إذا كانوا أذكياء فسوف يكونون سريعي التأثّر، ومرهفين، ومنفتحين. وإذا كانوا أذكياء فسوف يتمكّنون من رؤية الكثير من الزيف في المجتمع، والدولة، والكنيسة، والنظام التعليمي. ويصبحون متمرّدين. سوف يكونون أفراداً؛ ويتعذّر آنذاك تخويفهم. يمكنك سحقهم، لكن لا يسعك استعبادهم. تستطيع تدميرهم، لكنّك لا تستطيع إجبارهم على التسوية.

فالذكاء، من ناحية، طريّ كوردة؛ ويمتلك، من ناحية أخرى، قوّته الخاصة. لكنّ هذه القوّة دقيقة وليست فظّة. هذه القوّة هي قوّة التمرّد، والموقف الذي لا يساوم. والمرء على استعداد للموت، وعلى استعداد للمعاناة، لكنّه ليس على استعداد لبيع روحه.

يحتاج المجتمع بأسره إلى عبيد؛ يحتاج إلى أشخاص يعملون كالآلات. لا يريد أشخاصاً، بل يريد آلات. من هنا تتمثّل عمليّة التكييف كلّها في جعل الأنا قويّة. حيث تخدم غايتين في آن. فهي، أوّلاً، تُشعِر الشخص بأنه بات قادراً على الكفاح في الحياة. وهي، ثانياً، تخدم غاية كل أصحاب المصالح الراسخة الذين يتمكّنون من استغلال الشخص؛ ويتمكّنون من استخدامه وسيلة لغاياتهم الخاصة.

من هنا يدور النظام التعليمي بكلّيته حول فكرة الطموح؛ إنّه يخلق الطموح. وما الطموح إلا الأنا. «صرِ الأوّل، صرِ الأشهر. صرْ رئيس وزراء أو رئيساً. صرْ معروفاً عالميّاً، اترك بصمتك على التاريخ». وهو لا يعلّمك أن تعيش بكلّية. ولا يعلّمك أن تحبّ بكلّية. لا يعلّمك أن تعيش برشاقة، بل يعلّمك كيفيّة استغلال الآخرين لغاياتك الخاصة. ونحن نعتقد أن الأشخاص البارعين هم الذين نجحوا. إنهم ماكرون لكنّنا نسمّيهم بارعين. وليسوا أذكياء.

لا يستطيع الذكيّ أبداً أن يستخدم الشخص الآخر وسيلة، بل إنه يحترم الآخر. يستطيع الشخص الذكي أن يرى أن جميع الناس متساوون. صحيح أنه سيرى الاختلافات أيضاً، لكن الاختلافات لا تصنع فرقاً، عندما يتعلّق الأمر بالمساواة. سوف يكنّ هذا الشخص الذكي احتراماً عظيماً لحرّية الآخرين؛ لكنه لا يستغلّهم، لا يحط من قدرهم ويحوّلهم إلى أشياء. ولا يمكنه أن يجعل منهم عتبة لتحقيق رغبة عبثيّة في أن يصبح الأول. ولهذا السبب نمضي في تكييف الأولاد.

لكنّ الأولاد يتمتّعون، قبل بدء ذلك التكييف، بذكاء هائل. وقد تحدّث بوذا ولاو تزو ويسوع وجميع النهضويّين في ذلك. قال يسوع: ما لم تعودوا كالأولاد فلا أمل لكم. وقال أيضاً: ما لم تعودوا كالأولاد فلن تدخلوا ملكوت الربّ. وأيضاً فأيضاً يكرّر واحداً من تطوياته: طوبى للأخيرين في هذا العالم لأنهم سيصبحون أوّلين في ملكوت اللّه. وهو يعلّم عدم الطموح، يعلّم أن تكون الأخير. ويقول: طوبى للودعاء لأن لهم ملكوت اللّه، الودعاء، المتواضعين، الناس الذين يقفون في آخر الطابور. وكان من الطبيعي، والطبيعي جدّاً، أن يقف المجتمع الذي وُلد فيه ضدّه، لأنه أخذ يدمّر جذور طموحهم نفسها.

وكان اليهود شعباً طموحاً جدّاً، إلى درجة أنهم حملوا في فكرهم على مدى قرون، وفي مواجهة كل الأخطار، فكرة أنهم شعب اللّه المختار. وحلّت عليهم ألف مصيبة ومصيبة بسبب هذه الفكرة الغبيّة؛ ولو أنهم أسقطوها للاقوا قبولاً أكثر في العالم. لكنهم لا يستطيعون إسقاطها. فأناهم كلّها تنطوي عليها. وهي أنا قديمة عمرها ما لا يقلّ عن ثلاثة آلاف عام. منذ أيام موسى وهم يحملون فكرة أنهم شعب اللّه المختار. وها قد أتى ذلك الرجل الذي قال، «كونوا أخيرين!». ويُفترض بنا أن نكون أوّلين، وقال، «كونوا متواضعين وودعاء!». ونحن الشعب المختار! ولو أننا كنّا متواضعين وودعاء سيصبح الذي لم يقع عليهم الاختيار أوّلين! واليهود شعب دنيوي؛ لا يزعج نفسه كثيراً في شأن الآخرة. إنهم دنيويّون: «من يعرف في شأن الآخرة؟ وهو يقول: 'إذا كنتم آخرين ستصيرون أوّلين في مملكة اللّه.' لكن أين يقع ملكوتك الإلهي؟ فهو ربما كان خيالاً، حلماً».

يبدو يسوع حالماً، وربّما كان شاعراً. لكنّه يدمّر أساسهم بالذات. ولا يمكنهم أن يغفروا له؛ بل إنهم لم يغفروا له حتى الآن. ولا يزالون يحملون فكرة «أننا الشعب المختار». وتسبّب لهم ذلك بالكثير من المعاناة؛ لكن كلّما زادت معاناتهم، أصبحت الفكرة أكثر قوّة. لأنك، إذا كنت مكرهاً على مواجهة العذاب، فيجب أن تصبح أنانياً باطراد، أكثر شبهاً بالصخر، لتتمكّن من القتال والكفاح، فلا يدمّرك أحد. لكنهم أصبحوا كذلك كثيري الانغلاق.

حاول يسوع إيجاد مخرج لهم؛ لكنّهم رفضوه. طلب منهم الخروج إلى الفضاء الرحب. طلب منهم أن يكونوا عاديين فحسب: «تخلّوا عن هذا الهراء بأنّكم مميّزون». ولو أنهم استمعوا إلى يسوع لاختلف تاريخهم كلّه، لكن لم يستطيعوا الإصغاء.

لم يستمع الهندوس إلى بوذا للسبب نفسه. يحمل الهندوس أيضاً فكرة أنهم أقدس شعوب الأرض، وأرضهم أقدس أرض. فحتى الآلهة نفسها تتوق إلى الولادة في الهند! ولا يوجد أي بلد آخر على هذا القدر من القداسة. وقال بوذا: «هذا كلّه هراء!»، واضطُرّوا إلى رفضه. طُردت البوذيّة من الهند. فلا يمكن لأي مجتمع

احتمال مثل هؤلاء الناس الذين يقولون الحقيقة، لأنهم بَدَوا أنهم يخرّبون بنية الأشياء بالذات.

لكنّنا عانينا ما يكفي، وقد حان الوقت. عانت الشعوب في كل أنحاء العالم الكثير وبطرق شتّى. وحان وقت إلقاء نظرة على التاريخ وحماقاته وتفاهاته، والتخلّي عن فكرة تلك الأنماط الأنانية برمّتها.

راقبوا الأولاد الصغار وستلاحظون ذكاءهم. صحيح أنهم ليسوا واسعي الاطلاع. لكنك إذا أردتهم أن يصبحوا واسعي الاطلاع، فلا تحسب عندها أنهم سيغدون أذكياء. إذا طرحت عليهم أسئلة تعتمد على المعلومات، تجدهم غير أذكياء. لكن اطرح عليهم أسئلة حقيقيّة، ليست لها أيّة علاقة بالمعلومات، ولا تحتاج إلى أجوبة فوريّة؛ وسوف ترى أنهم أكثر ذكاء منك بكثير. ولن تسمح لك الأنا الخاصّة بك طبعاً بقبول ذلك. لكن إذا استطعت قبوله فسيقدّم ذلك مساعدة كبرى. سيساعدك ويساعد أولادك. إذا استطعت رؤية ذكائهم فسوف تتعلّم الكثير منهم.

يدمّر المجتمع ذكاءك، لكنه لا يستطيع رغم ذلك القضاء عليه كلّياً؛ بل إنه يغطّيه بطبقات عدّة من المعلومات. وما وظيفة التأمّل إلا مزيد من الغوص بك إلى عمق نفسك. إنه طريقة في التنقيب داخل كينونتك، حتى بلوغ ماء حياة ذكائك، آنذاك تكتشف منابع ذكائك الخاص. عندها فقط، حيث تكون قد اكتشفت الطفل داخلك من جديد، وولدت ثانية، يمكنك أن تفهم لماذا شدّد بوذا المرّة تلو المرّة على أن الأطفال أذكياء فعلاً.

اشرعْ في مراقبة الأولاد وإجاباتهم. لا تطرح عليهم أسئلة حمقاء، بل اسألهم أمراً فوريّاً لا يعتمد على المعلومات، وانظر إلى إجاباتهم.

أخذت الأم تحضّر بيدرو الصغير للذهاب إلى الحفلة. انتهت من تسريح شعره، وسوّت ياقة قميصه، وقالت: «اذهب الآن يا بنيّ. استمتع بوقتك... وأحسن التصرّف!».

«هيّا يا أمّي!»، قال بيدرو. «أرجوك أن تقرّري قبل أن أغادر أيّاً من الأمرين سأفعل!».

أترى الفكرة من ذلك؟ تحمل إجابة الولد قيمة حقيقيّة كبرى. يقول: «أرجوكِ أن تقرّري قبل أن أغادر أيّاً من الأمرين سأفعل. إذا سمحتِ لي بالاستمتاع بوقتي فلا يمكنني أن أحسن التصرّف؛ وإذا أردتني أن أحسن التصرّف فلن أستطيع الاستمتاع بوقتي». يستطيع الولد أن يرى التناقض بقدر كبير من الوضوح؛ وهو أمرٌ لا يبدو واضحاً للوالدة.

سأل أحد المارة صبيّاً: «أيمكنك، يا بُني، أن تخبرني كم الوقت الآن؟».

«نعم، بالتأكيد»، أجاب الصبي، «لكن، لمَ تحتاج إليه؟ فهو يتغيّر باستمرار!».

وُضعت إشارة مرور جديدة أمام المدرسة. وكُتب عليها، «تمهّل. لا تقتل تلميذاً!».

ووُضعت في اليوم التالي إشارة أخرى تحتها، وقد كُتبت بخط صبياني: «انتظر المعلّم!».

عاد بيارينو الصغير من المدرسة إلى البيت وقد علت وجهه ابتسامة عريضة.

«حسناً، يا عزيزي، أنت تبدو سعيداً جدّاً. أنت إذاً تحبّ المدرسة، أليس كذلك؟».

«لا تكوني سخيفة يا أمّي»، أجاب الصبي، «يجب عدم الخلط بين الذهاب والعودة!».

شرع الوالد بعد العشاء في إخبار أبنائه القصص وهم في غرفة الجلوس. «قاتل جدّ أبي في الحرب ضدّ روزاس في البرازيل، وخاض عمّي الحرب ضد القيصر الألماني، وقاتل جدّي في الحرب الإسبانيّة ضد الجمهوريّين، وقاتل والدي الألمان في الحرب العالمية الثانية».

فلم يتوانَ أصغر أبنائه من الردّ على ذلك بالقول: «ما خطب هذه العائلة؟ لا يستطيعون إقامة علاقة مع أحد!».

السعي إلى الكفاءة

ستفاجأون لمعرفة أن مدارسكم ومعاهدكم وجامعاتكم لم تشيّد، في الواقع، لمساعدتكم في أن تصبحوا أذكياء. لا، إطلاقاً لا. وقد ارتبطتُ على مدى سنوات كثيرة بالجامعات كطالب، ثم كأستاذ. وأعرف عمق أعماق بنية نظامكم التعليمي. فهو لا يهتمّ بخلق الذكاء لدى الناس. بل يريد بالطبع خلق الكفاءة، لكنّ الكفاءة ليست الذكاء، ذلك أنها ميكانيكيّة. يمكن للحاسوب أن يتمتّع بكفاءة عالية جدّاً؛ لكنّه ليس ذكيّاً.

لا تعتقدوا أبداً أن الذكاء والكفاءة مترادفان. فالذكاء ظاهرة مختلفة تماماً. والكفاءة ليست ذكاء، بل خبرة ميكانيكيّة. تهتم الجامعات بخلق الكفاءة، لتكونوا موظّفين أفضل وبيروقراطيين ومديرين أفضل. لكنّها لا تهتم بخلق الذكاء، لأنها في الواقع ضد الذكاء. فكلّ هيكليّة نظامكم التربوي في كلّ أنحاء العالم تتمثّل في جعلكم أكثر فأكثر قدرة على استظهار الأشياء.

الذاكرة حاسوب عضوي. والذكاء ظاهرة مختلفة تماماً. فهو ينشأ من التأمّل، من التمرّد، ولا ينشأ عن الذاكرة. لكن الامتحانات التي تخضعون لها لا تُشغل نفسها إلا بذاكرتكم. إذ يسود الاعتقاد أن من يمتلك ذاكرة أفضل هو أكثر ذكاء. لكن ثمة أحداث كثيرة تشهد أن ثمة أغبياء امتلكوا ذاكرة رائعة، في حين أن الأذكياء ليسوا على هذا القدر من التفوّق، عندما يتعلّق الأمر بالذاكرة.

افتقر توماس إديسون إلى هذا القدر من التفوّق لناحية قوة الذاكرة. وهو الذي اخترع مئات الأدوات العلميّة، ولم يخترع شخص قبله هذا القدر. فعدد اختراعاته ضخم، وعصيّ على التصديق. قد تجهلون أنّكم تستخدمون في كل يوم اختراعات إديسون: من أسطوانة الفونوغراف، إلى المذياع، والمصباح الكهربائي، والمروحة. كل هذه الأشياء هي نتاج عبقريّة شخص واحد، هو إديسون. مع أنه كان يمتلك ذاكرة سيّئة، ضعيفة إلى حدّ أنه نسي مرّة اسمه وهو أمر يندر حدوثه! يكاد يستحيل عليك نسيان اسمك، لأنّك تنسى كلّ شيء إذا نسيت اسمك. وما حدث معه هو الأمر الأقل احتمالاً.

شهدت الحرب العالميّة الأولى، دخول التقنين حيّز الوجود للمرّة الأولى في أميركا، فوقف إديسون في الصفّ للحصول على بطاقة تموينه. وأخذ يقترب ببطء من الشبّاك. ثم تحرّك الشخص الواقف أمامه فيما نودي على اسمه: «توماس ألفا إديسون!»؛ فتطلّع حوله، كما لو أنهم ينادون شخصاً آخر، ووجّه نظره صعوداً ونزولاً إلى الطابور...

تعرّف إليه واحد من الرجال، وقال، «أنت، على حدّ علمي، توماس ألفا إديسون. فلمَ تنظر إلى هنا وهناك؟».

قال إديسون، «أنت محق! نسيت ذلك تماماً! أشكرك كثيراً على أنّك ذكّرتني بذلك. نعم، أنا توماس ألفا إديسون».

كانت زوجته تضطر إلى ترتيب كلّ شيء، لأن غرفته كانت كلّها في حالة دائمة من الفوضى، حيث آلاف الأوراق والبحوث. وفي كلّ مرّة، حاول العثور على شيء تطلّب الأمر منه أيّاماً ليعرف مكانه. وواصل نسيان كلّ شيء. وكان يشرع من جديد في اختراع شيء سبق له أن اخترعه. كانت زوجته تعمد إلى تذكيره قائلة: «سبق لك أن اخترعته! وقد بات الآن في السوق!».

تعوّد إديسون أن يحتفظ بأوراق منفصلة، ويمضي في كتابة كل ما يخطر على ذهنه. ثم تضيع هذه الأوراق المنفصلة في هذا المكان أو ذاك. يومها قالت له زوجته: «إن من الأفضل أن تحتفظ بدفتر ملاحظات».

فأجاب: «تلك فكرة جميلة! لمَ لم تخطر لي قط؟» لكنه ضيّع عندها دفتر الملاحظات كلّه! وقال: «هذا حدث عندما عملتُ باقتراحك! ثمة أمر واحد جيّد على الأقل مع الأوراق المنفصلة، هو أنني سأضيع، مرّة كلّ فترة، بعض الملاحظات، لكن لن أضيعها كلّها. وها هي الآن باتت في مهب الريح كلّها!».

لم يكن ألبرت أينشتاين يملك ذاكرة جيّدة. فقد رسب في امتحانات كثيرة، لأنه لم يتمكّن من استظهار أي شيء. عجز عالم الرياضيّات الأعظم في كل العصور السابقة، ولعصور مقبلة، عن إحصاء مبالغ صغيرة من المال، فاضطرّ إلى معاودة العدّ المرّة تلو المرّة. وقد سافر مرّة في الباص، وأعطى السائق بعض المال؛ وأعيدت إليه الفكّة. فعدّها مرّة واثنتين وثلاثاً، وجاءت النتيجة في كلّ مرّة مختلفة، فشرع في عدّها للمرّة الرابعة.

كان السائق يراقبه، وقال: «ما خطبك؟ ألا تعرف الأرقام؟ أحصيتها ثلاث مرّات وها أنت تعدّها للمرّة الرابعة! ألا تعرف كيف تعدّ الفكّة؟».

وقال أينشتاين: «صحيح، فأنا سيّئ بعض الشيء في الحساب».

هذا الرجل الذي استنبط أعظم ما يمكن استنباطه في علم الرياضيّات كان عاجزاً عن إحصاء مبالغ صغيرة من المال. يذهب إلى حمّامه ولا يخرج منه لساعات، لأنه ينسى أن عليه الخروج. ذهب أحد أصدقائي، هو الدكتور رام مانوهار لوهيا، لزيارته، وقال لي: «اضطررت إلى انتظاره ست ساعات لوجوده في الحمّام! وواصلت زوجته الاعتذار مراراً وتكراراً. قالت، 'إنه في الحمّام، لا يزال في الحمّام'. وقلت، 'لكن ما الذي يفعله في الحمّام؟' أجابت الزوجة: «ما من أحد يعرف... لكن إذا أزعجته فسيغضب كثيراً، ويشرع في رمي الأشياء! لكنّه ينسى دائماً؛ كلّما ذهب إلى هناك ينسى الخروج. وعلينا الآن الانتظار إلى الوقت الذي يخرج فيه. وسيتذكّر عندما يبدأ بالشعور بالجوع أو بالعطش أو بأي شيء آخر».

وسأل الدكتور لوهيا: «لكن ما الذي يفعله هناك؟».

قالت الزوجة: «انتابني الفضول في هذا الشأن كلّ تلك السنوات. تعوّدت في البداية أن أسترق النظر من ثقب المفتاح، لأعرف ما الذي يفعله؟ يجلس في

المغطس ويلعب بفقّاعات الصابون! ولمّا سألته 'ما أنت فاعل؟' قال: «لا تزعجيني، لا تزعجيني أبداً، لأنني اكتشفت، وأنا ألعب بفقّاعات الصابون، نظريّة النسبيّة. وتوصّلت، من خلال اللعب بفقّاعات الصابون، إلى إدراك أن الكون يتوسّع مثلها تماماً. وسيواصل التوسّع إلى أن ينفجر، تماماً كما تنفجر!'».

الذاكرة والذكاء يأتيان من مصدرين مختلفين. الذاكرة جزء من الذهن، والذكاء ليس جزءاً من أي ذهن. الذكاء جزء من وجدانك، والذاكرة جزء من دماغك.

إذا نظرت عبر العصور ستجد آلاف العباقرة ممن امتلكوا ذاكرة سيّئة، وآلاف الناس ممن امتلكوا ذاكرة رائعة من دون ذكاء على الإطلاق. لأن الذاكرة والذكاء يأتيان من مصدرين مختلفين. الذاكرة جزء من الذهن، والذكاء ليس جزءاً منه. الذكاء جزء من وجدانك، والذاكرة جزء من دماغك. يمكن تدريب الذهن، وهو ما تواصل الجامعات القيام به. ذلك أن كل الامتحانات تعدّ اختبارات لذاكرتك، وليس لذكائك. وتعطيك الجامعات الانطباع الخاطئ، كما لو أن الذاكرة هي ذكاء. وهي ليست كذلك.

وقد جرى إعداد هذا النظام التربوي بأكمله للقضاء على ذكائك، أو لتحويلك من الذكاء إلى الذاكرة. الذاكرة مفيدة، نفعيّة. والذكاء خطر؛ ولا نفع منه للوضع القائم، ولا نفع منه للمصالح الراسخة. ولطالما أثبت الأذكياء أنهم أشخاص صعبو المراس بسبب ذكائهم. ولا يمكنهم الخضوع لأي أمر غبي. ومجتمعنا تملأه الخرافات والأمور الغبيّة، وتسوده كل أنواع الهراء، باسم الدين، وباسم السياسة، وباسم الأدب والفن.

الكبت والاستغلال

يجري حرف انتباه كلّ ولد وتحويله. من هنا تجد الكثير جدّاً من الغباء. ومن باب المعجزات أن تستطيع قلّة من الناس التخلّص من هذا السجن، أمثال بوذا، وزردشت، ولاو تزو، ويسوع، وفيثاغورس ... وهم قلّة قليلة جدّاً من الناس. يكاد يستحيل الفرار

من هذا السجن، لأنه مُشيَّد حولنا منذ البداية. وأنت تُكيَّف منذ طفولتك تماماً لتكون سجيناً، مسيحيّاً، هندوسيّاً، مسلماً. ومن الطبيعي وقوع العنف عندما تكونون أسرى الكنائس والأمم والأعراق.

ما من حيوان يمتلك عنف الإنسان. الحيوانات تقتل، لكنّها لا تقتل إلاّ وهي جائعة، وإلاّ لا تفعل. الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يستمتع بالقتل من دون أي سبب على الإطلاق، كما لو أن القتل نشاط سعيد.

دخل يوماً أسد وأرنب برّي إلى مطعم. ذُهل المدير؛ ولم يستطع تصديق عينيه. عمّ الصمت المطبق مختلف أنحاء المطعم. وُجد في المكان كثير من الناس يأكلون ويتحدّثون ويثرثرون؛ والتزموا جميعهم الصمت المطلق. ما الذي يحدث؟ هرع المدير إلى الزبونين الجديدين. وتمكّن في شكل من الأشكال من أن يتمتم للأرنب، «ما الذي تريده، يا سيّدي؟».

طلب الأرنب القهوة. وسأله المدير، «وماذا يودّ صديقك أن يأكل؟».

ضحك الأرنب وقال: «أتعتقد أنه لو كان جائعاً لكنتُ هنا؟ ليس جائعاً؛ وإلا لتناول فطوره ولقُضي عليّ! لا يمكننا البقاء معاً إلا إذا لم يكن جائعاً».

لا يقتل الأسد إذا لم يجع. وحده الإنسان يقتل من دون سبب على الإطلاق، من أجل أفكار غبيّة. ويمكن للمرء أن يفهم لو أن شخصاً كان جائعاً. لكنّه لن يفهم هيروشيما وناغازاكي، حيث جرى القضاء على مئات آلاف الناس في ثلاث دقائق لمجرّد فرح الدمار.

يحدث هذا، لأننا لم نسمح لذكاء الإنسان بالإزهار. وكلما أتيح للذكاء في أي مجتمع ببعض من الحرّية، بات ذلك المجتمع أكثر ضعفاً من المجتمعات الأخرى. حدث ذلك في الهند: بقيت الهند، ولأسباب عدّة، مستعبدة لألفي سنة. واحد من هذه الأسباب هو الثورة الكبرى التي جلبها كريشنا، وباتانجالي، وسراها، وماهافيرا، وبوذا. جاء هؤلاء الناس بثورة كبرى وبتغيير كبير في وجدان الهند، حيث جرى تحرير

عدد كبير من الناس من عبوديّة الغباء؛ جرى إطلاق ذكاء عظيم. وكانت النتيجة أن الأذكياء قد توقّفوا عن القتل، وأصبحوا غير عنفيّين؛ رفضوا تجنيدهم في الجيش. رفض البوذيّون والجانيّون تجنيدهم في الجيش. فهم الصفوة، وقد رفضت الصفوة القتال. آنذاك، تعرّضت البلاد لاجتياح بلدان غبيّة جدّاً وشعوب عاديّة جدّاً، أمثال الهون والأتراك والمغول المتأخرين بكل الأشكال الممكنة. لم يُعد الأشخاص الأكثر ذكاء في الجيل الأصغر مهتمّين بالقتل وبالعنف، لم تحدث أية مقاومة وأي قتال. غزت تلك الشعوب البلاد، حيث قامت بلدان صغيرة جدّاً بغزو بلادٍ كبيرة. وبقيت الهند ألفي سنة في العبوديّة، لهذا السبب البسيط.

وقع الأمر نفسه في أثينا. حيث مثل سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وفيثاغورس، وهرقليطس... الأشخاص الذين حملوا ذكاء عظيماً، فخُلق مناخ من الحرّية، من حرّية الفكر. وهذه واحدة من أجمل الظواهر التي حلّت على الأرض، ودمّرتها شعوب غبيّة مثل البرابرة. واختفت الحضارة الإغريقيّة كلّها.

يتمثّل اقتراحي في الآتي: لا يمكن السماح بالذكاء، ما لم نشكّل حكومة عالمية. وقد حان وقت تشكيلها. انتفت الحاجة إلى الحكومات الوطنيّة: إنها أمور من الماضي، جزء من ماضينا الغبي. لم تعد هناك حاجة إلى الأمم، بل إلى حكومة عالميّة. وفي حال تشكيل حكومة عالميّة، فسوف تمتلك صفة مختلفة تماماً.

سوف يتوجّب خفض أعداد الجيوش، لانتفاء الدافع إلى القتال. يُخصص اليوم سبعون بالمئة من مال العالم وثروته وموارده للجيش ولأسلحة الجيش، سبعون بالمئة! ولا يُترَك إلا ثلاثون بالمئة فقط للغايات الأخرى. يعني ذلك أن سبعين بالمئة من الطاقة مخصصة للقتل، للعنف أو للدمار.

الحكومة العالميّة حاجة مطلقة لإنقاذ الإنسانيّة. كما أن صفة الحكومة العالمية ستختلف كلّياً، لأنها لن تحتاج إلى جيوش عظيمة؛ بل ستكفي قوّات صغيرة للشرطة. وستتولّى كل الأمور، مثل البريد والسكّة الحديد والطائرات... وهي لن تكون مدمّرة، بل تخدم الناس. وما إن تختفي الجيوش من العالم حتى يجري إطلاق الذكاء العظيم، لأن الجيش مدمّر للذكاء. يجنّد أصحّ الناس ويدمّر عقولهم، لأن الجندي الحقيقي رهن بأن يصير آليّاً تماماً.

الإنسان يقتل من دون سبب. ويميل إلى الكبت بدلاً من الفهم، وإلى الاستغلال بدلاً من إقامة العلاقة، لأن إقامة العلاقة مع شخص تحتاج إلى تفهّم كبير.

لا يحتاج الاستغلال إلى التفهّم. والكبت سهل، سهل جدّاً، في استطاعة أي مجنون القيام به. ولهذا، إذا قصدتم الأديار سوف تجدون كلّ أنواع الكبت، ستجدون كلّ أنواع المجانين المتجمّعين فيها. لم أصادف قط رهباناً وراهبات أذكياء؛ ولو أنهم أذكياء فلن يعودوا رهباناً وراهبات. سيتخلّون عن ذلك الهراء، ويخرجون ممّا تُسمّى سجونهم الدينيّة. إلا أن الكبت لا يحتاج إلى أيّة حكمة؛ يحتاج إلى أنا قويّة تمكّنك من أن تمضي وتكبت كلّ شيء في اللاوعي. لكن سيتوجّب عليك أن تعيد مراراً وتكراراً كبت ما سبق لك أن كبته. ومع ذلك لن يجري القضاء عليه نهائيّاً. ومع تقدّمك في العمر، سوف يستشري بك، لأنك ستصير أشدّ ضعفاً. والكابت يغدو أضعف، والمكبوت يبقى نضراً وشاباً، لأنه لم يُستَخدم قط.

تبرز المشكلة الحقيقيّة في السن المتقدّمة، عندما يشرع الكبت في التفجّر وفي خلق كل أنواع البشاعة. إن خمسة آلاف عام من الكبت هي التي تولّد كل عُصابيّاتنا وكلّ انحرافاتنا. اكبت الجنس تصبح أكثر جنسانيّة؛ وتتلوّن حياتك كلّها بالجنس. سوف تفكّر دوماً بعبارات الجنس ولا شيء سواه. اكبت الجنس وستظهر مؤسّسة البغاء الشنيعة، مُحتّم عليها أن تظهر. فكلّما زاد المجتمع كبتاً، ارتفع فيه عدد المومسات؛ والنسبة هي نفسها دائماً. لا يمكنك الاعتماد على الراهبات والرهبان. وسوف تعرف من خلال إحصاء أعدادهم كم في البلاد من البغايا، نساء ورجالاً. إنّه العدد نفسه تماماً، لأن الطبيعة تحافظ على التوازن. وكم سيتولّد من انحرافات... لأن الطاقة الجنسية ستجد سبلاً أخرى، سبلها الخاصة. وهي ستولّد إمّا العُصاب وإمّا الرياء. وكلاهما حالة سيّئة. يغدو الفقراء عُصابيّين والأغنياء مرائين.

قيل إنه عندما حطّم موسى في فورة غضبه لوحَتَي الوصايا العشر، هرع الجميع لالتقاط قطعة منهما.

وبالطبع جاء الأغنياء والسياسيّون أوّلاً. وحصلوا على القطع الجيّدة التي حُفر

عليها «ازنِ»، «اكذب»، «اسرق». وحصل الفقراء والباقون فقط على القطع التي جاء فيها، «لا»، «لا».

يولّد الكبت المكر. وبذلك تفقد أصالتك وطبيعتك وتلقائيّتك. تخسر الحقيقة. وتشرع في الكذب على الآخرين، وتبدأ بالكذب على نفسك. تأخذ في العثور على طرق للكذب وللاستمرار في الكذب. وسوف تحتاج الكذبة الواحدة إلى ألف كذبة أخرى لحمايتها ودعمها.

خطيئة المعصية

عندما تخرّج هنري ثورو في الجامعة، أقام إيمرسون حفلة كبرى احتفاء بالمناسبة. وقال للمشاركين: «أنا لا أحيي هذه الحفلة لأنّ ثورو حصّل معرفة كبرى، بل لأنه تمكّن من مغادرة الجامعة، وهو لا يزال ذكيّاً. لم تتمكّن الجامعة من تدمير ذكائه. لقد أخفقت، وهذا هو السبب في إقامتي هذه الحفلة! أحترمُ هذا الشاب لسبب وحيد هو أنه أفلت من كل الاستراتيجيّة الماكرة التي تشكّل نظامنا التربوي».

يعني الذكاء، ببساطة، القدرة على الاستجابة، لأن الحياة دفق. يجب أن تكون واعياً وأن ترى ما هو مطلوب منك، وما هو التحدّي الذي يفرضه الوضع. يتصرّف الذكي وفقاً للوضع، ويتصرّف الغبي وفقاً للأجوبة الجاهزة. وينقل معه دوماً «النصوص المقدّسة». يخشى الغبي الاعتماد على نفسه. أما الإنسان الذكي فيعتمد على بصيرته. ويثق بكينونته. يحبّ نفسه ويحترمها. والشخص الغبي يحترم الآخرين.

يتصرّف الذكي وفقاً للوضع، ويتصرّف الغبي وفقاً للأجوبة الجاهزة، وينقل معه دوماً «النصوص المقدّسة». أما الإنسان الذكي فيعتمد على بصيرته. ويثق بكينونته.

وفي وسعكم رؤية المقصد. لمَ تهتم المصالح الراسخة في خلق الغباء؟ لأنها الطريقة الوحيدة التي يمكنهم فيها الحصول على الاحترام. ولا يريد أي أهل فعلاً أن يكون أولادهم أذكياء، لأنهم إذا باتوا أذكياء باتوا

متمرّدين وعصاة. وقد فُرضت عليكم الطاعة بوصفها قيمة كبرى، وهي ليست كذلك. إنها سبب من الأسباب الأساسيّة لدمار ذكائكم.

أنا لا أقول كونوا عصاة. أقول لكم كونوا مطيعين متى شعرتم بأن عليكم الطاعة. وكونوا صادقين مع أنفسكم عندما تشعرون بالحاجة إلى العصيان، كونوا صادقين مع أنفسكم. فمسؤوليّتكم الوحيدة هي حيال أنفسكم، وليس حيال الآخرين.

الذكي يجازف. وهو على استعداد للموت بدلاً من المساومة. وهو بالطبع لن يقاتل في شأن أمور غير أساسيّة، لكنه لن ينصاع، مادام الأمر يتعلّق بالأساسيّات.

لكنّكم انصعتم حتى في الأساسيّات. ما هو إيمانكم باللّه؟ لقد أطعتم الأوامر فحسب. ماذا تعرفون عن اللّه؟ أطعتم فحسب؛ تبعتم أهلكم، وهم تبعوا أهلهم. يسعد الأهل بالأولاد غير الأذكياء لأنهم مطيعون، يجب أن يكونوا مطيعين. ويتوصّل الأولاد إلى معرفة أمر واحد، وهو أنهم مهما فعلوا فإن من المحتّم أن يكونوا خاطئين؛ وإن من الأفضل إذاً الاستماع إلى نصيحة الأهل.

دأب كل مجتمع، وعلى مدى آلاف السنين، على القول للأولاد: «احترموا أهاليكم»، لأنّهم يخافون ألّا يحترم الأولاد أهاليهم. وأنا لا أحاول التقليل من احترامكم لأهاليكم. أنا أقول إن عليكم أوّلاً أن تحترموا أنفسكم. ويمكنكم، انطلاقاً من هذا الاحترام، احترام أهاليكم وأساتذتكم. يمكنكم احترام الجميع. لكنّكم إذا لم تحترموا أنفسكم فإنّ احترامكم لجميع الآخرين سوف يكون مزيّفاً؛ وسيكون في عمق أعماقكم كره. كلّ ولد يكره أهله... يشعر في عمق أعماقه أن «الأهل أعدائي». فهو يرى كيف يجري تعطيل ذكائه.

ذات مساء، وضعت الأم الشابة ولديها في السرير، وارتدت بلوزة رثّة وبنطلوناً فضفاضاً، وشرعت في غسل شعرها. استطاعت طوال فترة استخدامها الشامبو سماع الولدين يزدادان صخباً وضجيجاً. أنهت ما تفعله بأسرع ما أمكن، ولفّت منشفة كبيرة حول رأسها، واقتحمت غرفتهما وعاودت وضعهما في السرير مع تحذير قاس لهما بالمكوث فيه. وسمعت

وهي تغادر ابن السنتين يقول لشقيقته بصوت مرتجف: «من كانت *تلك* المرأة؟».

هذا ذكاء!

لكن المجتمع لا يهتم بالأشخاص الأذكياء. لا يهتمّ بالساعين، بل يهتمّ بالجنود. يريد خلق الجنود. ولا يسعك، ما لم تكن غبيّاً، أن تكون جنديّاً جيّداً. وعندما يتعلّق الأمر بكونك جنديّاً، فإنّك كلّما زدت غباء كان ذلك أفضل.

هلع آخر جندي وهو يهمّ بالقفز من الطائرة، وتمسّك برقيبه وقال: «ماذا يحدث إذا لم تفتح مظلّتي الثانية هي الأخرى؟».

«لا تقلق»، قال الرقيب مبتسماً، «عد إليّ وسوف أعطيك واحدة جديدة!».

الحياة رحلة جميلة لو أنها عمليّة تعلّم واستكشاف مستمرّين. عندها تشكّل كلّ لحظة فيها إثارة، لأنك تفتح في كل لحظة باباً جديداً، وتصادف في كلّ لحظة لغزاً جديداً.

تعني كلمة تلميذ *disciple* ذلك الذي يتعلّم، وتعني كلمة المنهج الدراسي *disci-pline* عمليّة التعلّم. وباتت كلمة *discipline* تعني اليوم الانضباط، الانصياع. حوّلوا الكلمة برمّتها إلى معسكر لصبية الكشّافة. ثمّة مَن يعرف، وهو فوقنا في الأعالي، وأنت لا تحتاج إلى التعلّم، بل تحتاج فقط إلى الطاعة. حوّلوا معنى المنهج الدراسي إلى عكسه تماماً.

يتألّف التعلّم تلقائيّاً من الارتياب والتساؤل والتشكيك والفضول، وفي ألاّ تكون، بالتأكيد، مؤمناً، لأنّ المؤمن لا يتعلّم أبداً. لكنّهم استخدموا الكلمة بهذه الطريقة على مدى آلاف السنين. ولم يكتفوا بتعهير كلمة واحدة فحسب، بل عهّروا الكثير من الكلمات. كلمات جميلة باتت على قدر كبير من البشاعة، على أيدي أصحاب المصلحة الراسخة إلى حدّ لم يعد معه أحد قادراً حتى على تخيّل المعنى الأصلي للكلمة، بعد آلاف السنين من سوء الاستخدام.

يريدون من الجميع الانضباط بالطريقة التي ينضبط فيها الناس في الجيش. وعليك أن تتلقّى الأمر، فتنفّذ من دون السؤال عن السبب. هذه ليست الطريقة للتعلّم! وفرضوا، منذ البداية بالذات، القصص على أذهان الناس، كمثل أن الخطيئة الأولى التي ارتُكبت هي المعصية، حيث طُرد آدم وحوّاء من جنّة عدن، لأنهما ارتكبا المعصية.

قلّبتُ الأمر من آلاف الوجوه، لكنّني لم أرَ أن آدم وحوّاء قد ارتكبا أيّة خطيئة أو جريمة. كل ما فعلاه هو الاستكشاف. أنت في حديقة وتشرع في استكشاف الفواكه والأزهار وما يؤكل وما لا يؤكل.

واللّه مسؤول لأنه حظّر عليهما شجرتين. دلّ على الشجرتين وقال: «يجب ألّا تقتربا من هاتين الشجرتين. إحداهما شجرة الحكمة والأخرى شجرة الحياة الأبديّة». فكّرْ، لو أنّك آدم وحوّاء، ألم يغرِكَ اللّه نفسه بالذهاب إلى تلك الشجرتين؟ وهاتان الشجرتان هما الحكمة والحياة الأبديّة، فلمَ يكون اللّه ضدّهما؟ لو أنّه أب حقّاً، أبّ يحبّك، لدلّ عليهما قائلاً: «هذه شجرة سامة، فلا تأكلا منها». أو، «هذه شجرة الموت: إذا أكلت أي شيء منها ستموت». لكنّ هاتين الشجرتين جيّدتان تماماً! تناولا منهما قدر ما تستطيعان، لأن من الصحيح تماماً أن تكونا حكيمين وتحصلان على الحياة الأبديّة.

يريد كل أب لأبنائه الحصول على الحكمة والحياة الأبديّة. وذاك الأب كما صُوِّرَ يبدو خالياً تماماً من الحب. ليس خالياً من الحبّ فحسب، بل كما قال الشيطان لحوّاء: «لقد منعكما عن هاتين الشجرتين. أتعرفان السبب؟ السبب هو أنكما إذا أكلتما من هاتين الشجرتين ستصبحان مساويين له، وهو غيور. لا يريدكما أن تصيرا إلهين. لا يريدكما أن تصيرا إلهين ملؤكما الحكمة والحياة الأبديّة».

يمكنني القول بحسب رؤيتي الشخصية إنني لا أجد أي عيب في حُجّة الشيطان. إنّه محقّ تماماً. وأجده المحسن الأوّل للإنسانيّة. فلولاه ربّما لم تكن الإنسانيّة، لا غوتما بوذا، ولا كبير، ولا مسيح، ولا زردشت، ولا لاو تزو... بل مجرّد ثيران وحشيّة وحمير ترعى كلّها العشب، تمضغ العشب بقناعة. ولكان اللّه سعيداً تماماً بأن ولديه مطيعان جدّاً!

لكنّ هذه الطاعة سمّ، سمّ خالص. وهكذا يظهر اعتبار الشيطان كأوّل ثوريّ في العالم، أوّل رجل يفكّر بعبارات التطوّر والحكمة والحياة الأبديّة.

اتباع الأوامر

يجري، في كل أنحاء العالم وفي كلّ جيش، تحويل ملايين الناس إلى آلات، وطبعاً، بطريقة لا تفهم معها ما الذي يجري. لأنّهم يعتمدون إلى حدّ بعيد منهجاً غير مباشر.

ماذا يعني أن يسير آلاف الأشخاص في كلّ صباح، وهم يتبعون الأوامر: «إلى اليمين در، إلى اليسار در، إلى الأمام سر، إلى الوراء در». ما الهدف من ذلك السيرك؟ وهو يستمر لسنين.

لقد عُدَّ ذلك لتدمير ذكائك. فأنت تواصل لسنين متعاقبة اتّباع أي نوع من الأوامر الغبيّة التي لا معنى لها. كلّ يوم في الصباح وكلّ يوم في المساء، ولا يُفترض بك أن تسأل عن السبب. عليك القيام بالأمر فحسب، وأن تؤدّيه بأفضل طريقة ممكنة؛ ولا حاجة بك إلى فهم السبب. وعندما يخضع المرء لمثل هذا التدريب على مدى سنوات، فإن التأثير الطبيعي هو في أنه لا يعود يسأل عن السبب.

تشكّل النزعة إلى الشكّ الأساس لكلّ ذكاء. وفي اللحظة التي لا تعود فيها تسأل عن السبب، يتوقّف ذكاؤك عن النمو.

تشكّل النزعة إلى الشكّ الأساس لكلّ ذكاء. وفي اللحظة التي لا تعود فيها تسأل عن السبب، يتوقّف ذكاؤك عن النمو.

حدث في الحرب العالميّة الثانية

أنّ جنديّاً متقاعداً قاتل في الحرب العالميّة الأولى وكُرّم؛ كان رجلاً شجاعاً. وهو بعد انقضاء خمسة وعشرين عاماً تقريباً، يمتلك مزرعة صغيرة ويعيش بصمت.

ذات يوم، وهو في طريقه من المزرعة إلى المدينة ومعه دلو ممتلئة بالبيض،

حاك بضعة أشخاص في مطعم، على سبيل المزاح ليس إلّا، مقلباً للجندي المسكين العجوز. صاح أحد الرجال في المطعم، «استعدّ!»، وأسقط الرجل الدلو، ووقف في وضعية الاستعداد.

انقضت خمسة وعشرون عاماً على ما تلقّاه من تدريب. لكنّ التدريب تفشّى في العظام، في الدم، في النخاع؛ صار جزءاً من اللاوعي. نسي تماماً ما كان يقوم به، حدث الأمر بشكل شبه تلقائي، شبه آلي.

غضب غضباً شديداً. لكن أولئك القوم قالوا: «غضبك ليس في محلّه، لأننا نستطيع التفوّه بأي كلمة نريدها. ومن طلب منك اتباعها؟».

قال: «فات الأوان، لأقرّر هل أتبع ذلك أو لا أتبعه. ذهني كلّه يعمل كالآلة. فتلك الأعوام الخمسة والعشرون اختفت. *استعد* تعني فقط الاستعداد. حطمّتم بيوضي، وأنا رجل فقير...».

لكن ذلك يحدث في كلّ أنحاء العالم، وفي مختلف الأزمنة؛ فقد جرى منذ البداية تدريب الجيوش على عدم استخدام الذكاء، بل على اتباع الأوامر.

عليكم إدراك شيء واحد بوضوح شديد: اتباع الأمر وفهم الشيء موضوعان يتناقضان تماماً. فإذا شعر ذكاؤك، من خلال الإدراك، بالرضى، وقمت نتيجة ذلك بشيء، فأنت لا تتبع أمراً من الخارج، بل أنت تتبع ذكاءك.

ذُكّرتُ بحادثة أخرى في الحرب العالميّة الأولى. ففي برلين، جُنّد أستاذ منطق ألماني في الجيش. إذ حدث نقص في الجنود، وطُلب إلى كل شخص قادر جسديّاً التطوّع. وكانوا، ما لم يجر ذلك، يجبرون الناس على الالتحاق بالجيش. وافترضت كل المجتمعات، وكل الدول، وكل الثقافات، أن الفرد موجود من أجلها، وليس العكس.

والحالة، في نظري، هي العكس تماماً: المجتمع قائم من أجل الفرد، والثقافة قائمة من أجل الفرد، والدول قائمة من أجل الفرد. يمكن التضحية بكل ما عدا ذلك. لكن لا يمكن التضحية بالفرد من أجل أي شيء. فالفرديّة هي صفوة الوجود بالذات،

ما من شيء أسمى منها. لكن ما من ثقافة، ولا مجتمع ولا حضارة، على استعداد لقبول تلك الحقيقة البسيطة.

أُجبر البروفسور على التطوّع في الجيش. قال: «لست قادراً على القتال. يمكنني أن أجادل لأنني عالم في المنطق. وإذا احتجتم إلى من يجادل العدوّ فأنا مستعد، لكن القتال ليس من شأني. فالقتال عمل بربري».

لكن لم يستمع إليه أحد، وجيء به في النهاية إلى ساحة العرض العسكري. بدأ العرض وقال القائد: «إلى اليسار در». دار الجميع إلى اليسار، إلّا البروفسور، فقد بقي واقفاً كما هو. انتاب القائد بعض من القلق: «ما الأمر؟ ربّما كان الرجل أصمّ». فنادى بأعلى صوته، «والآن استديروا إلى اليسار من جديد!». استدار الجميع إلى اليسار من جديد، لكنّ ذلك الرجل بقي واقفاً كما لو أنّه لم يسمع شيئاً. إلى الأمام، إلى الوراء... أُعطيت الأوامر كلّها وتبعها الجميع. وبقي الرجل واقفاً في مكانه.

وهو بروفسور مشهور جدّاً؛ حتى القائد عرفه. ولا يمكن معاملته كأي جندي آخر، فهو يوحي بنوع من الاحترام. وأخيراً، وبعد انتهاء العرض وعودة الجميع إلى حيث بدأوا، مضى القائد إلى البروفسور وسأله: «ألديك أي مشكلة في أذنيك؟ ألا يمكنك أن تسمع؟».

أجاب: «يمكنني أن أسمع».

وقال القائد: «لكن لمَ إذاً بقيت واقفاً؟ لمَ لم تنفّذ الأوامر؟».

أجاب: «ما الغرض؟ وماذا استفاد الجميع عندما رجع الجميع في النهاية إلى الحالة نفسها بعد كل هذه التحرّكات إلى الأمام وإلى الوراء، إلى اليسار وإلى اليمين؟».

قال القائد: «ليست مسألة استفادة، بل هي مسألة تدريب!».

لكنه ردّ قائلاً: إنني «لا أحتاج إلى أي تدريب. عدتم إلى المكان نفسه بعد قيامكم بكلّ أنواع الأمور الغبيّة التي لا أرى هدفاً لها. أيمكنك أن تقول لي لماذا عليّ الاستدارة يساراً لا يميناً؟».

قال القائد: «أمرك غريب، ما من جندي يطرح مثل هذه الأسئلة».

قال البروفسور: «لست جنديّاً، أنا بروفسور. أجبرت أن أكون هنا، لكنك لا تستطيع إكراهي على القيام بأمور تتعارض مع ذكائي».

مضى القائد إلى السلطات العليا، وقال: «ما العمل مع هذا الرجل؟ قد يخرّب الآخرين، لأن الجميع يضحكون عليّ، والجميع يقولون، 'قمت بعمل رائع أيها البروفسور!'. أنا لا أستطيع التعامل مع هذا الرجل. فهو يطرح تلك الأسئلة، ويجب شرح كلّ شيء له: «لن أقوم به ما لم أفهمه، وما لم يدعمه ذكائي».

قال القائد الأعلى: «إنني أعرف الرجل، وهو عالم عظيم في المنطق. وتمثّل تدريب حياته كلّها في مساءلة كلّ شيء. سأتولّى أمره، لا تقلق».

استدعى البروفسور إلى مكتبه، وقال له: «إنني آسف، ولكن ليس في وسعنا فعل شيء. لقد جرى تجنيدك؛ والبلاد تحتاج إلى الجنود. لكنّني سأوكل إليك عملاً لن يخلق لك المصاعب، ولن يتسبّب بالمصاعب للآخرين. تعال معي إلى مطعم الجيش».

أخذ البروفسور إلى هناك ودلّه على كومة كبيرة من البزلّى الخضراء. وقال له: «اجلس هنا. يمكنك فرز حبوب البزلّى الكبيرة عند جانب، والحبوب الصغيرة عند الجانب الآخر. سآتي بعد ساعة وأرى كيف تجري الأمور».

عاد بعد ساعة. وكان البروفسور جالساً في المكان، والبزلّى أيضاً في المكان نفسه. قال، «ما الأمر؟ أنت لم تبدأ حتّى».

قال البروفسور: «للمرّة الأولى والأخيرة أريدكم جميعاً أن تفهموا أنكم إذا لم توضحوا لي لمَ عليّ فرز البزلّى؛ فسوف أشعر أن ذكائي قد تعرّض لإهانتكم. أأنا غبيّ لأفرز هذه البزلّى؟ ما الحاجة إلى ذلك؟ هناك بالإضافة إلى ذلك صعوبات أخرى. فكّرت، وأنا جالس هنا، أن بالإمكان أن تكون هناك بعض الحاجة. لكن ثمة أسئلة يجب البتّ فيها: هناك حبوب بزلّى كبيرة وهناك وحبوب صغيرة، فضلاً عن حبوب بحجوم كثيرة. أين يجب وضعها؟ لم تعطني أي معايير».

الأوامر، الانضباط، التوجيهات، استخدمها الأشخاص الذين يريدون السيطرة عليك، أشخاص يريدون إملاء شروطهم وفرض أفكارهم على حياة الناس الآخرين. وأنا أدعو هؤلاء الأشخاص بالمجرمين الكبار. ففرض أفكارهم على شخص ما، وفرض مثال ما، قالب ما، هو عنف، عنف مجرّد. إنهم تدميريّون.

الذهن - صندوق باندورا

ذهن الإنسان كناية عن صندوق باندورا.

يحتوي على كامل عمليّة التطوّر، من أوضع المخلوقات إلى أرفع العباقرة. وهي تعيش كلّها بشكل متزامن في ذهن الإنسان، وكلّها معاصرة. وليس الأمر أنّ فيها ما هو ماضٍ وما هو حاضر وما هو مستقبل. فكل شيء، في ما يتعلّق بالذهن، متزامن ومعاصر.

الغبي موجود في داخلك وكذلك العبقري. والغبي، بالطبع، أقوى بكثير لأنّه يمتلك تاريخاً أطول، والعبقري كناية عن صوت ساكن جدّاً وخافت.

يجب أن ندرك، بكثير من الوضوح، أن عدم فهم ذلك سيُبقي مسألة النظم العقائديّة المسبّبة للخلافات والتعصّب من دون حلّ. فالغبي في داخلك وكذلك العبقري. والغبي، بالطبع، أقوى بكثير لأنّه يمتلك تاريخاً أطول، والعبقري كناية عن صوت ساكن جدّاً وخافت. وأنت ممتدّ بين زعيم دينيّ، وعالم فيزياء، هو أينشتاين؛ والمشكلة تكمن في أن الزعيم الديني يمثّل الغالبيّة في داخلك مقابل ألبرت أينشتاين الذي يشكّل أقلّية ضئيلة جدّاً.

كرّ في ذهن الإنسان بوصفه هرماً. قاعدته مصنوعة ممّن يشبهون الزعيم الديني، وهم بالملايين: وكلما ازددت ارتفاعاً انخفض عدد الناس أكثر فأكثر. ولا يعودون

عند القمّة بالملايين ولا بالمليارات، بل بالعشرات فقط، وربما وُجد شخص وحيد عند رأس القمّة بالذات.

لكن تذكّر أن الفرق بين الزعيم الديني وأينشتاين ليس فرقاً نوعيّاً بل هو فرق كمّي، لأن جزءاً من ذلك الزعيم هو ألبرت أينشتاين، والجزء الأكبر من ألبرت أينشتاين هو أيضاً الزعيم الديني.

نُشرت أخيراً نتائج دراسة استغرقت ثلاثة أعوام عن دماغ ألبرت أينشتاين. تطلّب الأمر ثلاث سنوات لإحصاء خلايا دماغه. ومن الجدير بالذكر أن في كل دماغ ملايين الخلايا التي تقوم بأنواع مختلفة من العمل المحدّد: إنه عالم إعجازي جدّاً.

لا يزال من غير المعروف كيف أن خليّة معيّنة تعمل بطريقة معيّنة. فهناك خليّة معيّنة تفكّر، وخليّة معيّنة تحلم، وخليّة معيّنة تقرض الشعر، وخليّة معيّنة ترسم. ما الذي يُحدث الفرق بين مجموعات الخلايا هذه؟ فهي كلّها متشابهة، من حيث التركيبة الكيميائيّة والفيزيولوجيّة؛ ولا يبدو أن هناك فرقاً على الإطلاق. لكن هناك خلايا تفكّر، وخلايا تتخيّل، وخلايا حسابيّة، وخلايا فلسفيّة. إنه عالم متكامل.

ثلاثة أعوام استغرق إحصاء خلايا دماغ ألبرت أينشتاين، والنتيجة معبّرة جدّاً. فقد عُثر على نوع معيّن من الخلايا في دماغه، وتبيّن أن لديه سبعة وعشرين في المئة أكثر مما في الدماغ العادي؛ واكتُشف أن لنوع معيّن من الخلايا وظيفة واحدة لا غير: إطعام خلايا التفكير وتغذيتها. ليست لها وظيفة مباشرة، بل هي غذاء لخلايا التفكير. ووُجد أن خلايا التغذية هذه هي أكثر بنسبة سبعة وعشرين بالمئة في دماغ أينشتاين، مما هي لدى الإنسان العادي.

إلا أن الفرق كمّي وليس فرقاً نوعيّاً. ويمكن لنسبة السبعة والعشرين بالمئة الإضافية من تلك الخلايا أن تنمو في دماغك. ولمَ سبعة وعشرون بالمئة فقط؟ يمكن إنماء مئتين وسبعين بالمئة أكثر، لأن من المعروف جيّداً ومن الواقع المثبت أن تلك الخلايا تنمو.

وقد نُمّيَتْ كلّ أنواع الخلايا في الفئران البيضاء. ولو أعطيت الفأرة البيضاء مزيداً من الأشياء لتلعب بها، لشرعت في إنماء تلك الخلايا المغذّية، لأن عليها أن

تفكّر. ولو وضعتها في متاهة وتوجّب عليها العثور على طريق للخروج، ولو وضعتها في صندوق خبّئ فيه الطعام في مكان ما وعليها إيجاد طريقها عبر كل أنواع المتاهات لبلوغ الطعام، وعليها أن تتذكّر الممرات التي قطعتها، لأشّر كل ذلك على أن نوعاً من التفكير قد بدأ حتماً. وكلّما فكّرتْ، ازدادت حاجتها إلى خلايا التغذية.

توفّر لك الطبيعة كل ما تحتاج إليه. وليس كلّ ما لديك عطيّة من أي إله أو قدر؛ إنّه وليد حاجتك. إلاّ أن هناك أمراً واحداً في هذا البحث كلّه يفاجئ جدّاً ويصدم: وهو أن الفرق بين أينشتاين والزعيم الديني هو في الكمّية فحسب. وهذه الكميّة ليست أمراً استثنائيّاً، بل يمكن توليدها: ما على الزعيم الديني العجوز إلا أن يبدأ بلعب الشطرنج والورق... وهو لن يفعل ذلك بالطبع. لكنّه لو بدأ بلعب الشطرنج والورق وسوى ذلك، فسيكون عليه أن يفكّر.

الإيمان يعني ألّا تفكّر، وألّا تلعب بالأفكار، وألّا تحاول تلمّس طريق الخروج بنفسك. فيسوع قد وجدها بالفعل، وقالها بوذا بالفعل، فلماذا تشغل نفسك من غير داع؟

تقتل الديانات خليّة التغذية هذه بالذات، لأنها تطلب منك أن تؤمن. والإيمان يعني ألّا تفكّر، وألّا تلعب بالأفكار، وألّا تحاول تلمّس طريق الخروج بنفسك. فيسوع قد وجدها بالفعل، وقالها بوذا بالفعل، فلماذا تشغل نفسك من غير داع؟ من الطبيعي آنذاك ألاّ يتطوّر ذلك الجزء الذي يجعل من الشخص أينشتاين: وتبقى عاديّاً. والعادي يعني قبو الإنسانيّة.

من هذا المنطق، أسميت ذهن الإنسان صندوق باندورا. ومن منطلق آخر أيضاً هو أن كل ما حدث في عمليّة التطوّر قد خلّف آثاره في داخلك. فأنت لا تزال تخاف من الظلمة، خوفاً، لا شك في أن عمره ملايين السنين؛ ولا علاقة له البتّة بالعالم الحديث. ويصعب في الواقع أن تجد في مكان، مثل نيويورك، زاوية مظلمة، لأن كلّ شيء مضاء للغاية. قد لا يكون الناس متنوّرين، لكنّ الأماكن منوّرة!

لمَ هذا الخوف من الظلمة؟ لأنّك، في الحياة العصريّة، لا تصادف الظلمة بأي شكل مخيف. وإذا صادفتها فهي مهدّئة ومريحة ومحيية. عليك، بدلاً من الخوف

منها، أن تمتلك نوعاً من المحبّة لها. لكن فكرة محبّة الظلمة هي في حدّ ذاتها عبثيّة. وفي مكان ما من أعماق قلبك، لا يزال يقبع إنسان الكهف الذي خاف من الظلمة. ويأتي الخوف من الظلمة من تلك الأيام التي لم تكن قد اكتُشفت فيها سبل إشعال النار. تلك كانت أيام الظلمة، حيث كادت الظلمة تصير مرادفاً للشرّ. والشرّ يُصوَّر في كل مكان باللون القاتم، بالأسود. وباتت الظلمة مرادفة للموت. وصُوِّر الموت في كل مكان على أنه أسود.

السبب واضح جدّاً: قبل أن يتعلّم الإنسان كيفيّة إشعال النار، كان الليل أكثر الأوقات خطورة. ولو أنّك نجوت ليلة واحدة فستكون قد قمت بأمر عظيم فعلاً، لأن كل الحيوانات البرّية تتأهّب لمهاجمتك ليلاً. لا يمكنك النوم، وتضطرّ إلى البقاء مستيقظاً، مجرّد الخوف من الحيوانات كان يكفي لإبقائك مستيقظاً. ومع ذلك، كانت تهاجم في الظلمة، يوم كان الإنسان عاجزاً.

وهكذا باتت الظلمة شرّاً ومرادفاً للموت. وولج الخوف في عمق القلب، واستمرّ إلى يومنا هذا، الذي خضعت فيه الظلمة إلى تحوّل كامل... فلا الحيوانات البرّية تهاجمك في الظلام، ولا الظلمة تجلب لك أيّ شرّ أو موت. بل إنها تأتي فقط بالنوم الهانئ، وتزيح عنك كلّ تعب النهار، تجدّد شبابك، تحييك، تمدّك بالطاقة الكاملة، وتُعدّك لاستقبال شمس صباح الغد. إلا أن نزعتنا السلوكيّة بقيت نفسها. وكذلك هي حال كلّ شيء.

في الماضي، توجّب على المرء، خلال عمليّة التطوّر كلّها، أن ينتمي إلى جماعة معيّنة، إلى تنظيم، مجتمع، قبيلة، لسبب بسيط هو أنه عاجز للغاية بمفرده. أنت وحيد، وكل البرّية ضدّك، هذا أمر تصعب مواجهته. وأنت تشعر برفقة الجمع بحماية أكبر، وأمان أوفر.

يجب أن تتذكّر أن الإنسان أضعف حيوان في العالم، والأكثر عجزاً. وقد تطوّرت كلّ حضارتنا وثقافتنا بسبب هذا العجز، وهذا الضعف. فلا تفكّر في الأمر على أنه لعنة؛ لأنه أثبت أنه أكبر نعمة، بل النعمة الكبرى. لا تستطيع الأسود إنشاء مجتمع؛

ولا تستطيع الأسود توليد ثقافة، لانتفاء حاجة الأسد إلى المجموعة. فهو وحده يتمتّع بما يكفي من القوّة. الخراف تنتقل في مجموعات؛ في حين أن الأسود لا تنتقل هكذا. ذلك أن لكل أسد منطقته الخاصة به. ولديه تقنيّة محدّدة في إعلان منطقته. وهذه الميزة تمتلكها كلّ الحيوانات. فهي تبول على منطقة معيّنة، وتدرك الحيوانات الأخرى من الرائحة أن هذا هو خط الحدود، أي السياج. ومادمت خارجه، فإن كلّ شيء على ما يرام؛ ومجرّد خطوة واحدة إلى داخل المنطقة، تواجه الخطر.

تحبّ الأسود البقاء وحدها لسبب بسيط، هو أنها خصم قويّ. فكّرْ الآن في شأن الإنسان... فقوّة جسمه لا تُقارَن بقوّة جسم الحيوان. أظفاره على درجة كبيرة من القوّة لكنّه لا يستطيع قتل حيوان بها. وليست أسنانه على هذا القدر من القوّة ليأكل اللحم النيء لحيوان قتله بيديه. فلا هو قادرٌ على القتل بيديه؛ ولا على أكل اللحم النيء مباشرة بأسنانه. فكلّ أطرافه أضعف من أطراف الحيوانات الأخرى. وهو لا يستطيع مجاراة الحصان أو الكلب أو الثور أو الذئب أو الغزال في الركض، إنّه نكرة فحسب! ومن الجيّد أن هذه الحيوانات لا تشارك في سباقاتك الأولمبيّة، وإلا لبدا كبار عدّائيك بلا جدوى. لا يمكنك الانتقال مثل القردة من شجرة إلى أخرى. فهي تواصل على مدى أميال القفز من شجرة إلى شجرة أخرى؛ ولا تحتاج إلى لمس الأرض. وأنت لا تستطيع مصارعة قرد.

يجب أن تقبل أن الإنسان أضعف حيوان على الأرض. وهذا هو أساس سلوكه كلّه والتزاماته وتجمّعاته. عليه أن يكون جزءاً من شيء أكبر منه؛ عندها فقط يشعر بالأمان.

فقد اضطُرّ إلى اختراع كلّ أنواع الأسلحة. ولم يكلّف أي من الحيوانات نفسه مشقّة اختراع أسلحة. ولا حاجة بها إلى ذلك؛ فأيديها وأسنانها ومخالبها تكفي. اضطرّ الإنسان، منذ أيامه الأولى، إلى اختراع الأسلحة، صنعها في البداية من الحجارة والصخور وانتقل شيئاً فشيئاً إلى صنعها من المعادن. ثم كان عليه الاعتراف بأنه حتى وهو يحمل السلاح في يده، لا يستطيع قتال الأسد أو الحيوان من مسافة قريبة. وبات عليه اختراع السهام، للرمي عن بعد؛ ذلك أن الاقتراب خطر جدّاً. ربّما

امتلكتَ سلاحاً، لكنه لا يُجدي كثيراً في استخدامه ضد فيل؛ لأنه سيمسك بك وبسلاحك معاً ويرميك نصف ميل بعيداً. وبات من الضروري الرمي عن بعد بطريقة أو بأخرى.

وهكذا وصلنا إلى الأسلحة النوويّة. وأبعدنا الإنسان كلّيّاً عنها؛ ولم يعد عليك إلا أن تضغط على زرّ، وينطلق الصاروخ. ولا تحتاج إلى معرفة مكان سقوطه؛ فهو يمضي وفق مساره المبرمج. سيصيب الكرملين أو يصيب البيت الأبيض؛ ذلك البرنامج مدمج فيه. ولا يهمّ من الذي يضغط على الزرّ؛ فقد يكون على بعد أميال منه. وعليه أن يكون على بعد أميال، والإنسان في النهاية ليس البابا، وهو غير معصوم عن الخطأ؛ حيث يمكن للأمور أن ترتدّ عليك. ويمكن للصاروخ أن يكون في مكان ما في تكساس والأزرار، مفاتيح التحويل، في مكان ما في البيت الأبيض.

أوجد الإنسان مسافة بينه وبين العدوّ. وبات عليه في النهاية أن يوجد أيضاً مسافة بينه وبين السلاح، لأنّ السلاح صار خطراً جدّاً. وإبقاؤه قريباً يعني مجازفة غير ضروريّة.

لكن كلّ شيء نما بطريقة منطقيّة جدّاً. صار الإنسان قاهر الحيوانات كلّها. وبهذا المعنى فقط يمكن القول: «طوبى للودعاء فإنهم يرثون ملكوت الأرض». وورثوه بهذا المعنى فقط، وليس بأي معنى روحي آخر. أثبت الإنسان أن قوّته في ضعفه.

لا تواجه الحيوانات أي مشكلة. تعرف تماماً، كلّما واجهتْ أمراً، ما عليها فعله؛ ولذلك لا ينمو التفكير. وتُرك الإنسان من دون أي حلول، وقد أحاطت به مشكلات هائلة، فتوجّب عليه أن يفكّر.

كان على الإنسان أن يفكّر. توجّب عليه تدبير الأمور. فهناك مشكلات كثيرة جدّاً لا يمتلك وسيلة طبيعيّة لإيجاد الحلول لها، من هنا التفكير. يعني التفكير ببساطة أنّك تواجه مشكلة لم تمدّك الطبيعة بمفتاح حلّ لها. وقد زُوّدت الحيوانات كلّها بمفاتيح للحل. وهي لا تواجه أي مشكلة. تعرف تماماً، كلّما واجهتْ أمراً، ما عليها فعله؛ ولذلك لا ينمو التفكير. وتُرك الإنسان من دون أي حلول، وقد أحاطت به مشكلات هائلة، فتوجّب *عليه* أن يفكّر.

وعلى مرّ ملايين السنين أصبحت خلايا تفكيره أكثر فأكثر فاعليّة. لكنّه أخذ على طول الطريق في جمع كلّ أنواع الغبار، وكل أنواع المخاوف.

كان ذلك ضرورياً ولم يمكن ممكناً تفاديه؛ غير أن المشكلة هي في أن الوقت قد مرّ، وأنتَ قد عبرت ذلك الطريق، إلا أن الغبار لا يزال عالقاً بك.

بات في وسع الإنسان البقاء وحده. وانتفت حاجته إلى الانتماء المتعصّب لأي جماعة دينيّة، لأي أيديولوجيّة سياسيّة: المسيحيّة، الهندوسيّة، المحمديّة، الشيوعيّة، الفاشيّة. لكنّ الغالبيّة تتألّف من أغبياء يواصلون العودة إلى العيش في الماضي المرّة تلو المرّة. يُقال إن التاريخ يعيد نفسه، وهذا صحيح في ما يتعلّق بتسعة وتسعين بالمئة من البشريّة؛ ولا يمكن أن يكون غير ذلك. عليه أن يعيد نفسه، لأن هؤلاء الناس يتعلّقون بماضيهم، ويواصلون القيام بالأمر نفسه مراراً وتكراراً.

يتكتّلون في مجموعات، ويجب أن يشكّل هذا التزاماً، وإلا ما معنى أن تتحمّل الجماعة عبء ضمّك إليها؟ عليك أن تدفع شيئاً في المقابل. ولمَ تزعج الجماعة نفسها في شأن سلامتك؟ عليك أن تفعل شيئاً للمجموعة، ذلك هو التزامك. تقول، «أنا على استعداد للموت من أجلكم. إذا كنتم على استعداد للموت من أجلي فأنا على استعداد للموت من أجلكم». إنها صفقة بسيطة.

ولمَ يلتزمون بتعصُّب؟ يجب أن يكونوا كذلك، لأنهم إذا أخذوا في الوعي واليقظة، فسيرون مدى غباء ما يفعلونه.

لا تدعو الحاجة إلى الانتماء لحزب أدولف هتلر النازي. لكنّ بلداً مثل ألمانيا، وهي بلد من أكثر البلدان علماً وثقافة وتطوّراً، البلد الذي أعطى العالم اللائحة الأطول من المفكّرين والفلاسفة، وقع ضحيّة أحمق مطلق. وكان رجل مثل مارتن هيديغر Martin Heidegger، أحد أهم فلاسفة عصره، وربّما كان الأهم، من أتباع أدولف هتلر. ولا يمكن للمرء تصديق ذلك. ولا يمكن ببساطة تصوّر أن رجلاً مثل مارتن هيديغر الذي لا مثيل له في أي مكان في العالم [يفعل ذلك]... وجميع معاصريه يبدون كالأقزام بالمقارنة معه. بلغ فكر هيديغر درجة من التعقيد لم يتمكّن معها من إنهاء أي من كتبه. يبدأ، يكتب الجزء الأوّل، وعندها ينتظر العالم بأسره

صدور الجزء الثاني الذي لن يظهر أبداً لسبب بسيط، هو أنه، مع نهاية الجزء الأول يكون قد خلق لنفسه الكثير جدّاً من المعضلات، بحيث لم يعد يعرف أين ينتقل، وأين يذهب، وماذا يفعل، أو كيف يحلّ ذلك كلّه. فيكتفي بالصمت، ويشرع في كتاب آخر!

ذلك ما فعله طوال حياته. يُصدِر الجزء الأول، ثم ينقص الجزء الثاني، والجزء الثالث، وما من كتاب يكتمل. لكن حتى تلك الأجزاء غير المكتملة تشكّل ببساطة معجزات ذهنيّة، دقّة في المنطق وعمقاً في المقاربة.... ذلك الرجل، بكل أهميته، لم يتمكن من رؤية أن أدولف هتلر مجنون. والتزم التزاماً متعصباً به.

من أين يأتي هذا الدافع إلى الالتزام المتعصّب؟

يأتي من شكّك. لا يمكنك فعلاً إقناع نفسك بأن ما تفعله صائب، فتضطرّ إلى المبالغة في القيام به. عليك أن تصيح بصوت مرتفع لتتمكن من الاستماع؛ عليك إقناع الآخرين لتتمكن بدورك من الاقتناع. عليك هداية الآخرين، حيث تستريح وقد رأيت أنك أهديت آلاف الناس: لا بد من وجود بعض من الحقيقة في ما تقوله؛ وإلا فما سبب اقتناع هذا العدد الكبير من الناس؟ قد تكون أحمق، لكن لا يمكن لهذا العدد الكبير جدّاً من الناس أن يكون أكثر حمقاً.

فكّر في أدولف هتلر: ربما اعتقد نفسه أحمقَ، لكن ماذا عن مارتن هيديغر؟ لقد أقنع مارتن هيديغر؛ ولم يحتج الأمر إلى أي إثبات آخر. فهذا الرجل برهان كافٍ على أن ما يقوله صائب. وهذا منهج تبادلي، وحلقة مفرغة. فأنت تغدو أكثر اقتناعاً من خلال وجود المزيد من الأشخاص المنتمين بتعصّب من حولك. وعندما تصبح أكثر اقتناعاً، تشرع في جمع المزيد من الناس حولك.

يقول أدولف هتلر في سيرة حياته إن ما تقوله لا يهمّ، سواء كان صحيحاً أو خاطئاً، حقّاً أو باطلاً. ما عليك إلا المثابرة على تكراره باقتناع. ولا يزعجن أحد نفسه في شأن عقلانيته ومنطقه. كم من الناس في العالم يفهمون ما هو المنطق، ما هي العقلانيّة؟ واصل فقط تكرار نفسك بقوّة وتأكيد. فهؤلاء الناس يبحثون عن الاقتناع، ولا يبحثون عن الحقيقة. يبحثون عن شخص يعرف ذلك. وكيف يمكنهم الشعور بأنّك تعرف لو قلتَ إذاً ولكن، ربّما...؟

لهذا السبب لم يتمكن ماهافيرا الصوفي الجاينيّ من جمع الكثير من الأتباع في الهند، لأنه استهلّ كلاً من إعلاناته بكلمة ربّما. وكان محقّاً، ومصيباً تماماً. لكنّها ليست الطريقة في العثور على أتباع. حتى أن الذين تبعوه أخذوا يختفون شيئاً فشيئاً: «ربّما... هذا الرجل يتحدّث عن الـ' ربّما' . ربّما كان ثمة إله؟». أيمكنك أن تجمع أتباعاً يلتزمون *ربّما* خاصتك؟ إنهم يريدون يقيناً، يريدون ضمانة. كان ماهافيرا رجلاً يمتلك حكمة أكثر من اللازم، قياساً على جميع أولئك الأغبياء. تصرّف مع الناس كما لو أنهم بلغوا مستوى إدراكه نفسه.

قد يفهم ألبرت أينشتاين ما يقوله ماهافيرا، لأن ما يقوله جميع أقواله هو الآخر مصحوبة دائماً بكلمة «ربما». ذلك هو معنى نظريّة النسبيّة كلّه: لا يمكن قول شيء بيقين، لأن كلّ شيء نسبيّ، وما من شيء مؤكّد. أيمكنك القول إن هذا ضوء؟ ذلك أمر نسبيّ. *ربما* بدا خافتاً جدّاً بالمقارنة مع ضوء أكثر سطوعاً. وربما بدا، بالمقارنة مع ضوء أكثر سطوعاً بمليون مرّة، مجرّد ثقب أسود، مجرّد ظلمة. وما هي الظلمة؟ ضوء أقل. هناك حيوانات، قطط، تجيد التنقّل في المنزل ليلاً. ويستطيع هرّ لسواك أن يتنقّل في ظلمة منزلك أفضل منك. ستتعثّر، لكن الهرّ يمتلك عينين تستطيعان التقاط أشعّة الضوء الأكثر خفوتاً.

لا يبصر طائر البوم إلا في الليل. فالنهار كثير السطوع. تحتاج طيور البوم إلى نظّارات شمسيّة؛ ولا تستطيع الرؤية من دونها شمسيّة، لأن النهار ساطع جدّاً. الصبح عندك هو المساء عند البوم. ماذا يعني ذلك إذاً؟ فكّر في البوم، وستفهم عندها معنى *ربّما*. ربّما كان المساء؛ وربّما كان الصباح للبوم. فالبوم يبصر أفضل كلّما ازداد الليل حلكة. ومنتصف الليل هو منتصف النهار للبوم.

الأمور نسبيّة؛ من هنا فإن التحدّث عن أي شيء بيقين هو إظهار للغباء. وهذا هو سبب استخدام ماهافيرا مقاربة غريبة للمرّة الأولى في تاريخ الإنسان، سابقاً ألبرت أينشتاين بخمسة وعشرين قرناً. واللفظة التي استخدمها لكلمة *ربّما* هي *سيات*. وباتت فلسفته تُعرف بسياتفاد، أي «فلسفة ربّما». تستطيع أن تطرح عليه أيّ سؤال؛ ولا يجيبك أبداً بيقين. ربّما أتيته ببعض من اليقين؛ لكنك تصبح في الوقت الذي تغادره أقلّ يقيناً. ومن يريد، إذن، أن يتبع رجلاً كهذا؟

ستلحق بأدولف هتلر، لأنه يجتث منك عدم اليقين الذي كان أشبه بالجرح. أنت ترتجف من الداخل؛ ولا تعرف ماهيّة الحياة. لكن شخصاً يعرف، ويمكنك أن تتبع *ذلك الشخص*. يُزاح عن كاهلك ثقل حمل الشك. وكلّ ما يلزمك إيمان متعصّب.

يخدم الإيمان المتعصّب الطرفين. فالزعيم يحتاج إليه لأنه مثلك تماماً، يرتجف في أعماقه؛ فهو لا يعرف شيئاً. جلّ ما يعرفه أنه يستطيع الصياح أفضل منك، وأنّه أشدّ بلاغة منك، حيث يمكنه أن يظهر بمظهر العارف؛ وأنّه ممثّل جيّد ومنافق بارع. لكنه يعرف في عمق أعماقه أنه يرتجف. يحتاج إلى عدد كبير من الأتباع، كي يتخلّص من هذا الخوف، ويقنع بأنّه يعرف.

حدث، كما تناهى إليّ، أن صحافيّاً توفّي وبلغ بوّابات الجنّة. لا يُفترض بالصحافيين الذهاب إلى هناك؛ ولا أعرف كيف حدث ذلك. نظر إليه البوّاب وقال: «أصحافي أنت؟».

قال: «بالتأكيد، ويُسمح لي، بوصفي مراسلاً صحافيّاً، بالذهاب إلى أي مكان. دعني أدخل».

قال البوّاب: «تعترضك صعوبة. فمن باب أوّل نحن، في الجنّة، لا نمتلك أية صحيفة لعدم وقوع أحداث هنا، لا جريمة، لا سكارى، لا اغتصاب. لدينا فقط قدّيسون، محنّطون مجمّدون من الأبدية إلى الأبدية. وبالتالي أي أخبار ستجد هنا؟ ومع ذلك، لدينا حصّة من عشرة صحافيين، لكنّها امتلأت منذ البداية بالذات. عليك الذهاب إلى البوّابة الأخرى عند الجانب الآخر من الطريق».

قال الصحافي: «أيمكنك أن تسديني خدمة صغيرة؟ سوف أغادر بعد أربع وعشرين ساعة، لكن أعطني فرصة، للقيام بجولة على الأقل. إذا كنت لا تستطيع منحي بطاقة إقامة خضراء دائمة، يمكنك أن تدعني أقوم بجولة لأربع وعشرين ساعة. وأنا لا أطلب الكثير. ارحمني بما أنني جئت من مكان بعيد جدّاً. واقطع لي وعداً واحداً، هو أن تدعني أبقى إذا تمكّنت من إقناع واحد من الصحافيين العشرة بالذهاب مكاني إلى الجحيم؟».

قال البوّاب: «لا مشكلة في ذلك. إذا استطعت إقناع صحافي بالذهاب إلى

المكان الآخر، يمكنك أن تحلّ محلّه. ولا يشكّل ذلك فرقاً لدينا؛ فالحصّة هي عشرة».

قال الرجل: «امنحني أربعاً وعشرين ساعة».

دخل، وشرع في التحدّث إلى الجميع، إلى كلّ من يصادفه: «هل سمعتم أنهم في الجحيم سيصدرون صحيفة يومية هي أكبر صحيفة تجري محاولة إصدارها؟ يحتاجون إلى رئيس تحرير، وإلى جهاز تحريري، وإلى جميع أنواع الصحافيين، من محرّرين أسبوعيّين، ومحرّرين ثقافيّين، هل سمعتم بذلك؟».

قال الآخرون: «لم نسمع بأيّ شيء، لكن ذلك عظيم. صدر في هذا المكان العفن عدد واحد فقط من صحيفة، وذلك منذ زمن بعيد، منذ بداية الأزمان، لكنه لم يحدث بعد ذلك أي شيء. وليس أمامنا إلّا قراءة العدد الأول مراراً وتكراراً، وماذا نفعل غير ذلك؟ تبدو هذه الصحيفة الجديدة عظيمة!». انتاب الصحافيّون العشرة جميعهم الانفعال. عاد الصحافي في اليوم التالي إلى البوّابة، بعد انقضاء الساعات الأربع والعشرين. أغلق البوّاب البوّابة في وجهه على الفور، وقال له: «ابقَ في الداخل!».

سأل الصحافي: «لماذا؟».

ردّ البوّاب قائلاً: «أنت فتى مخادع. فقد هرب أولئك العشرة إلى المكان الآخر، ولا أستطيع الآن السماح لك بالرحيل. يجب على صحافي واحد على الأقل البقاء هنا».

قال الصحافي: «لكنني لا أستطيع البقاء! يجب أن تدعني أذهب!».

قال البوّاب: «أمجنون أنت؟ نشرتَ الشائعة وهي كاذبة تماماً. تملّكتهم فكرة أنّهم سيحصلون على وظائف رائعة في الجحيم، ودبّت فيهم الإثارة، لكن لمَ أنت تريد الذهاب؟».

قال: «مَن يعرف، لا بدّ وأن في الأمر فرصة. لا يمكنني البقاء هنا وتفويتها. وأنت، في أي حال، لا تستطيع إيقافي؛ فأنا لا يُفترض بي أن أكون هنا؛ لأنني

لستُ سوى سائح لأربع وعشرين ساعة. تذكّر أن ذلك هو قرارنا الأساسي، أن أبقى لأربع وعشرين ساعة أرحل من بعدها. لا يمكنك إيقافي، لا يمكنك الإخلال بوعدك».

لكنّ البوّاب حاول جاهداً: «أنت نشرت الشائعة؛ وهي كاذبة تماماً. لا تجلب علي المشكلات لأن الهرميّة، البيروقراطيّة، ستسألني: 'أين الصحافيون العشرة؟' فهم يقومون بالإحصاء مرة كل فترة، وسوف يقولون: 'أما من صحافي واحد؟ الحصّة كلّها ناقصة؟ إلى أين ذهبوا؟'.

«يمكنني على الأقل أن أظهر للهرمية الرجل الذي أقنعهم؛ فهربوا. وبالنظر إلى أن شيئاً من هذا لم يحدث من قبل، أي أن يهرب أحدهم من الجنّة إلى الجحيم، فإننا لا نبقي الأبواب موصدة من الداخل. ما من أحد يهرب؛ ويمكن لأي يكن أن يفتحها، ويلقي نظرة على الخارج، ولا مشكلة في الأمر. فمن يريد الذهاب إلى الجحيم؟ ولا وجود لمكان ثالث. وبالتالي فإن الأبواب كانت مفتوحة كالمعتاد، وهربوا. قالوا لي: 'الوداع، لن نعود من جديد'. لا يمكنني السماح لك بالذهاب».

لكن الصحافيّ اتصّف بالعناد. قال: «إذن، سوف أذهب على الفور إلى الهرميّة وأفضح الأمر كلّه: بعدم أحقيتي في المكوث هنا، وبأنني لا أمتلك البطاقة الخضراء، فأنا مجرّد سائح، والبوّاب لا يسمح لي بالخروج. وتكون أنت قد ارتكبت جريمتين: الأولى، أنك سمحت لي بالدخول؛ والثانية، أنك لم تسمح لي بالمغادرة».

فهم البوّاب؛ فذلك صحيح تماماً. قال: «حسناً، اذهب. فالإحصاء يستغرق دهراً، كل شيء هنا يستغرق دهراً. وربّما ظهر في غضون ذلك صحافيّ آخر. لكن من الغريب أنّك اقتنعت بشائعة اخترعتها بنفسك».

قال: «أن ثمة خطباً ما، بلا شك، مادام الصحافيون الآخرون قد صدّقوها. لا بد وأنّ جزءاً منها صحيح؛ وإلاّ كيف يمكنك إقناع الصحافيين بالانتقال من الجنّة إلى الجحيم؟ لا بدّ من وجود بعض من الحقيقة فيها».

يحتاج الزعيم دائماً إلى أن يقتنع المرّة تلو المرّة بأن ما يقوله صحيح. ويحتاج

لذلك إلى أعداد متزايدة من الأشخاص الملتزمين. وكلّما زادوا في انتمائهم المتعصّب زادوا إقناعاً له. فإذا كانوا على استعداد للموت أو للقتل، للمضي إلى حملة صليبية، إلى *الجهاد*، إلى الحرب المقدّسة، فإن ذلك يمدّه باليقين.

وتدور الحلقة فيُقنع يقينُه أتباعَه، لأنه يغدو أكثر صياحاً، وأشدّ عناداً؛ يغدو على يقين مطلق. وتختفي عبارات *إذا*، *ولكن*، من لغته. ويصبح كل ما يقوله هو *الحقيقة*. وتدور هذه الحلقة المفرغة بلا توقّف؛ لتجعل الزعيم متعصّباً والأتباع متعصّبين. إنها حاجة نفسيّة للاثنين؛ فكلاهما في المركب نفسه.

للناس حاجة نفسيّة إلى الشعور باليقين. ذلك أن الوجود الدائم للرمال المتحرّكة تحت أقدامهم يصعّب عليهم حياتهم. يكفي أنها صعبة في وضعها الراهن. زد على ذلك ما يحيط بهم من الجهات كلّها، من عدم اليقين وعدم الأمان، المشكلات وغياب الأجوبة. الأمر الذي يتيح الفرصة لأولئك الأشخاص الماكرين القلائل الذين يمكنهم الادّعاء بأنهم يلبّون احتياجاتك الضرورية. والأمر الوحيد الذي يحتاج إليه الزعيم هو بقاؤه دوماً في طليعة الجماهير. عليه أن يراقب باستمرار الاتجاه الذي يسيرون فيه، ويكون في طليعته. وهو ما يثير لديهم الشعور الدائم بأنه يقودهم.

الأمر الوحيد الذي يحتاج إليه الزعيم هو بقاؤه دوماً في طليعة الجماهير. عليه أن يراقب باستمرار الاتجاه الذي يسيرون فيه، ويكون في طليعته. وهو ما يثير لديهم الشعور الدائم بأنه يقودهم.

على الزعيم أن يمتلك هذا القدر من الفطنة، بمواصلة مراقبة مزاج الناس، والوجهة التي يقصدونها. وكلّما شرعت الرياح في الهبوب، لا يفوّت الزعيم الحقيقي الفرصة: فهو دوماً في طليعة الجماهير.

ولا تدعو الحاجة إلى المفكّرين، لأنّ المفكّر سيبدأ بالتساؤل: هل تسلك الجماهير المسار الصحيح، أم أن الاتجاه الذي يمضي فيه هو المسار الصحيح. وإذا شرع في التفكير بهذه الطريقة، فلن يبقى بعد ذلك زعيماً، ويجد نفسه وحيداً.

وستكون الجماهير قد تحرّكت مع أحمق ما، لا يُزعج نفسه في التساؤل عن الوجهة التي يقصدونها. قد تتوجّهون إلى الجحيم، لكنّه، وهو الزعيم، يسير في طليعتكم. والصفة الوحيدة التي يحتاج إليها هي قدرة الحكم على مزاج الجمهور. وهذا ليس صعباً جدّاً، لأن الجمهور يعبّر دوماً بصوت مرتفع عما يريده، وإلى أين يريد التوجّه، وما هي حاجاته. وما عليك إلا أن تمتلك بعضاً من اليقظة، وتجمع كل تلك الأصوات معاً؛ وتنتفي بعدها كل مشكلة، وتصير في طليعة الحشد.

واصِل الوعد بتحقيق كل ما يطلبونه، ولن يتوقّع منك أحد الوفاء بوعودك، بل إنّهم يطلبون الوعد فحسب. ومن طلب منك الوفاء بوعودك؟ واصل الوعد ولا تقلق من أنهم قد يمسكون بك في أحد الأيّام ويسألونك عنه. لن يفعلوا ذلك أبداً، لأنك تستطيع، كلّما أمسكوا بك، أن تمنحهم وعوداً أكبر.

وذاكرة الناس قصيرة جدّاً. من يتذكّر ما وعدت به منذ خمسة أعوام؟ في خمسة أعوام انساب الكثير من المياه عبر النهر، فمن يبالي؟ تغيّر الكثير جدّاً في خمسة أعوام. لا تقلق، وواصل إطلاق الوعود الأكبر والأكبر.

والناس يصدّقون تلك الوعود، الناس يريدون أن يصدّقوا. لا يمتلكون أي شيء سوى الآمال. وبالتالي يواصل الزعماء مدّهم بأفيون الأمل، ويصير الناس مدمنين.

يشكّل الانتماء المتعصّب إلى المجموعات والمنظمات السياسيّة، الدينيّة، وسواها، نوعاً من الإدمان، تماماً كإدمان أي مخدّر آخر.

يشكّل الانتماء المتعصّب إلى المجموعات والمنظمات السياسيّة، الدينيّة، وسواها، نوعاً من الإدمان، تماماً كإدمان أي مخدّر آخر. فيشعر المسيحي بأنّه في بيته، وهو محاط بالمسيحيّين. ذلك إدمان، مخدّر نفسي. وعندما يرى الناس شخصاً خارج جمهورهم، يرتجف على الفور شيء دواخلهم وترتسم علامة استفهام. هناك رجل لا يؤمن بالمسيح: «أمن الممكن عدم الإيمان بالمسيح؟ أيمكن الخلاص من دون الإيمان بالمسيح؟»، شكوك، ارتياب...

ولمَ يغضبون؟ ليسوا غاضبين، بل إنهم خائفون فعلاً. وعليهم إظهار الغضب إخفاء للخوف. فالغضب يهدف دائماً إلى إخفاء الخوف.

يستخدم الناس كلّ أنواع الاستراتيجيّات. هناك أشخاص سيضحكون لمجرّد التمكّن من وقف دموعهم. أنت في الضحك تنسى، وهم سوف ينسون... قد تظل الدموع مخفيّة. وفي الغضب يبقى الخوف مخفيّاً أيضاً.

إنهم متعصّبون جدّاً، دفاعيّون... يعرفون أن إيمانهم ليس وليد تجربتهم، ويخشون من أن دخيلاً ما قد يخدش، قد يحفر عميقاً، قد يضع الجرح أمام أنظارهم، بعد أن تمكنّوا، في شكل من الأشكال، من تغطيته. إنّهم مسيحيّون والمسيح هو المخلّص، المخلّص الوحيد، المخلّص الحقيقي الوحيد، ولديهم الكتاب المقدّس واللّه معهم فما الذي يخشونه؟ ابتدعوا منزلاً نفسيّاً مريحاً وفجأة، كالثور في متجر الخزف، يأتي غريب لا يؤمن كما يؤمنون!

أحبّني أحد أساتذتي كثيراً. كان، إبّان المدرسة الثانويّة، الأستاذ الوحيد الذي كنت على علاقة حميمة جدّاً معه. وهكذا أخذت، بعد دخولي الجامعة، أذهب لأراه لدى عودتي إلى بلدتي في العطلة.

قال في أحد الأيام: «أنتظرك. ومن الغريب جدّاً أنني أنتظرك لمعرفتي أن العطلة اقتربت وستأتي. ومجيئك أشبه تماماً بنسمة منعشة. تُذكّرني، وأنا في سنّي المتقدّمة، بشبابي وبأحلام شبابي. لكنّك عندما تأتي يصيبني الخوف وأشرع في الصلاة إلى اللّه: 'اجعله يذهب بأسرع ما يمكن!، لأنك تخلق الريبة في داخلي؛ أنت أكبر شكوكي. تكفي مجرّد رؤيتك لتبدأ شكوكي كلّها بالظهور. وأنا أبقيها، بطريقة من الطرق، خافتة، لكن الأمر يصعب معك».

قال: «من الغريب أن يكفي مجرّد مجيئك إلى منزلي لتخفق كل جهودي في الكبت وتبرز شكوكي كلّها. أعلم أنني لا أعرف اللّه، وأعلم أن لا جدوى من صلواتي، إذ لا يوجد من يسمعها. ومع ذلك أواصل تلاوتها ثلاث مرّات في اليوم: عند الصباح وبعد الظهر وفي المساء. لكن عندما تحضر لا أستطيع تلاوة صلواتي بالسكينة نفسها التي أتلوها بها في يوم آخر».

قلت: «لكنني لا أعكّر صلاتك أبداً».

قال: «ليس الأمر أنّك تعكّرها. ذلك أن مجرد جلوسك هنا، وأنا أقوم بصلاتي يجعل ذلك أمراً مستحيلاً. سوف أعرف فجأة أن ما أفعله غبي وأعرف ما تفكّر به. لا بدّ وأنّك تفكّر أن هذا الأحمق العجوز يواصل القيام بالأمر نفسه ... أعرف أن ما أفعله لا تراه ذكيّاً. والمشكلة في أنني أوافقك الرأي. لكنني بتّ الآن طاعناً في السن، ولا يمكنني أن أتغيّر. تظهر المخاوف. ولا يمكنني التوقّف. فكّرت مرّات كثيرة لمَ لا أتوقّف عن الصلاة؟ لكن مضت عليّ خمسة وسبعون عاماً، وأنا أصلّي...».

لا بدّ وأنه قد بلغ في ذلك الوقت حوالى الثانية والتسعين: «مضى عليّ زمن طويل جدّاً وأنا أصلّي. فهل أتوقّف الآن وقد شارفت الموت؟ من يدري؟... لو أن هذا الفتى مقيم في الجوار، لو أن اللّه موجود فعلاً، لوجدت نفسي في ورطة: لن أتمكّن حتى من رفع عينيّ أمام اللّه إذا توقّفت في اللحظة الأخيرة عن الصلاة. ولذا أعتقد الآن، وبعد أن قمت بذلك طوال حياتي، أن عليك أن تدعني أكمل، عن حق أو عن خطأ. ولن يضيع شيء إذا كان عن خطأ. وفي أي حال، وأنا متقاعد الآن، لديّ حريتي طوال النهار. وإذا كان اللّه موجوداً، فذلك جيّد تماماً، تكون صلواتي قد نجحت».

قلت: «صلاتك هذه لا فائدة منها. إنها غير مجدية حتى وإن كان اللّه فعلاً موجوداً. هل تعتقد أنك تستطيع خداع اللّه؟ ألن يحاسبك؟ إنك تصلي وباعتقادك أنك في كلتا الحالتين لن تخسر شيئاً. فإن كان لا وجود للّه، فلا بأس. لكن إذا كان موجوداً بالفعل، فيمكنك القول إنك على الأقل كنت تصلي له. أتعتقد أنك تستطيع خداع اللّه؟».

قال: «هذه هي المشكلة. لذلك أرجوك ألاّ تأتي! لا يمكنني التخلّي عنها، ولا يمكنني تأديتها بصدق. وها أنت قد ولّدت مشكلة ثالثة، وهي أن صلاتي وإن تلوتها فهي عقيمة! لأنّك محق: لو أن اللّه موجود لعرف هذا الأمر البسيط، وهو أن هذا العجوز يحاول خداعه».

قلت: «هذا أسوأ كثيراً من عدم الصلاة. كن صادقاً على الأقل. ولا أعتقد أن كونك صادقاً هو ضد الدين. كن صادقاً فحسب؛ إذا لم تشعر بأن عليك تأدية الصلاة، تخلّ عنها!».

قال: «ينتابني وأنا معك شعور بأنني شاب، قوي. لكن عندما تذهب أعود عجوزاً من جديد، والموت في الجوار، وهذا ليس وقت الانتقال من مركب إلى آخر، إذ يمكن للمرء أن يسقط في الماء. ومن الأفضل مواصلة ما تقوم به... وليحدث ما يحدث. تابع فحسب. وأنا لست وحدي، بل معي مئتا مليون هندوسي. تلك هي الفكرة، معي مئتا مليون هندوسي».

قلت: «ذلك صحيح، نعم. معك مئتا مليون هندوسي وأنا وحدي. لكن في وسع رجل واحد أن يدمّر سندك المؤلّف من مئتي مليون هندوسي، إذا كان مرتكزاً على كذبة. لقد قمت بخطوة خاطئة، لم يكن عليك أن تستمع إليّ!».

ذلك هو التعصّب: ألاّ تستمع إلى كل ما يعارضك. تأخذ، قبل أن يتفوّه أحد، في الصياح بكثير من القوة حتى لا تسمع إلاّ صوتك؛ تقرأ في كتابك، تستمع إلى معبدك أيّاً يكن.

ليس التعصّب إلا استراتيجيّة تحميك من الشكوك. لكن لا يمكن القضاء على الشكوك بالرغم من إمكانية الوقاية منها. كما أن الحاجة قد انتفت الآن أيضاً؛ فقد مرّ الإنسان في تلك المراحل التي يحتاج فيها إلى الحشود. وبات في وسعنا الآن أن نكون أفراداً. ولا يعني ذلك أن ليست لك نوادٍ وليست لك مجتمعات، بل إن الحاجة قد انتفت إلى الانتماء المتعصّب.

يمكنك الانتساب إلى نادي الروتاري؛ ولا يعني ذلك الالتزام المتعصّب، وأنّك ستموت فدى نادي الروتاري. ويا له من استشهاد عظيم، أن يموت أحدهم من أجل نادي الروتاري! ليس عليك أن تموت من أجل نادي الروتاري، أو نادي الليونز... وليس عليك الموت من أجل أي دين، أو مذهب فكري أو سياسي. يمكنك الاتصال بالناس والحوار معهم. يمكنك الاجتماع بهم، ويمكنك مناجاة مَن هم من ذوي العقلية المشابهة. لكن ما من حاجة إلى إثارة ضجّة في شأن ذلك. فلا حملة صليبيّة، ولا حرب مقدّسة...

أجل، يمكنكم البقاء أمّة، لكن ما من حاجة إلى المبالغة في تلك الحدود التي أوجدتموها على الخريطة. فهي موجودة فقط على الخريطة، فلا تشرعوا في رؤيتها على الأرض. عندها تصابون بالعمى.

يمكنكم البقاء أمّة، لكنه ما من حاجة إلى المبالغة في تلك الحدود التي أوجدتموها على الخريطة. فهي موجودة فقط على الخريطة، فلا تشرعوا في رؤيتها على الأرض. عندها تصابون بالعمى.

إن وجود هذا العدد الكبير من الناس أمر جيد، لكن لا حاجة إلى هذا القدر الكبير من الجنون. وأمر جيد تماماً أن يتمكّن الناس من ممارسة العبادة بطرقهم الخاصة، والصلاة بطرقهم، وامتلاك كتبهم، ومحبّة مرسليهم الخاصين، ولا مشكلة في ذلك. لكن لا تجعلوا من ذلك مشكلة لغيركم من الكائنات البشريّة. هذا شأنكم الخاص. تحبّون شيئاً، تفضّلون عطراً معيّناً، لهو أمر جيّد تماماً؛ وإذا لم يحبّه أحد غيركم فهذا لا يجعله عدوّكم. فتلك تفضيلات، والاختلاف أمر طبيعي. وهو لا يعني الخصومة، بل يعني ببساطة أن يمتلك المرء طريقة مختلفة في النظر إلى الأمور، وفي الشعور بالأشياء.

لا حاجة إلى أي تعصّب، ولا حاجة إلى أي التزام. ولو أمكن وجود منظّمات في العالم من دون التزام، من دون تعصّب، لكان العالم جميلاً. المنظمات في حدّ ذاتها ليست سيّئة. فالمنظمات بلا التزام وبلا مواقف تعصّبيّة، تؤدّي ببساطة إلى عالم منتظم. وتفرض بالتأكيد حاجة إلى النظام. لا يمكنك العيش بلا نظام في مكان مكتظ بملايين الناس.

أطلقتُ على النظام اسم «الكومونة». اعتمدت هذه التسمية «الكومونة» لأجعلها مختلفة عن المنظّمة والحزب السياسي والفرقة الدينيّة. اعتمدت ببساطة «كومونة»، حيث يعيش الناس من ذوي الرؤية المتشابهة بإلفة مع كل اختلافاتهم.

ليس عليهم محو اختلافاتهم ليشكّلوا جزءاً من «الكومونة»، لأن ذلك يصير التزاماً. تُقبل اختلافاتهم، لأنها صفات أولئك الأفراد.

وتثرى «الكومونة» في الواقع عندما ينضم إليها عدد كبير من الناس بصفات

ومواهب وإبداعات وحساسيّات مختلفة، من دون أن يعرقل بعضهم بعضاً، أو يدمّره. بل على العكس من ذلك، يساعد بعضهم بعضاً على أن يصبحوا أفراداً مثاليّين، أفراداً لا نظير لهم.

الخروج من الهرم

سؤال: صعقتُ عندما سمعتك تقول إنّ هرم الإنسانيّة يتألّف من زعيم ديني وألبرت أينشتاين، وإن ما من اختلافات نوعيّة بين الاثنين. فهل يوجد بديل ثالث؟

أنا مصعوق أيضاً، لكنّ المرء يقف عاجزاً أمام الواقع. والحقيقة هي أن ما من فارق نوعي بين ذلك الزعيم الديني وألبرت أينشتاين؛ وكنت لأعلن ذلك لو أنني وجدت إمكانيّة، وإن صغيرة لبعض الفارق النوعي. ولا يعني ذلك أنهما من نوع الشخص نفسه.

الزعيم الديني معتوه، وألبرت أينشتاين نابغة، أثقب ذكاء تنتجه البشريّة أبداً. ولا أقول بالتالي أنهما الصنف نفسه من البشر، لكن ماذا يمكنني أن أقول؟ إنهما ينتميان إلى النسق نفسه. وذلك الزعيم يشغل المرتبة الدنيا في الترتيب، وألبرت أينشتاين العليا، لكن الفارق ليس إلا درجات فقط؛ إنّه الهرم نفسه.

الزعيم الديني الآنف، أدولف هتلر، جوزف ستالين، بنيتو موسوليني، وماو تسي تونغ، وألبرت أينشتاين، وبرتراند راسل، وجان بول سارتر، وكارل جاسبرز. إنهم ينتمون إلى إنسانيّة واحدة، وذهن واحد. لكنّ ذلك الزعيم الديني وصحبه مرضى. الذهن نفسه، لكنّه ذهن مريض، مقلوب رأساً على عقب. ألبرت أينشتاين وبرتراند راسل صحيحان. يحملان الذهن نفسه، ولكن بالشكل الصحيح؛ أي كما يجب أن يكون.

لا يسعني القول إنهما ينتميان إلى فئتين مختلفتين؛ سوف يشكّل ذلك كذبة. سيجلب العزاء، ولن تُصعَق. ولن أُصعَق، وسيسعد الجميع. لكن القضاء على الحقيقة من أجل مثل هذا العزاء الغبي، لن يساعد أحداً.

لكن لمَ تنظر من جانب واحد فقط؟ فهناك جوانب كثيرة يتوجّب النظر فيها. لمَ لا تنظر إلى الأمر بوصفه كشفاً عظيماً؟ فأنت لم تفكّر إلا بأمر واحد فقط، ولذلك صُعقتَ. وأنا صُعقت أيضاً، لكنني استُثرت أيضاً واغتبطت.

أنت لم تفكّر إلاّ بأمر واحد فقط، وهو خفض مستوى أينشتاين إلى مستوى ذلك الزعيم الديني. لكن لمَ لا نستطيع رؤية إمكانيّة أخرى، وهي أن بالإمكان رفع مستواه إلى مستوى ألبرت أينشتاين؟

أنا أفتح الباب على إمكانيّة ضخمة لهؤلاء الأشخاص المجانين. وهؤلاء المجانين سيطروا على البشريّة؛ ويتوجّب القيام بأمر ما. البشريّة في حدّ ذاتها ليست سيّئة، ليست شرّيرة، لكن من شأن زعيم ديني واحد أن يثير جنون وحماقة بلاد بأكملها.

الأسماء، الكلمات، المبادئ التي يستخدمها هؤلاء الناس لإخفاء جنونهم وغبائهم، لهي جميلة. فعلى سبيل المثال، يتلو رجل الدين كلّ يوم، القرآن الكريم بأكمله. لا يحتاج إلى القراءة؛ فقد حفظه عن ظهر قلب، القرآن الكريم بأكمله. ويستشهد على الدوام بالقرآن الكريم، ويؤمن من يستمعون إليه ويتبعونه بأنه نبيّ، مرسل من اللّه لمساعدة الإسلام على النجاح. وذلك ما تؤمن به الأديان كلّها: لن يكون أي مستقبل للإنسانيّة إلاّ إذا نجحت؛ وإلاّ فليس هناك من مستقبل، وينتهي أمر الإنسان. وإنّ ما يفعله [الإنسان] بربريّ وبشع ولا إنساني إلى حدّ بعيد... يتعرّض الناس للذبح المستمر، ولقطع الرؤوس المستمر، وللضرب حتى الموت عند مفترق الطرق وأمام عيون آلاف المتفرّجين، وجميع هؤلاء المتفرّجين يبتهجون لأن هذا نجاح للإسلام.

يقول رجل الدين إن أي شيء يُفعل بحسب المبادئ الإسلاميّة صحيح. وما من طريقة أخرى، أو معيار آخر، للفصل بين ما هو صحيح وما هو خاطئ. قطع الرأس إسلاميّ. ومن الأفضل للمرء أن يموت إذا لم يرغب في أن يصير مسلماً. فأن يعيش، وهو غير مسلم، أسوأ من الموت، لأن الموت قد يغيّر نمط حياته. ربّما كان عاجزاً، في جسمه وفي عقله، أن يصير مسلماً، ويجب بالتالي القضاء على جسمه وعقله. فهما يشكّلان عائقاً أمام خلاصه. وأن يموت على أيدي الجنود المسلمين هو مجدٌ

في ذاته. عليك أن تفتخر: فقد حقّقت ميتة عظيمة. لم تتمكّن من تحقيق حياة عظيمة، لكنّك حققت ميتة عظيمة. وهكذا فإن الشخص الذي يُقتل على أيدي القتلة المسلمين محظوظ. كما أن الأشخاص الذين يقتلونه يكسبون فضيلة كبرى، لأنهم لا يملكون أي دافع آخر، سوى أنّهم يحاولون مساعدة الشخص، وتحويل كينونته. يجعلون سبيل الشخص إلى اللّه واضحاً وخالياً من العوائق. يقومون بعمل اللّه: سيولدون قدّيسين في الجنّة. وهكذا يستفيد الطرفان. وكيف يمكن لأي شيء أن يكون خطأ وشرّاً عندما يستفيد منه الطرفان استفادة عظمى، يستفيدان منه روحيّاً؟

أترى مكر الناس؟ بيد أن للزعيم الديني هذا الذهن نفسه الذي لك، لكنّه أصيب بالجنون. وثمة إمكانية لإصلاح ذلك.

يحدث هذا في كلّ أنحاء الأرض... ففي الفاتيكان، حدث البارحة أن قفزت امرأة من بازيليك القدّيس بطرس، الكنيسة الأرفع مرتبة في المسيحيّة، وقتلت نفسها. لا يعرف أحد السبب، وربّما ظلّ السبب مجهولاً تماماً. لكنّني، عندما سمعت ذلك، تمثّل أول ردّ فعل لديّ في أن تلك المرأة قد أعلنت عن أمر ذي مغزى. ستموت البشريّة كلّها في الفاتيكان قفزاً من بازيليك القدّيس بطرس. وهذه المرأة رائدة. وهي تُعلن فقط ما الذي سيحدث للبشريّة جمعاء. وإنهم، أي البابا، والكرادلة، والمطارنة، يفعلون كلّ ما يلزم لتشجيع ذلك.

طُردت الراهبة الكاثوليكيّة الأخت جوديث فوغان، وهي إنسانيّة وتحظى بالاحترام، من الكنيسة الكاثوليكيّة. وهي التي أدارت في كاليفورنيا مأوى للنساء الفقيرات، النساء المنبوذات، النساء المهجورات. ووفّرت المساعدة لآلاف النساء. لكنّ عمل حياتها ضاع هباء، لمجرّد أنها ارتكبت خطأ صغيراً، خطأ في أعين البيروقراطيّة المسيحيّة، يوم وقّعت على إعلان في صحيفة يؤيّد الحق في الإجهاض. فقد طلبت الصحيفة من المؤيّدين التوقيع على الإعلان وإعادته إليها لتتمكّن من القول إن المسيحيّين ليسوا جميعهم ضد الحق في الإجهاض. وقد وقّعت الأخت جوديث عليه، وفي ذلك خطيئة كبيرة.

عملت المرأة طوال حياتها، خدمت آلاف النساء، حظيت بالاحترام في مختلف

أنحاء كاليفورنيا، وفهمت مشكلات النساء، من إجهاض وأطفال ويتامى، أكثر من أولئك الأغبياء الذين طردوها من الكنيسة. ولم يكتفوا بطردها، بل منعوها من دخول المأوى الذي أنشأته للنساء الفقيرات، النساء المتألّمات. لم يُسمح لها بدخول الكنيسة أو المأوى، ولم تعد راهبة. ولم يأبه أحد، لأن ما تفعله كان إنسانيّاً.

المزيد من السكان يعني المزيد من المشكلات. ولا قدرة لك على حل المشكلات الحاضرة. وكلّ ولد يأتي معه بآلاف منها. وقد جاء إلى الأرض المزيد من الناس بأكثر مما تستطيع الأرض احتماله. وحتى بلدان، مثل أميركا، لديها مشكلات توجب أن تختفي من العالم قبل وقت طويل. فما قولك عن بلدان العالم الثالث، العالم الفقير: أفريقيا، وأميركا اللاتينيّة، وآسيا. ما القول في شأن هذه البلدان؟

يعيش في أميركا الملايين والملايين من الأشخاص الراشدين الأمّيين. في أغنى أمّة على الأرض، تحتل القمّة في كل المجالات التكنولوجية والعلمية والثقافية، لا يزال ملايين البالغين أمّيين، ولا يستطيعون قراءة صحيفة. وتواصل المجيء بالمزيد من الناس؟ ولا يمكنك حتى حلّ المشكلات البسيطة، فكم بالأحرى المعقّدة منها.

توفّي آلاف الأشخاص في انفجار غاز ببوبال(*) ومَن لم يمتْنَ من النسوة الحوامل، ولَدن أطفالهن موتى أو مقعدين أو عمياناً أو متخلّفين. وقلّة من الذين وُلدوا أحياء ماتوا في غضون ستّة أسابيع. لم يعتقد الأطبّاء والعلماء أن الغاز سيؤثّر بهذه القساوة في الأجنّة. وهذا ليس إلا مجرّد انفجار صغير. ولا يمكن تصوّر كيف ستؤثّر بكم الانفجارات الذرّية والنوويّة عندما تحدث. وهي لن تؤثّر بكم وحدكم، بل في كلّ الأجيال التي ستأتي من بعدكم. ستؤثّر في مستقبل البشريّة كلّه.

مَن الذي يولّد تلك المشكلات؟ إنّه الذهن. ويمكن للذهن نفسه أن يحلّها.

وهكذا عندما أقول إن الزعيم الديني ذاك وألبرت أينشتاين ينتميان إلى النسق نفسه... إذا فكّرت أن ألبرت أينشتاين أشبه به فسوف تصاب بصدمة..لكنّ إذا فكّرت بأن ذاك الزعيم يمتلك القدرة على أن يكون ألبرت أينشتاين لاستثارك الأمر مثلي.

(*) عاصمة ولاية ماديا براديش في الهند - المترجم.

بيد أنّني لم أتحدّث إلاّ عن هرم الذهن. ولم أتحدّث عن الناس الذين انسحبوا من الذهن، لم أتحدّث عن المتأمّلين. وهم يختلفون نوعاً عن الاثنين.

الشخص المتأمّل بعيد من الزعيم الديني بعده من ألبرت أينشتاين، لأنّه بعيد جدّاً من الذهن نفسه.

الهرم هو فقط للأشخاص الذين يعيشون في الذهن، فلا تكتئب. يمكنك القفز خارجاً من الهرم؛ وليس هناك من يجبرك على البقاء فيه. يعود إليك أن تقرّر البقاء فيه أو لا. يمكنك أن تصير مراقباً. تقف خارج الهرم، وتراقب كلّ اللعبة الغبيّة التي تدور فيه.

أنا لست جزءاً من الهرم. لذلك أستطيع أن أتحدّث عنه وأصفه بالتفصيل التام من كلّ جوانبه، لأنني مراقب فحسب. أستطيع الانتقال من حول الهرم، وأستطيع رؤية كل أسطحه. أستطيع رؤية أدنى أعماقه. وأستطيع رؤية أعلى قمّته، لأنّني لست فيه.

يستحيل عليك، لو أنّك فيه، أن تراقبه بكلّيته؛ عليك أن تكون خارجه. وقد وُجد، عبر العصور، مثل هؤلاء الناس، وهم قلّة قليلة جدّاً، لكن ذلك لا يحدث أيّ فارق: يكفي أن يتمكّن شخص واحد من مغادرة الهرم هرباً، أن يبرهن عن الإمكانيّة. وقد هرب الكثيرون منه.

يتطلّب الأمر منك جهداً صغيراً فحسب، بعضاً من اليقظة. ويمكنك أن تنسلّ خارجاً من الذهن، لأن الهرم ليس مصنوعاً من مادة صلبة؛ والآجرّ مصنوع من أفكارك. أنت محاط بجدار من الأفكار. ويسهل إلى حدّ بعيد الخروج منه. ليس عليك حتّى أن تحفر ثقباً فيه، وليس عليك حتّى أن تفتح باباً. عليك أن تقف بصمت، وترى إن كان الجدار قائماً بالفعل، أو أنه يبدو كذلك.

أنت محاط بجدار من الأفكار. ويسهل إلى حدّ بعيد الخروج منه. ليس عليك حتّى أن تحفر ثقباً فيه، وليس عليك حتّى أن تفتح باباً. عليك أن تقف بصمت، وترى إن كان الجدار قائماً بالفعل، أو أنه يبدو كذلك.

يسمّون ذلك في الشرق السراب؛ يظهر فقط وكأنّه حقيقي. وكلّما ازددت منه قرباً، رأيته بوضوح، آخذاً

في الاختفاء. والأفكار هي أقل الأمور الملموسة في العالم؛ ليس فيها أي شيء مادي.

ليست أفكارك سوى أشباح. تؤمن بها فحسب، ولا تحاول أبداً التقاءها، ولا تستدير نحوها أبداً، أو تحدّق إليها. وستفاجأ ببساطة أنّ أي فكرّة تحدّق إليها سوف تتلاشى. لا يمكنها تحمّل مراقبتك.

هناك بالتالي بديل ثالث. ليس عليك أن تكون إمّا الزعيم الديني ذاك وإمّا ألبرت أينشتاين. وألبرت أينشتاين رجل جيّد، لكن الجيّد والسيّئ وجهان لعملة واحدة. القديس والخاطئ وجهان لعملة واحدة؛ الجنّة والجحيم، اللّه والشيطان، وجهان لعملة واحدة. لا يستطيع أحدهما الوجود من دون الآخر.

لكنَّ هناك بديلاً ثالثاً، لا تحتاج فيه إلى أي منهما، وهو في أن تكون نفسك فعلاً.

أن تخرج من هرم الذهن، يعني أن تدخل معبد كينونتك.

الهرم للموتى. وقد شُيّدت الأهرامات في الواقع قبوراً لملوك مصر وملكاتها. إنّها مقابر؛ وعندما استخدمتُ عبارة هرم للحديث عن الذهن، فإنما فعلت ذلك عن معرفة؛ فالذهن أيضاً مقبرة للأمور الميتة، للذكريات الماضية، للتجارب، للظلال... كل الظلال. وهي تصبح مع الوقت على درجة كبيرة من السماكة تخلق معها حجاباً قاتماً من حولك.

ما الذي تعتقد أن عليك القيام به إذا أردتَ الهروب من ظلّك؟ سيتبعك ظلّك أينما ذهبت، سيكون معك؛ إنّه ظلّك. والظّل لاوجوديّ؛ إنّه شبح. والطريقة الوحيدة للتخلّص منه هي في الاستدارة والنظر إليه، ومحاولة معرفة إن كان فيه أي جوهر. لا يوجد شيء! إنه سلبيّة محض. لا تستطيع أشعّة الشمس الدخول لأنّك تقف في طريقها؛ وغياب الشمس يخلق الظلّ.

وهذا هو وضع أفكارك تماماً. والأفكار بديل من الإدراك لأنّك لست يقظاً، لأنّك لست صامتاً، لأنّك لا تستطيع رؤية الأمور بوضوح من دون تعكير. وما لم تصبح مدركاً فسوف تستمرّ الأفكار.

ذهنك ليس أنت؛ إنّه شخص آخر: وما أنت إلا مجرّد مراقب. ومجرّد نظرات خاطفة قليلة من المراقبة ستحضّرك للخروج من الهرم من دون أي قتال، من دون أي كفاح، من دون أي تمرين. تنهض ببساطة وتخرج.

يواصل الناس الإيمان بأي شيء معزّز: بأشباحهم، بآلهتهم، بجنّتهم وبجحيمهم؛ فهي كلّها معزّية. فقدّيسوهم وأولياؤهم وحكماؤهم، جميعهم تعزية. ويحتاج الإنسان الحقيقي إلى الشجاعة للتخلّص من كلّ هذه الفوضى الفاسدة. والطريقة الوحيدة للخروج هي في أن تصبح شاهداً على عمليّة تفكيرك الخاصة. وذلك سهل، إنّه أسهل شيء في العالم. ما عليك إلاّ أن تفعله مرّة؛ لكنّك لا تحاول ولو لمرّة، وتواصل التفكير بأنّه الأمر الأكثر صعوبة.

سبق لي أن فكّرت أنّه أمر صعب جدّاً، لأنّ هذا ما قاله لي الجميع، وما قرأته في كل كتاب، بأنّه ظاهرة على قدر كبير من الصعوبة؛ ويتطلّب الأمر حيوات عدّة ليتوصّل الشخص إلى حالة اللاذهن. وعندما يقول الجميع ذلك، من دون وجود أيّ استثناء واحد، فمن الطبيعي جدّاً أن تبدأ بتصديقه.

غير أنني غريب الأطوار بعض الشيء، ومنطقي لا يتبع المسار العادي، بل يعمل في شكل متعرّج. وما إن أدركت أن الجميع يقولون إن ذلك صعب، وإن كلّ ما هو مكتوب يقول إنه صعب، حتى كانت أوّل فكرة تراودني هي أن أحداً لم يحاول؛ وإلا لوُجدت آراء مختلفة. يقول أحدهم إن الأمر صعب؛ ويقول آخر إنّه أصعب من ذلك؛ ويقول أحدهم إنه أقل صعوبة من ذلك. ويستحيل الحصول على مساندة شاملة حول صعوبته من كل أنحاء العالم. ويتمثّل الاحتمال الوحيد في أن ما من أحد قد حاول، ولكن لا يريد أحد الاعتراف بجهله. آنذاك يتمثّل المسار الأفضل في الاتفاق مع الإجماع بأنّه صعب، وصعب جدّاً؛ ويتطلّب الكثير من الحيوات.

أسقطتُ تلك الفكرة. وقلت: «يجب أن يحدث ذلك في هذه الحياة؛ وإلاّ لن أدعه يحدث في أي حياة، سأكافح ضدّه. إما أن يحدث في هذه الحياة، وإما لن يحدث على الإطلاق». وأضحى «الآن أو على الإطلاق» مقاربتي الثابتة. وجرى الأمر في اليوم الذي قلت فيه «الآن أو على الإطلاق». ومن يومها وأنا أزداد دهشة بكيف جرى خداع الناس.

جُعل من أبسط الأمور شيء مستحيل، وأبسط الأمور يفتح الباب أمام البديل الثالث.

بخروجك من الهرم، لا تعود ذهناً. وعندها فقط تعلم من أنت. وتعني معرفة ذلك إنجاز ما يجدر إنجازه.

من الذهن إلى اللاذهن

عندما يأخذ الشخص في التماهي مع الفكر يولدُ التفكّر؛ ويولد الذكاء عندما يستمرّ الشخص في لعب دور السيّد، من دون تماهيه مع الفكر. والفكر هو نفسه. ويتوقّف الأمر كلّه على تماهيك معه أو بقائك في حالة تجاوز له. إذا صرت متماهياً فهذه هي العقلانيّة؛ وإذا بقيت على غير تماه فهذا هو الذكاء.

على الذكاء، في المسعى العلمي، التركيز في العالم الموضوعي؛ وعليه في الاستكشاف الروحي التحرّك نحو الداخل. إنّه الذكاء نفسه، ووحده الاتجاه يتغيّر. في العلم يشكّل الموضوع، الموضوع الخارجي، هدف البحث؛ أما في المجال الروحي فتشكّل ذاتيّتك، داخليّتك، مغامرتك. والذكاء هو الأمر نفسه.

إذا صرت عقلانيّاً فلن تصير عالِماً. ستكتب تاريخ العلوم أو فلسفة العلوم، لكنّك لن تكون بمفردك عالِماً، مستكشفاً، مخترعاً، مكتشفاً. ستكدّس المعلومات فحسب. صحيح أن في ذلك منفعة معيّنة إذ هناك منفعة محدودة للمعلومات في ما يتعلّق بالعالم الخارجي، لكنها غير ذات نفع في العالم الباطني. إنها حاجز؛ ولها تأثير سلبي في التجربة الباطنيّة.

الفكر ليس حاجزاً ولا جسراً، الفكر محايد. تماهَ معه يصبح حاجزاً؛ وابقَ على غير تماه يصير جسراً. ولا يمكنك، من دون التأمّل، معرفة طبيعتك التجاوزيّة.

التركيز في العلم كافٍ؛ ويحتاج الأمر، في أقصى الحالات، إلى التفكّر. والتأمّل

هو الوسيلة الوحيدة في العالم الباطني. لا يحتاج الأمر إلى التركيز. لأنّه لا يساعد، بل يشكّل عائقاً وضعيّاً. والتفكّر لا يساعد هو الآخر، بل هو تعويض عن عدم كون المرء تأمّلياً، وهذا بديل رديء منه. يمكن للتأمّل، والتأمّل وحده، إحداث ثورة داخلية.

يعني التأمّل الخروج من الذهن، والنظر إليه من الخارج. وهذا هو بالضبط معنى *الوجد (ecstasy)*: الوقوف خارجاً. الوقوف خارج الموت يجعلك واجداً، يجلب لك الطوبى. يجري إطلاق ذكاء عظيم. ولا يمكنك، عندما تتماهى مع الذهن، أن تكون على قدر كبير من الذكاء، لأنّك تتماهى مع أداة، فتأسرك الأداة ومحدوديّتها. وأنت غير محدود، أنت وعي.

استخدم الذهن، لكن لا تصرْه. استخدمه كما تستخدم الآلات الأخرى. فالذهن آلة جميلة. يمكنك استخدامه، وسوف يخدمك؛ وإذا لم تتمكّن من استخدامه وشرع في استخدامك، يصير مدمّراً، خطِراً. ومن المحتّم أن يجلب لك بعض المتاعب، وبعض المصائب، وبعض المعاناة والبؤس، لأن الآلة شيء أعمى، لا بصر لها ولا بصيرة.

استخدم الذهن، لكن لا تصرْه. استخدمه كما تستخدم الآلات الأخرى. فالذهن آلة جميلة. يمكنك استخدامه، وسوف يخدمك؛ وإذا لم تتمكّن من استخدامه وشرع في استخدامك، يصير مدمّراً، خطِراً.

لا يمكن للذهن أن يبصر، بل يمضي فقط في تكرار ما لقّمته. إنّه أشبه بالحاسوب: عليك أن تلقّمه في البداية. وهذه هي تربيتك المزعومة، أن تواصل عمليّة تلقيمه إلى أن يصير مستودعاً كبيراً للذاكرة في داخلك، حيث يزوّدك بكل ما تحتاج إلى تذكّره. لكن عليك أن تبقى السيّد، لتتمكّن من استخدامه؛ وإلا فسيأخذ هو في توجيهك.

لا تدع سيّارتك توجّهك؛ واصل كونك السائق. عليك أن تقرّر الوجهة، عليك أن تقرّر الهدف. عليك أن تقرّر في شأن السرعة، ومتى تنطلق ومتى تتوقّف. وعندما تفقد السيطرة وتتولّى السيّارة الأمور، تأخذ في السير وحدها ويأتيك الهلاك.

لستُ ضدّ المعلومات بالمطلق. المعلومات جيّدة إذا خزنت في الذاكرة لتجدها

بسهولة في كلّ مرّة تحتاج إليها. وهي خطرة فقط عندما لا تحتاج إليها، لكنّها تمضي في الرمي بنفسها عليك. وهي خطرة عندما تجبرك على القيام بأمر ما، فتصبح أنت الضحيّة. وإلا فهي جميلة. وسيلة جميلة، لكنها ليست الغاية.

المعلومات جيّدة إذا خزنت في الذاكرة لتجدها بسهولة في كلّ مرّة تحتاج إليها. وهي خطرة فقط عندما لا تحتاج إليها، لكنّها تمضي في الرمي بنفسها عليك.

أخذ الأستاذ في طرح الأسئلة على تلاميذه في مدرسة دينيّة. توجّه إلى جنكينز سائلاً: «من دكّ أسوار أريحا؟».

«أرجوك، يا سيّدي»، أجاب جنكينز. «لست الفاعل».

تضايق الأستاذ كثيراً. ذهب إلى المدير، وقال: «سألتُ جنكينز للتو عمّن دكّ أسوار أريحا، فأجاب أنه ليس الفاعل. فما رأيك في ذلك؟».

قال المدير: «أعرف عائلة جنكينز منذ سنين، وإذا قال إنه ليس الفاعل، فهو ليس الفاعل».

وهنا اشتد ضيق الأستاذ. فاتصّل هاتفياً بوزير التربية، وقال: «سألت صبيّاً في الصف، 'من دكّ أسوار أريحا؟ وقال إنّه ليس الفاعل. ذهبت من بعدها إلى المدير لأشتكي على الصبي، فقال المدير: أعرف العائلة منذ سنين وإذا قال الصبي إنه ليس الفاعل، فهو *ليس* الفاعل. فما رأيك في ذلك؟».

صمت الوزير لبرهة ثم قال: «اسمع، ضاق ذرعي من شكاوى مدرستكم. رمّموا الأسوار، وسأعمد في حال المزيد من الشكاوى إلى إقفال المدرسة!».

ليست المعلومات في حدّ ذاتها هي السيّئة؛ عليك أن تعرف من دكّ أسوار أريحا! لكن إذا تعزّزت هذه المعلومات أكثر من اللازم في ذهنك، وتواصلت بلا انقطاع من دون أن تتمكّن من تغييبها، أو من دون أن تتمكّن من وضع الذهن في حالة من الاسترخاء، يصير الذهن عندها منهكاً، تعباً، ضجراً، مرهقاً. وكيف يسعك، وأنت في

تلك الحالة، أن تكون ذكيّاً؟ فها هي طاقاتك قد تبدّدت. والذكاء يحتاج إلى طاقات فيّاضة. يحتاج إلى الصحة والكمال.

سيكون المتأمّل أذكى من أي شخص آخر. فهو قادر على استخدام ذهنه موضوعيّاً وذاتيّاً معاً. وقادر أن يتحرّك باطنياً بالسهولة نفسها التي يتحرّك بها خارجيّاً. ويكون أكثر مرونة. إنّه السيّد. ويمكنه تحريك العربة إلى الأمام، وتحريكها إلى الخلف.

عندما صنع فورد سيّارته الأولى، افتقرت إلى ترس الرجوع إلى الخلف. وأنشأت العودة إلى المنزل مشكلة صعبة. فتوجّب بذلك القيام بجولة، وسلوك الطريق الطويلة لمجرّد العودة إلى المنزل. وحتى لو أنّك قطعت أمتاراً قليلة بعيداً من مرأبك، فلن تتمكن من الرجوع إليه، في غياب ترس الرجوع إلى الخلف. وقد أضيف إليها في وقت لاحق.

التأمّل يمدّك بترس الرجوع إلى الخلف. وأنت في العادة لا تملكه. وعليك أن تدور حول العالم مراراً وتكراراً وتظلّ عاجزاً عن إيجاد المكان الذي يقع فيه منزلك. لا يمكنك العودة، لا يمكنك الدخول؛ تعرف فقط كيفيّة الخروج. أمّا المتأمّل فيصير أكثر سلاسة، أكثر ليونة، وتصبح حياته أكثر ثراء. أنا لا أؤيّد أولئك الناس الذين باتوا في الماضي، باسم الدين، راسخين في انطوائهم؛ لأن ذلك يعد تطرُّفاً آخر. وفي حين أن قلّة من الناس يترسّخون بوصفهم منبسطي النفس *extroverts* - ويترسّخ آخرون، كرد فعل، بوصفهم انطوائيّين. إلّا أن الطرفين يكونان بلا حياة، ذلك أن الحياة ملك للمرن، لذلك الذي يستطيع الانتقال من الانطواء إلى الانبساط بمثل سهولة تنقّلك من المنزل وإليه. عندما يبرد الجو كثيراً في الداخل تخرج إلى الشمس؛ وعندما يصبح الجو حاراً جدّاً تعود إلى داخل المأوى، إلى برودة منزلك. الأمر بمثل هذه البساطة.

الحياة ملك للمرن، لذلك الذي يستطيع الانتقال من الانطواء إلى الانبساط بمثل سهولة تنقّلك من المنزل وإليه.

لا يعني التأمّل أن تناهض العالم الخارجي. كان ذلك في الماضي. ولهذا أخفق الدين ولم يتمكّن من النجاح، ولا يمكنه النجاح؛

وما أمكنه النجاح بأي حال. فالحياة ملك للمرن، للدافق. وما إن تصبح مترسّخاً حتى تتشيّأ.

كان الرهبان انطوائيّين؛ أغمضوا عيونهم على العالم الخارجي. لهذا لم نتمكّن في الشرق من تطوير العلم، بالرغم من سير خطوات العلم الأولى في الشرق. طُوّر علم الحساب في الهند. واتُخذت الخطوات الأولى نحو التكنولوجيا في الصين. لكنها توقّفت عند هذا الحد لسبب بسيط، هو أن أعظم الناس في الشرق باتوا انطوائيّين راسخين؛ فقدوا اهتمامهم بالعالم الموضوعي، وأغلقوا أنفسهم كلّياً على الموضوعي. يعني هذا أن ما يتوافر في الشرق هو نصف إمكانياته فحسب.

ما قام به الغرب هو عكس تماماً: أصبح منبسطاً للغاية، ولا يعرف كيفية الدخول إلى الباطن. لا يؤمن بوجود أي باطن. لا يؤمن بأي روح. يؤمن بسلوك الإنسان وليس بعمق وجوده. يدرس سلوكه ويقول عنه إنه آليّ كلّه، وما من شيء في داخله. أصبح المرء إنساناً آليّاً. ويُفهم على أنّه آلة جميلة تطوّرت على مدى ملايين السنين، في رحلة التطوّر الطويلة، الطويلة؛ ولكنّه مجرّد آلة معقّدة.

لم يصعب على أدولف هتلر قتل هذا العدد الكبير من الناس بمثل هذه السهولة لسبب بسيط، وهو الآتي: إذا كان الإنسان آلة، فأين الضرر في قتل الناس؟ أنت لا تشعر بالذنب إذا كسرت ساعة معصمك؛ فهي، مهما بلغت من الدقّة، مجرّد ساعة معصم. وإذا قرّرت كسرها، فالقرار في ذلك يعود إليك؛ لا يستطيع أحد أن يعترض. ولا يمكن جرّك إلى المحكمة بوصفك قاتلاً.

استطاع ستالين قتل ملايين الناس من دون أن يشعر بأي وخز في ضميره لسبب بسيط، هو أن الماركسيّة لا تعترف بوجود الروح. فالإنسان ليس إلا مادة؛ والوعي ليس إلا نتاجاً ثانويّاً للمادة. وفي هذا إفراط.

تطوّر العلم في الغرب، لكن الروحانيّة اختفت. وفي الشرق، تطوّرت الروحانيّة واختفى العلم. وفي كلتا الحالتين يبقى الإنسان فقيراً، ويعيش بنصف إمكانيّته. أما أنا، فينصبّ جهدي على خلق الكائن البشري التام، القادر أن يكون علميّاً وروحانيّاً في آن.

هدّد كلب كبير أجرب هرّة أمّاً وجراءها. حشرها في إحدى زوايا الحظيرة، فانتصبت الهرّة فجأة على قائمتيها الخلفيّتين وشرعت في المواء والزمجرة بصوت مرتفع. جفل الكلب، وارتبك، واستدار، وهرب من الحظيرة، وهو يجرّ ذيله بين قائمتيه.

استدارت الهرّة الأم نحو جرائها، ورفعت مخلبها، وقالت لها: «الآن تدركين مزايا إتقان المرء لغتين».

أريد للكائنات البشريّة أن تكون ثنائيّة اللغة. يجب أن تعرف العلوم بالقدر نفسه، وبالعمق نفسه، الذي عليها فيه معرفة التأمّل. يتوجّب عليها أن تعرف الذهن بالقدر نفسه الذي عليها أن تعرف فيه التأمّل. عليها معرفة لغة العالم الموضوعي؛ ذلك هو العلم؛ وعليها أن تعرف أيضاً لغة العالم الذاتي، فتلك هي الروحانية.

وحده الشخص القادر على الجمع بين الموضوعي والذاتي، وبين الشرق والغرب، وبين المادي الروحاني، قادر أن يكون شخصاً تاماً. والعالم في انتظار الكائن البشري التام. وإذا لم يصل الكائن البشري التام في وقت قريب، فلا مستقبل عندها للبشريّة. ولا يستطيع الكائن البشري التام أن يأتي إلاّ من خلال ذكاء عميق، سحيق.

أنا لست ضد الفكر. أنا لست ضد الذكاء؛ بل أنا ضد التفكّر. لا تتماهَ مع ذهنك. ابقَ دوماً رقيباً على التلال، شاهداً على الجسم والذهن، شاهداً على الخارج والباطن، حيث تتجاوز لا الخارج ولا الباطن، وتعرف أنّك لست أيّاً منهما، أنت أبعد منهما.

من التفكير إلى الإدراك

تفكّر لأنّك لا تدرك.
وعندما يظهر الإدراك
يختفي التفكير.

التفكير هو غياب الإدراك. أنت تفكّر لأنّك لا تدرك. وعندما يظهر الإدراك يختفي التفكير. الأمر أشبه بضرير يتلمّس طريقه؛ وأنت لا تتلمّس طريقك عندما تملك عينين، بل تراه. والإدراك أشبه بامتلاكك عينين؛

ترى بهما ولا تتلمّس طريقك. والتفكير هو تلمّس. تُواصلُ التفكير والتكهّن عندما لا تعرف ماهية الشيء.

لا يستطيع التفكير مدّك بالجواب الصحيح، لأنه لا يستطيع إلا ترداد ما هو معروف. لا يمتلك التفكير رؤية للمجهول. أسبق لك أن حاولت التفكير في المجهول؟ كيف ستفكّر به؟ لا يمكنك التفكير إلاّ بما تعرفه فعلاً؛ إنّه تكراري. ويمكنك معاودة التفكير فيه المرّة تلو المرّة، ويمكنك صنع تركيبات جديدة من أفكار قديمة، لكن ما من شيء جديد بالفعل.

الإدراك نضِرٌ، جديد. ليست له أيّة علاقة بالماضي. الإدراك يحدث هنا والآن. إنّه استبصار للواقع.

هناك مع التفكير أسئلة وأسئلة، ولا أجوبة لها. حتّى عندما تشعر أحياناً بأنّك وجدت الإجابة، فإنما يحدث ذلك، لأن عليك أن تقرّر بطريقة ما أو بأخرى. وهذا ليس الإجابة فعلاً؛ لكن عليك أن تقرّر لكي تتصرّف، وبالتالي يجب التمسّك بإجابة ما. وإذا نظرت إلى إجابتك بعمق، فسوف تجد أنها ستثير ألف سؤال وسؤال.

ليس لدى الفهم أسئلة، بل إجابات فحسب؛ لأن له أعيناً.

انظر: هل يمكن العثور على فكرة واحدة تخصّك، أنت ولّدتها؟ كلّها مستعارة، علماً أن المصادر قد تكون معروفة أو غير معروفة.

التفكير مستعار. كلّ أفكارك تأتيك من الآخرين. انظر: هل يمكن العثور على فكرة واحدة تخصّك، أنت ولّدتها؟ كلّها مستعارة، علماً أن المصادر قد تكون معروفة أو غير معروفة. يعمل الذهن كالحاسوب، لكن عليك تلقيمه قبل أن يتمكّن من إعطائك أي إجابة. عليك تزويده بكل المعلومات؛ وعندها سيعطيك الإجابة. ذلك ما دأب الذهن على القيام به.

الذهن حاسوب عضوي. فأنت تواصل جمع المعطيات والمعرفة والمعلومات. وعندما يُطرح سؤال معيّن، يزوّدك ذهنك بالجواب انطلاقاً من تلك المجموعة. وهو ليس إجابة حقيقية؛ لأنها تأتي من الماضي المنقضي.

يستطيع فقط أن يمدّك بالمعرفة، وليس بالذكاء. فالذكاء هو كينونتك الخاصة المشْحوذة.

ما هو الإدراك؟ الإدراك ذكاء محض. وذلك الذكاء المحض هو خاصتك في الأساس؛ فقد وُلد معك. لا يستطيع أحد أن يعطيك الذكاء. يستطيع فقط أن يمدّك بالمعرفة، وليس بالذكاء. فالذكاء هو كينونتك الخاصة المشْحوذة. يشحذ المرء كينونته عبر التأمّل العميق؛ ويُسقط، من خلال التأمّل، الأفكار المستعارة، ويستعيد كينونته ويستعيد أصالته، يستعيد طفولته، براءته، نضارته. وأنت عندما تتصرّف انطلاقاً من هذه النضارة، فإنما تتصرف انطلاقاً من الفهم. وعندها تأتيك الإجابة مكتملة، هنا والآن؛ والإجابة هي نتيجة التحدّي، وليست نتيجة الماضي.

مثلاً، لو طرح عليك أحدهم سؤالاً، ما كنت لتفعل؟ تلج على الفور إلى داخل ذهنك وتجد الإجابة. تدخل فوراً إلى قبو الذهن، حيث جمعت كلّ معرفتك، وتجد الإجابة فيه. وهذا ما يُسمّى التفكير.

يطرح أحدهم سؤالاً، فتصمت؛ تنظر إلى السؤال بعينين ثاقبتين؛ ليس إلى الذاكرة بل إلى السؤال. تواجهه، تلتقيه. وإذا كنت لا تعرف، تقول إنّك لا تعرف. ولو سألك أحدهم، على سبيل المثال، هل اللّه موجود أم لا؟ تقول على الفور: «نعم، اللّه موجود». ومن أين تأتي هذه الإجابة؟ أمن ذاكرتك، أم من ذاكرتك المسيحيّة، أم الهندوسيّة، أم المسلمة؟ آنذاك تكون الإجابة عقيمة، عديمة الفائدة. وإذا امتلكت ذاكرة شيوعيّة تقول: «لا، لا وجود للّه». ولو امتلكت ذاكرة كاثوليكيّة، لقلت: «نعم، اللّه موجود». وإذا امتلكت ذاكرة بوذيّة تقول: «لا وجود للّه». لكن تلك الإجابات تأتي من الذاكرة. وإذا كنت إنساناً مدركاً تكتفي بالاستماع إلى السؤال، والتعمّق فيه. تراقب فحسب. وإذا لم تعرف تقول: «لا أعرف». وإذا عرفت، عندها فقط تقول إنّك تعرف. وعندما أقول: «إذا كنت تعرف»، أعني: إذا *أدركت*.

الإنسان المدرك صادق. حتّى وإن قال: «لا أعرف»، ذلك أن جهله أكثر قيمة من معرفة الذهن، لأن جهله، أو قبوله جهله، هو على الأقل أقرب إلى الحقيقة. وهو على الأقل لا يحاول الادعاء، أنّه ليس مرئياً.

راقبْ وسترى أن إجابتك كلّها تأتي من ذاكرتك. ثم حاول أن تجد مكاناً لا تعمل فيه الذاكرة، بل يعمل فيه الوعي المحض. ذلك هو الإدراك.

سمعت يوماً القصة الآتية:

دخل طبيب إلى غرفة المريضة. وخرج بعد خمس دقائق طالباً مفتاحاً لولبيّاً، وعاد إلى مريضته. وعاود الخروج بعد خمس دقائق، وطلب إزميلاً ومطرقة.

لم يستطع الزوج الشديد الاضطراب تحمّل المزيد، وسأله راجياً: «بحق السماء أيها الطبيب، ما خطب زوجتي؟».

«لا أعرف بعد»، أجاب الطبيب، «فأنا لا أستطيع فتح حقيبتي».

ليس من الضروري، حتّى وأنت تقول أحياناً، «لا أعرف»، أن ينبع ذلك من الإدراك. فقد يعني أنّك لا تتمكّن من فتح حقيبتك. ربّما كنت لا تستطيع فتح ذكرياتك، أو أنّك عاجز عن العثور على شيء في ذاكرتك؛ وتحتاج إلى الوقت. عندها تقول: «لا أعرف. امنحوني الوقت، دعوني أفكّر في ذلك». وما الذي ستفعله بالتفكير؟ إذا كنت تعرف فأنت تعرف؛ وإذا كنت لا تعرف فأنت لا تعرف. ما الذي ستفكّر فيه؟ لكنّك تقول: «امنحوني الوقت، سأفكّر في الأمر». وما الذي تقوله؟ تقول: «عليّ المضي إلى قبو ذهني والبحث فيه. هناك أجد قدراً كبيراً من الهراء المكوّم عبر السنين يصعب معه العثور على شيء، لكنّني سأبذل أفضل ما في وسعي».

تأمّل وتحرّر من هذا القبو. ليس لأن القبو بلا منفعة؛ ذلك أن بالإمكان استخدامه. لكن يجب ألا يصبح بديلاً من إدراكك.

ينظر الإنسان المدرك إلى الأمور مباشرة. يكون استبصاره مباشراً. غير أنه يستطيع استخدام كل ما راكمه من معرفة لإيضاح كلّ ما يحاول إيصاله إليك. لكنّ ما يحاول

إيصاله نابع منه. قد يستعير الكلمات، وقد يستعير اللغة، وعليه أن يستعير؛ قد يستعير المفاهيم، لكنّه لن يستعير ما يحاول إيصاله إليك. ستأتي الحاوية من الذاكرة، لكن المحتويات ستكون من تصوّره.

ومن الطبيعي أنّ من لا يمتلك إدراكاً يقع باستمرار ضحيّة أفكار كثيرة، لأنه لا يمتلك بصيرة تمنحه نقطة ارتكاز. لديه حشد من الأفكار غير المتواصلة، بل المتناقضة والمتنافرة تنافراً عميقاً. ما لديه ليس مجموعة، ومجتمعاً، بل غوغاء. يظنّ أن في ذهنه حشداً من الأفكار، ولو أنه ذهب بعيداً جدّاً في تفكيره لأصابه الجنون يوماً. يمكن للمبالغة في التفكير أن تولّد الخلل العقلي.

يندر الجنون في المجتمعات البدائيّة. وكلّما ازداد المجتمع حضارة، ازداد عدد الأشخاص الذين يُصابون بالجنون. وحتى في المجتمعات المتحضّرة يُصاب الأشخاص الذي يُعملون فكرهم بالجنون أكثر من أصحاب المهن الأخرى. لمَ؟ لأنّهم يفكّرون أكثر مما يجب. إذ يصعب كثيراً توجيه هذا الكم الكبير من الأفكار المتناقضة معاً. ففي محاولتك إدارتها تصير كينونتك بأكملها فوضى.

الإدراك مفرد، الإدراك مركزي. وهو بسيط؛ أما الأفكار فكثيرة التعقيد.

زار رجل تسيطر عليه زوجته طبيباً نفسيّاً، وقال إنه يشاهد كابوساً متكرّراً.

قال: «أحلم في كلّ ليلة أن الباخرة قد تحطّمت بي وباثنتي عشرة امرأة جميلة».

«وما المريع في ذلك؟»، سأله الطبيب النفسي.

«أسبق لك أن جرّبت التحدّث بتودّد إلى اثنتي عشرة امرأة؟».

تلك كانت مشكلته: كيف يتودّد إلى اثنتي عشرة امرأة. فحتّى التودّد إلى امرأة واحدة صعب.

التفكير أشبه بالتودّد إلى آلاف وآلاف من النساء حولك. ومن الطبيعي أن يُجن المرء. والإدراك بسيط جدّاً: أنت متزوّج من بصيرة واحدة، لكن هذه البصيرة تعمل

كالضوء، كالمصباح. فأينما ركّزت مصباحك تتكشّف الألغاز. أينما ركّزت مصباحك تختفي الظلمة.

من الانفعال إلى الاستجابة

يأتي الانفعال من الأفكار، والاستجابة هي الإدراك. يأتي الانفعال من الماضي، والاستجابة موجودة دوماً في الحاضر. لكننا نقوم في العادة بردّ فعل. فلدينا كلّ شيء جاهز حقّاً في الداخل. يفعل أحدهم شيئاً فننفعل مثله، وكأن الأمر بمجمله كبسة زر. يهينك أحدهم فتغضب. حدث ذلك من قبل، وهو يحدث دوماً بالطريقة نفسها. أصبح الأمر أشبه بالزر: يضغط عليه أحدهم فتغضب. ولا تتاح لحظة واحدة من الانتظار، لحظة واحدة تنظر فيها إلى الوضع لترى إن أمكن أن يكون مختلفاً. قد يكون الشخص الذي أهانك محقاً. ربّما كشف لك الحقيقة، ولذلك تشعر بالإهانة. أو ربّما هو كان مخطئاً تماماً، أو ربّما كان مجرّد شخص كريه. لكن عليك النظر في داخل الشخص، عليك، لو أنّه محقّ، أن تشكره لأنه بيّن لك شيئاً. أظهرَ تعاطفاً معك، وبيّن عن صداقة بجلبه الحقيقة إلى قلبك. وربّما كانت موجعة، لكن ذلك ليس خطأه.

أو ربّما كان مجرد غبيّ، جاهل. لا يعرف عنك شيئاً وقال ما قاله من دون تفكير. ولا حاجة عندها إلى أن تغضب؛ فهو مخطئ ليس إلّا. وما من أحد يقلق في شأن أمر خاطئ تماماً. ولن يغيظك ذلك أبداً، اللهم إلاّ إذا وُجدت بعض الحقيقة فيه. يمكنك أن تسخر منه، ومن مجمل سخافته. فهو تافه.

وثمة احتمال أن يكون ذلك الشخص كريهاً فحسب وتلك هي طريقته. يهين الجميع، وبالتالي لا يفعل شيئاً لك بالذات؛ فهو يكون نفسه، هذا كلّ ما في الأمر. ولذلك لا تدعو الحاجة بالفعل إلى القيام بأي شيء. كل ما في الأمر أنه يشكل صنفاً ما.

أهان أحدهم بوذا. فقال تلميذه أناندا: «استبدّ بي الغضب الشديد، وحافظتَ أنت على هدوئك. توجّب عليك أن تسمح لي، على الأقل، بقول شيء؛ فأضعه عند حدّه».

قال بوذا: «أنت تفاجئني. فاجأني هو أوّلاً، وها أنت الآن تفاجئني. فكل ما قاله لا قيمة له. لا علاقة له بنا فلماذا نتدخّل في شؤونه؟ أنت تفاجئني أكثر عندما تنزعج كثيراً، ويبدو عليك الغضب. هذه حماقة. من الحماقة معاقبة المرء نفسه على خطأ غيره. أنت تعاقب نفسك. اهدأ. لا تدعو الحاجة إلى الغضب، لأن الغضب نار. ولماذا تحرق روحك؟ وإذا ارتكبَ خطأ ما، فلماذا تعاقب نفسك؟ هذا غباء». ولكننا ننفعل.

سمعت يوماً القصة الآتية:

قال رجل لصديقه: «أقلعت، إرضاء لزوجتي، عن التدخين وشرب الخمرة ولعب الورق».

قال صديقه: «لا بدّ من أن ذلك قد أسعدها كثيراً».

«لا، لم يفعل فعله. لم يعد في وسعها الآن التفكير في أي شيء تقوله عندما تبدأ بالحديث معي».

يعيش الناس حياة ميكانيكيّة، أشبه بالرجل الآلي. إذا دأبتْ زوجتك على مناكدتك للإقلاع عن التدخين، وإذا اعتقدتَ أنّها ستسعد بإقلاعك، فأنت مخطئ. فهي غير سعيدة إذا دخّنتَ، ولن تسعد إذا أقلعت، لأنها لن تجد عندها أيّ مبرر لمناكدتك.

قالت لي إحدى النساء إنها لا تريد لزوجها أن يكون كاملاً. وسألتها: «لمَ؟» قالت: «لأنني أحب المناكدة». فماذا ستفعلين إذا كان الزوج كاملاً؟ تقعين ببساطة في حالة ضياع.

راقب نفسك، راقب الآخرين وكيف يتصرّفون بطريقة آليّة، عن غير وعي، أشبه بالمسرنمين الذين يسيرون أثناء النوم.

الانفعال ينتج من الذهن؛ والاستجابة من اللاذهن.

من الاعتقاد إلى الإيمان

الاعتقاد يأتي من الذهن، من التفكير؛ ولا يأتي الإيمان من الذهن، بل من الوعي، من الإدراك.

حدث في قرية عند سفح التلّة، أن قال الصيّاد لدليله: «يبدو أن هذا جرف خطر جدّاً. ومن الغريب أنهم لم يضعوا إشارة تحذير».

«وضعوا إشارة على مدى عامين»، اعترف الدليل ابن البلدة، «وبما أنّه لم يسقط أحد عن الجرف فقد أزالوها».

الاعتقاد أعمى، تعتقد، لأنّك تعلّمت أن تعتقد. لكن ذلك لا يذهب أبداً في العمق، لأنه لا يمتلك إدراكاً للوضع. إنّه مجرّد وسم فائض عن الحاجة، مجرّد شيء أضيف إليك. وهو لم ينمُ من داخلك، وهو ليس نموّاً لإدراكك، بل إنه مُستعار، ولا يلج بالتالي إلى كينونتك. تحمله لبضعة أيّام، ثم تضعه جانباً بعد أن تكتشف أنّه غير نافع ولا ينتج منه شيء. هناك مسيحيّون ليسوا بمسيحيّين؛ وهناك هندوس ليسوا بهندوس. إنّهم هندوس فقط بسبب تلك المعتقدات التي لم يستخدموها قط، تلك المعتقدات التي لم يحترموها قط. يعتقدون أنّهم مسيحيّون، هندوس، مسلمون، لكن كيف لك أن تكون مسلماً إذا لم تعش معتقدك؟

غير أنّ الحقيقة تكمن في *عدم التمكّن* من عيش ذلك المعتقد. فلو شرع الواحد أن يصير أكثر يقظة، يراقب الحياة ويستجيب، لأخذ الإيمان في الظهور مع الوقت. فالإيمان لك؛ والمعتقد يعود إلى غيرك. تخلّ عن المعتقدات ليتمكّن الإيمان من الظهور. ولا تكتفِ بالمعتقدات، وإلا لن يظهر الإيمان أبداً.

من الشفقة إلى التعاطف

الشفقة تنبع من الذهن: تشعرُ بأنّ شخصاً في مشكلة، في حالة بؤس؛ وتفكّرُ أن من واجبك مدّ يد المساعدة. تعلّمتَ أن تساعد، أن تخدم، أن تشعر بالواجب،

أن تكون كائناً بشريّاً جيّداً، مواطناً صالحاً، وهذا وذاك. تعلّمت، وتشعر بالتالي بالشفقة.

ليس للتعاطف أيّ علاقة بتعاليمك. يظهر التعاطف بوصفه تقمّصاً عاطفيّاً، لا بوصفه شفقة. ويظهر التعاطف عندما تتمكّن من رؤية الشخص الآخر كما هو، وعندما يمكنك أن تراه بكلّية كبيرة، حيث تشرع في الشعور به. يراودك شعور بأنّك في الوضع نفسه.

حدث أنّ كان راما كريشنا ينتقل من ضفّة نهر الغانج إلى الضفّة الأخرى، على مقربة من داكشينشوار. وقد تجمّع على الضفّة الأخرى بضعة أشخاص حول واحد من الصيّادين، وهم يشبعونه ضرباً. كان راما كريشنا في وسط النهر وأخذ يبكي وينتحب، وشرع في الصياح: «كفّوا عن ضربي!». لم يتمكّن الأشخاص الجالسون من حوله في المركب، وهم تلاميذه، من تصديق ما يحدث: «من الذي يضربك؟» قالوا. «ما الذي تقوله، هل جننت؟» قال: «انظروا! إنّهم يضربونني في الجانب الآخر».

عندها نظروا وشاهدوا الأشخاص الذين يضربون الرجل. وقال راما كريشنا: «انظروا إلى ظهري». وكشف عن ظهره، بدت آثار على ظهره، وهو ينزف. واستحال تصديق الأمر. وهرع التلاميذ إلى الضفّة الأخرى، والتقطوا الرجل الذي تعرّض للضرب وكشفوا عن ظهره: لديه الآثار نفسها تماماً.

هذا هو التعاطف، أن تضع نفسك مكان الآخر، حيث يصيبك ما يصيبه. وعندها يظهر التعاطف. لكنّ هذه الحالات كلّها لا تنتمي إلى الذهن.

من التواصل إلى المشاركة

التواصل ينبع من الذهن، وهو لفظي، فكري، تصوّري. والمشاركة لاذهنيّة، وهي كناية عن صمت عميق، نقل للطاقة، وهي أيضاً غير لفظيّة، بل قفزة من قلب إلى آخر، فوريّة ومن دون أي وسيط.

الأمر الأساسي والأهم الذي يجب تذكّره، أنه يقسم حياتك، ويقسم العالم كلّه

إلى عالمين، هو أنّك إذا نظرت عبر ستار من الأفكار تجد نفسك عندها تعيش في عالم واحد. لأن عالم الأفكار هو عالم المعتقَد والتفكير والشفقة. وإذا نظرت بعينين صافيتين، بعينين غير ملبّدتين، سيمتلك تصوّرك وضوحاً. فهو صافٍ، يرى ببساطة الأشياء كما هي، من دون إضفاء أي شيء عليها. ولديك من بعد ذلك الإدراك، والتأمّل. ثَمّ يتغيّر العالم كلّه. وتتمثّل المشكلة في أن الذهن قد يخدعك، حين يولّد الشفقة، أي إنه يُنتج نقوداً مزوّرة، عندما يولّد الشفقة بدلاً من التعاطف. والشفقة نقد مزوّر. ذلك أن لديها التواصل بدلاً من المشاركة، وهو نقد مزوّر. وتمتلك الاعتقاد بدلاً من الإيمان، وهو نقد مزوّر.

تذكّر أن الذهن يحاول أن يستبدل نفسه. هل تفتقد شيئاً؟ إن الذهن يحاول أن يجد بديلاً منه. كن يقظاً جدّاً، لأن كل ما يفعله الذهن سيكون مزيّفاً. فالذهن مزيّفٌ عظيم، أكبر مخادع في الوجود. يساعدك، يحاول مواساتك، يمدّك بما هو مزيّف، حتى لا تتوق بعد ذلك إلى ما هو حقيقي.

لو أنّك، على سبيل المثال، صمْتَ النهار بطوله، لحلمت في الليل بالطعام، بأنّك تتناول العشاء في مطعم عظيم، أو بأنّك دُعيت إلى قصور الملوك، وأنك تتناول الطعام الشهي. لمَ؟ لأنك قضيت النهار كلّه جائعاً، وبات يصعب عليك النوم بسبب الجوع؛ يخلق الذهن بديلاً، حلماً. ألم تراقب الأمر؟ تمتلئ مثانتك ليلاً وتودّ أن تقصد دورة المياه، ولو قصدتها لاضطرب نومك. ويولّد الذهن على الفور الحلم بأنّك في دورة المياه. آنذاك، تستطيع أن تواصل نومك. فهو يقدّم إليك بديلاً. والبديل مواساة. وهو ليس حقيقيّاً، لكنّه يساعد في الوقت الراهن.

فاحذر مواساة الذهن. واسْعَ إلى الحقيقة، لأن الحقيقة هي وحدها التي تكفيك. ولا يمكن للمواساة أن تكفي أبداً. أنت تستطيع تناول ما أحببت من الطعام في أحلامك، يمكنك أن تستمتع برائحته، بنكهته، بلونه، بكل شيء، لكنه لن يغذّيك. ويمكن الاعتقاد أنه يمدّك بشذا الإيمان كلّه ونكهته ولونه. يمكنك أن تستمتع به، لكن لن يغذّيك. وحده الإيمان يستطيع أن يغذّي.

احذر مواساة الذهن. واسْعَ إلى الحقيقة، لأن الحقيقة هي وحدها التي تكفيك. ولا يمكن للمواساة أن تكفي أبداً.

تذكّر دوماً أنّ ما يغذّيك هو الحقيقي، وأن ما يكتفي بمواساتك لهو خطر جدّاً. ولن تسعى، بسبب هذه المواساة، إلى الطعام الحقيقي. وإذا أخذت تعيش في الأحلام ولا تتناول الطعام الحقيقي، تتبدّد مع الوقت وتتلاشى وتموت.

اتّخذ إذاً إجراء فوريّاً: لا تستمع إلى الذهن في كلّ مرّة يحاول فيها إعطاءك بديلاً. إنه بائع عظيم، وغاوٍ كبير. يُقنعك بقوله: «هذه الأشياء رخيصة. يصعب كثيراً إيجاد الإيمان، لأن عليك أن تخاطر بحياتك؛ الاعتقاد سهل، ورخيص جدّاً. يمكن الحصول عليه مقابل لا شيء». وهناك، في الواقع، عدد كبير جدّاً من الناس المستعدّين، إذا قبلت معتقدهم، أن يعطوك شيئاً إضافيّاً معه: صر مسيحيّاً، صر هندوسيّاً، أسلِمْ. الناس على استعداد لمنحك ترحيباً عظيماً وتقديراً واحتراماً. كلّ شيء متوفّر؛ وما عليك إلاّ أن تقبل معتقدهم. والاعتقاد ليس بخساً فحسب، بل يمكنه أن يجلب معه الكثير من الأمور الإضافيّة.

الإيمان خطر، وليس بخساً أبداً. الإدراك خطر، وليس بخساً أبداً. الحقيقي خطر. سيتوجّب أن تضع حياتك كلّها على المحك. والأمر يحتاج إلى شجاعة.

السيّد والخادم

سمعت رواية قديمة تقول:

سعد ملك كثيراً بواحد من خدمه كان مخلصاً للغاية له؛ كان على استعداد دائم للتضحية بحياته من أجل الملك. سعد الملك للغاية؛ ذلك أن الخادم قد خاطر بحياته مرّات كثيرة لإنقاذ الملك. إنه حارسه الشخصي.

سعد الملك في أحد الأيّام كثيراً من الرجل، وقال: «إذا رغبتَ في أيّ شيء، إذا امتلكت أي رغبة، قل لي، وأنا أحقّقها لك. قمتَ بالكثير جدّاً من أجلي، ولم أستطع قط أن أُظهر لك امتناني،لم أتمكّن من رد معروفك، لكنّني أودّ اليوم أن أحقّق لك أيّاً من أمنياتك، مهما تكن».

قال الخادم: «سبق لك أن أعطيتني أكثر من اللازم. وأنا سعيد جدّاً لمجرّد وجودي الدائم معك، ولا أحتاج إلى شيء».

لكنّ الملك أصرّ. وكلّما قال الخادم «لا حاجة»، أصرّ الملك. وقال الخادم في النهاية: «حسناً إذاً. اجعلني ملكاً لأربع وعشرين ساعة، على أن تكون أنت الحارس».

تردّد الملك بعض الشيء وخاف، لكنّه رجل يحترم كلمته، وعليه أن يحقّق الرغبة. وهكذا أصبح على مدى أربع وعشرين ساعة هو الحارس، وأصبح الحارس هو الملك. هل تعلم ما فعله الحارس؟ كان أول ما فعله أن أصدر أمره بقتل الملك، لقد حكم عليه بالموت!

قال الملك: «ما الذي تفعله؟».

قال: «صه! أنت مجرّد حارس لا أكثر. هذه رغبتي، وأنا الملك الآن!».

قُتل الملك، وصار الخادم ملكاً إلى الأبد.

للخدم طريقتهم الملتوية الخاصة في أن يصيروا سادة.

الذهن آليّة من أكثر الآليّات جمالاً وتعقيداً وتطوّراً. يخدمك جيّداً، ويستمرّ في خدمتك جيّداً. وأنت، بسبب خدماته، تكرِّر القصّة ذاتها في حياتك. جميعنا كرّرنا القصّة ذاتها. جعلنا من الذهن سيّداً، وها هو السيّد يعاملنا كخدّام.

الذهن آليّة من أكثر الآليّات جمالاً وتعقيداً وتطوّراً. يخدمك جيّداً، ويستمرّ في خدمتك جيّداً. وأنت، بسبب خدماته، تكرِّر القصّة ذاتها في حياتك. جميعنا كرّرنا القصّة ذاتها. جعلنا من الذهن سيّداً، وها هو السيّد يعاملنا كخدّام.

هذه هي المشكلة. ولا يعني هذا أن عليك التخلّص من الذهن. لولا رميت بذهنك لأصبت بالجنون. فمن دون ذهن هناك مهنة واحدة فقط يمكنك مزاولتها، وهي السياسة!

تناهى إليّ، ولا بدّ أنّها قصّة من المستقبل، أن رجلاً ذهب إلى المستشفى لأن

دماغه قد تضرّر جرّاء حادث سيّارة، وأراد واحداً جديداً. طلب من الجرّاح أن يريه كل الأدمغة المتوفّرة. جال به الجرّاح في المكان؛ وفيه الكثير من الأدمغة. الدماغ الأول يخصّ أستاذاً، هو عالم في الرياضيّات. وسأل عن السعر؛ جاءته الإجابة: خمسون دولاراً. فوجئ: عالم رياضيّات شهير، حائز جائزة نوبل، بخمسين دولاراً فقط! ثم هناك دماغ موسيقي، وهو بثلاثين دولاراً، ودماغ رجل أعمال بعشرين دولاراً فقط. وهكذا دواليك... إلى أن بلغا دماغ سياسيّ، وهو بخمسة آلاف دولار! تحيّر الرجل. وقال: «لمَ يكلّف هذا القدر؟» قال الجرّاح: «لأنه لم يُستخدم قط».

تحتاج إلى كلّ ما لك من ذهن، لكن كن سيّداً عليه. استخدمه، ولا تدعه يستخدمك.

هذا ما هو عليه التأمّل كلّه: فن الابتعاد عن الذهن، أن تعلو عليه، أن تكون في حالة من تجاوزه، وأن تعرف «أنك لست الذهن». ولا يعني ذلك أن عليك أن ترمي به. فمعرفة أنك لست الذهن تعيدك من جديد سيّداً. عندها تستطيع استخدامه. وهو، في هذه اللحظة بالذات، ليس طوع بنانك.

المعروف والمجهول والعَصيّ على المعرفة

الذكاء هو النظرة الثاقبة الواضحة إلى الأمور التي لا تمتلك عنها أي معلومات. بيد أن الذاكرة لا تستطيع أن تعمل إلاّ مع الأشياء التي تعرفها، لكنّ الحياة تتألّف من المعروف والمجهول والعصيّ على المعرفة. والذاكرة تكفي مادام الأمر يتعلّق بما هو معروف.

وهذا ما تفعله كل جامعاتك وأنظمتك التربويّة: تغذّي ببساطة ذاكرتك بالمزيد والمزيد من المعلومات، فتمكّنك من الإجابة الفورية عن كلّ ما يعرفه نظام ذاكرتك. ولا تبرهن تلك الإجابة على أنك ذكي.

يُعرف الذكاء فقط عندما تواجه المجهول الذي لا تمتلك أيّة ذاكرة، أو معرفة مسبقة، في شأنه. النقطة الحاسمة هي عندما تواجه المجهول. فكيف تستجيب؟

الذكاء يعني القدرة على الاستجابة لمواقف جديدة. يأتي من كينونتك، وما الذهن إلا الوسيلة. والذكاء نوع من الوعي لما هو عليه الذهن، من دون أن تنتمي إليه. الذكاء صفة الشاهد؛ يراقب الذهن ويصدر إليه التوجيهات.

النقطة الحاسمة هي عندما تواجه المجهول. فكيف تستجيب؟ الذكاء يعني القدرة على الاستجابة لمواقف جديدة. يأتي من كينونتك، وما الذهن إلا الوسيلة.

إليكم هذه القصّة:

جاء التلميذ دوكو إلى المعلّم، وسأل: «في أي حالة ذهنيّة يتوجّب عليّ السعي إلى الحقيقة؟».

أجاب المعلّم: «لا وجود للذهن، ولا يمكنك وضعه في أي حالة، ولا توجد حقيقة ولا يمكنك بالتالي السعي إليها».

قال دوكو: «إذا لم يكن هناك ذهن ولا حقيقة، فلمَ يجتمع كل هؤلاء التلاميذ في حضرتك كل يوم للدراسة؟».

نظر المعلّم من حوله، وقال: «لا أرى أحداً».

وسأل المستعلم، «فمن تعلّم إذاً؟».

«ليس لديّ لسان، فكيف أعلّم؟»، أجاب المعلّم.

عندها قال دوكو بحزن: «لا أستطيع متابعتك؛ لا يمكنني أن أفهم».

قال المعلّم، «أنا نفسي لا أفهم».

الحياة لغز كبير لا يستطيع أحد فهمه، ومن يدّعي أنه يفهم إنما هو جاهل فحسب. لا يُدرك أحد ما يقول، وما الهراء الذي يتفوّه به. ولو أنّك حكيم فسيكون هذا أوّل ما تدركه. لا يمكن فهم الحياة. الفهم مستحيل. يمكن فقط إدراك هذا القدر، بأن الفهم مستحيل. وذلك ما تقوله نادرة «الزن» الجميلة هذه.

يقول المعلّم: «أنا نفسي لا أفهم ذلك». ولو أنّك ذهبت وسألت المتنوّرين فستكون تلك إجاباتهم. لكنّك لو ذهبت وسألت غير المتنوّرين لأعطوك إجابات كثيرة وطرحوا الكثير من العقائد؛ ولحاولوا حل اللغز الذي لا يمكن حلّه. فهو ليس أحجية. يمكن حلّ الأحجية، أما اللغز فهو بطبيعته بالذات غير قابل للحل، ما من طريقة لحلّه. يقول سقراط: «اعتقدت، وأنا شاب، أنني أعرف الكثير. وعندما تقدّمت في السن ونضجت بالحكمة، توصّلت إلى إدراك أنني لم أكن أعرف شيئاً».

ذُكر أن أحد معلّمي المتصوّفة، جنيد، كان يعمل مع شاب جديد، لا يعرف شيئاً عن حكمة جنيد الباطنية. وقد عاش جنيد حياة عادية جدّاً، حيث تدعو الحاجة إلى عينين ثاقبتين جدّاً ليدرك المرء أنه قريب من بوذا. عمل كالفلاّح العادي، ولم يستطع إلا من لهم أعين التعرّف إليه. فالتعرّف إلى بوذا سهل جدّاً، يجلس تحت شجرة الفيكس المقدّسة *Bodhi tree*؛ أما التعرّف إلى جنيد فصعب جدّاً، ذلك أنه يعمل فلاّحاً، ولا يجلس تحت شجرة الفيكس المقدّسة. فهو، من كل الجوانب، عادي تماماً.

عمل معه أحد الشبّان، وأخذ هذا الشاب يتباهى بمعرفته على الدوام. وكان كلما فعل جنيد شيئاً، يقول له الشاب: «هذا خطأ. ويمكن فعله بهذه الطريقة، وهذا أفضل». عرف في شأن كلّ شيء. وفي النهاية ضحك جنيد، وقال: «أيها الشاب، أنا لست شاباً كفاية لأعرف هذا القدر».

هذا أمر مهم فعلاً. قال: «لست شاباً كفاية لأعرف هذا القدر». وحده الشاب يمكنه أن يكون على هذا القدر الكبير من الحماقة، من عدم الخبرة. وسقراط على حق بقوله: «عرفت الكثير وأنا شاب. وعندما نضجت واكتسبت الخبرة، أدركت أمراً واحداً فقط، وهو أنني كنتُ جاهلاً تماماً».

الحياة لغز؛ يعني ذلك أن حلّها مستحيل. وعندما يثبت عقم كل الجهود لحلّها، يظهر عليك اللغز فجأة. وعندها تفتح الأبواب؛ وعندها تجري دعوتك. فما من شخص يدخل الإلهي بوصفه عارفاً؛ يحتضنك اللغز بوصفك طفلاً، جاهلاً، لا تعرف أي شيء. وأنت بذهنك العارف حاذق، لكنّك لست بريئاً. والبراءة هي الباب.

كان معلّم «الزن» هذا محقّاً بقوله: «أنا نفسي لا أفهمه»؛ إن تلك الإجابة عميقة جدّاً، عميقة فعلاً، بل أعمق إجابة ممكنة على الإطلاق. لكن ذلك هو الجزء الأخير من السالفة. ولنبدأ من المطلع بالذات...

جاء التلميذ إلى معلّم «الزن» وقال: «في أي حالة ذهنيّة يتوجّب عليّ السعي إلى الحقيقة؟». ردّ المعلّم،: «لا وجود للذهن، ولا وجود لأي حالة ذهنية».

الذهن هو الوهم، الذي لا وجود له، لكن يبدو وكأنّه موجود، ويبدو موجوداً إلى حدّ بعيد، حيث تعتقد أنّك الذهن. الذهن «مايا»، الذهن مجرّد حلم، الذهن مجرّد إسقاط... فقّاعة صابون تطوف على نهر. وها هي الشمس قد أخذت للتو في الشروق، واخترقت أشعّتها الفقّاعة؛ وتولّد قوس قزح؛ وما من شيء فيها. تتلاشى الفقّاعة عندما تلمسها، ويختفي كلّ شيء؛ قوس القزح، الجمال، ولا يتبقّى شيء. وحده الفراغ يتّحد مع الفراغ اللامتناهي. كان هناك جدار، جدار الفقّاعة. وما ذهنك إلّا مجرّد جدار فقّاعة ويقع ويمتد فراغك في الداخل. أما الخارج، فهو فراغي. إنه مجرّد فقّاعة، انخزها، ويختفي الذهن.

قال المعلّم: «لا يوجد ذهن، فعن أي نوع من الحالات تسأل؟». يصعب فهم ذلك. يأتيني الناس ويقولون: «نودّ بلوغ حالة ذهنيّة صامتة». يعتقدون أن الذهن يمكن أن يصمت؛ لا يمكنه أبداً أن يصمت. فالذهن يعني الاضطراب، المرض، العلّة؛ الذهن يعني الحالة المتوتّرة، الكرب. لا يمكن للذهن أن يصمت. فحيث يوجد الصمت، لا وجود للذهن. وعندما يحلّ الصمت، يختفي الذهن؛ وعندما يحضر الذهن، لا يعود للصمت وجود. ولا يمكن بالتالي وجود ذهن صامت، كما لا يمكن تماماً وجود مرض صحّي. أمن الممكن الإصابة بمرض صحّي؟ عندما تحضر الصحّة يختفي المرض. والصمت هو الصحّة الباطنيّة؛ والذهن هو العلّة الباطنيّة، الاضطراب الباطني.

لا يمكن للذهن أن يصمت. فحيث يوجد الصمت، لا وجود للذهن. عندما يحلّ الصمت، يختفي الذهن؛ وعندما يحضر الذهن، لا يعود للصمت وجود.

وهكذا لا يمكن وجود ذهن صامت. أخذ تلميذه يسأل: «أي صنف، أي نوع، أي حالة ذهنيّة يجب أن أحقّقها؟». ردّ المعلّم بصراحة: «لا وجود للذهن، ولا تستطيع بالتالي تحقيق أي حالة». فتخلّ، أرجوك، عن هذا الوهم؛ لا تحاول تحقيق أي حالة في الوهم. كما لو أنّك تفكّر بالسفر على قوس قزح وتسألني: «أي خطوات يجب اتخاذها للسفر على قوس قزح؟»، وأقول: «لا وجود لقوس قزح. وما هو إلاّ مظهر، وبالتالي لا يمكن اتخاذ أي خطوة». هو يظهر فحسب؛ وهو غير موجود. ليس واقعاً؛ إنه تفسير خاطئ للواقع.

الذهن ليس واقعك؛ بل هو تفسير خاطئ. أنت لست الذهن، ولم تكن الذهن قط، ولا تستطيع أن تكون الذهن أبداً. تلك هي مشكلتك. صرت متماهيّاً مع شيء ليس موجوداً. أنت أشبه بالمتسوّل الذي يعتقد أن لديه مملكة. ويصاب بالقلق الشديد على المملكة، كيفيّة إدارتها، كيفيّة حكمها، كيفيّة تفادي الفوضى. لا وجود لمملكته لكنّه مصاب بالقلق.

حلم شوانغ تزو مرّة أنّه أصبح فراشة. أصيب باكتئاب شديد في الصباح. وسأله أصدقاؤه: «ما الذي حدث؟ لم يسبق لنا أن رأيناك على هذا القدر من الاكتئاب». قال شوانغ تزو: «أنا مرتبك، في حيرة من أمري، لا يمكنني أن أفهم. حلمت، وأنا نائم ليلاً، أنني صرت فراشة».

فضحك الأصدقاء: «لم يسبق لأحد أن انزعج من الأحلام. فعندما تصحو يكون الحلم قد اختفى. فلمَ أنت منزعج؟».

قال شوانغ تزو: «ليس هذا هو الموضوع. فأنا مرتبك الآن: إذا استطاع شوانغ تزو أن يصبح فراشة في الحلم، فمن الممكن الآن أن تمضي الفراشة إلى النوم وتحلم بأنّها شوانغ تزو». إذا استطاع شوانغ تزو أن يصبح فراشة في الحلم، فلمَ لا يصح الأمر الآخر؟ تستطيع الفراشة أن تحلم وتصبح شوانغ تزو. فما هو الحقيقي: أن يحلم شوانغ تزو بأنّه أصبح فراشة، أم أن تحلم الفراشة بأنها أصبحت شوانغ تزو؟ ما هو الحقيقي؟ هنا أقواس قزح. يمكنك أن تتحوّل إلى فراشة في الحلم. وأنت قد أصبحت ذهناً في هذا الحلم الأكبر الذي تسمّيه الحياة. وعندما تصحو لا تحقق حالة ذهنيّة مستيقظة، بل تحقق الحالة اللاذهنيّة، تحقّق اللاذهن.

ماذا يعني اللاذهن؟ هذا أمر يصعب تتبّعه. لكنّك تحقّقه أحياناً، على غير معرفة منك. فبمجرّد الجلوس أحياناً، بطريقة عاديّة، من دون القيام بأيّ شيء، يختفي أي تفكير من الذهن، لأنّ الذهن مجرّد عمليّة التفكير. ليس مادة، بل مجرّد عمليّة معالَجة. أنت هنا في هذه القاعة التي أتحدّث فيها. يمكنني القول إن فيها حشداً، لكن أيوجد فعلاً شيء اسمه الحشد؟ هل الحشد جوهري، أم أنه قائم على وجود أفراد فقط؟ شيئاً فشيئاً سيرحل الأفراد، فهل يتركون وراءهم حشداً؟ عندما يرحل الأفراد لا يتبقّى أي حشد.

والذهن هو كالحشد تماماً؛ والأفكار هي الأفراد. تعتقد أنّ العمليّة ملموسة، لأن الأفكار حاضرة باستمرار. تخلّ عن كل فكرة فرديّة، ولن يتبقّى في النهاية شيء.

لا يوجد ذهن بحد ذاته، بل تفكير فقط.

لا يوجد ذهن بحد ذاته، بل تفكير فقط. تتنقّل الأفكار بقدر كبير من السرعة، إلى درجة أنك لا تستطيع رؤية الفسحة الموجودة بينها. لكن الفسحة موجودة في على الدوام، وهذه الفسحة هي أنت.

تتنقّل الأفكار بقدر كبير من السرعة، إلى درجة أنك لا تستطيع رؤية الفسحة المتاحة بينها. لكن الفسحة موجودة على الدوام، وهذه الفسحة هي أنت. لا تحتوي هذه الفسحة لا على شوانغ تزو ولا على الفراشة، لأن الفراشة نوع من الذهن، كما أنّ شوانغ تزو نوع من الذهن هو الآخر. والفراشة تركيبة مختلفة من الأفكار، وشوانغ تزو هو الآخر تركيبة مختلفة، لكنّ كليهما ذهن. فمن أنت عندما يغيب الذهن: تشانغ تزو أم الفراشة؟ لست أيّاً منهما. وما هي الحالة؟ هل أنت في حالة ذهنيّة متنوّرة؟ إذا اعتقدت أنّك في حالة ذهنيّة متنوّرة فهذه أيضاً فكرة. وعندما توجد *الفكرة فأنت* لا توجد. إذا شعرت بأنّك بوذا، فهذه فكرة. لقد دَخَلَ الذهن؛ وها هي عمليّة التفكير حاضرة، والسماء تلبّدت مرّة أخرى بالغيوم، وفقدت زرقتها. لم يعد في وسعك رؤية الازرقاق اللامتناهي.

حاول، بين فكرتين، أن تكون يقظاً. انظر إلى الفسحة، إلى المسافة بينهما، لن ترى أي ذهن؛ *تلك* هي طبيعتك. فالأفكار تأتي وتذهب؛ إنّها عرضيّة. لكن ذلك

المجال الباطني يبقى على الدوام. الغيوم تتجمّع وتنقشع؛ إنّها عرضيّة. لكن السماء تبقى. أنت السماء.

حدث مرّة أن جاء باحث إلى المتصوّف بايزيد وسأله: «أنا، يا معلّم، شخص غاضب جدّاً. أغضب بسهولة كبيرة: يجن جنوني بالفعل وأُقدم على أفعال معينة. حتّى أنني لا أستطيع لاحقاً التصديق أن في وسعي الإقدام عليها؛ أفقد صوابي. فكيف أتخلّص من هذا الغضب؟ كيف أتغلّب عليه؟ كيف أسيطر عليه؟».

أخذ بايزيد بيديه رأس التلميذ، الذي شعر بانزعاج، وقال بايزيد: «أين ذلك الغضب؟ أودّ النظر فيه».

ضحك التلميذ بعدم ارتياح، وقال: «أنا، الآن بالذات، لست غاضباً. لكن ذلك يحدث في بعض الأحيان». فقال بايزيد. «ما يحدث أحياناً لا يمكن أن يكون طبيعتك. إنّه طارئ. يأتي ويذهب. يشبه الغيوم. فلمَ تقلق في شأن الغيوم؟ فكّر في السماء الدائمة الوجود».

هذا هو تحديد الوعي، «*أتما*»، الذات. السماء الدائمة الوجود. وكل ما يأتي ويذهب خارج عن الموضوع؛ لا تنزعج منه فهو مجرّد دخان. فالسماء الباقية إلى الأبد لا تتغيّر أبداً ولا تصير أبداً مختلفة. اقصدْها بين فكرتين، فهي دائمة الوجود. انظر فيها تدرك فجأة أنّك في اللاذهن.

المعلّم محقّ بقوله: «لا وجود للذهن، ولا يمكن وجود أي حالة ذهنية. فما هذا الهراء الذي تقوله؟».

لكنّ للهراء منطقه الخاص. إذا اعتقدتَ أن لك ذهناً فسوف تشرع في التفكير بعبارات «الحالات»: حالة ذهنيّة جاهلة، حالة ذهنيّة متنوّرة. وما إن تقبل الذهن، وتقبل الوهمي، حتى يحَتّم عليك المضي في تجزئته. وما إن تقبل وجود الذهن حتى تشرع في السعي إلى شيء ما أو إلى سواه. لمَ؟ لأن السعي رغبة، السعي هو الانتقال إلى المستقبل، السعي يولّد الأحلام. وهكذا يسعى شخص إلى السلطة، السياسة، وينشد آخر الثروات والممالك، في حين أن ثالثاً يطلب الحقيقة. لكنّ السعي قائم، *والسعي* هو المشكلة، وليس *ما* تسعى إليه. فالشيء ليس المشكلة،

أبداً، ذلك أن أي شيء سيفي بالغرض. ويمكن للذهن التمسّك بأي شيء. يكفيه أي عذر للوجود.

قال المعلّم: «لا توجد حالة ذهنيّة، إذ لا وجود للذهن، ولا وجود للحقيقة، فما الذي تتحدّث عنه؟ لا يمكن وجود أي مسعى».

وهذه رسالة من أعظم الرسائل التي توجّه على الدوام. وهي على جانب كبير من الصعوبة؛ لا يمكن للتلميذ أن يتصوّر أن لا وجود للحقيقة. وماذا يعني هذا المعلّم بقوله أن لا وجود للحقيقة؟ أيعني ذلك عدم وجود؟

لا، إنه يقول لك، بوصفك ساعياً، أن لا وجود للحقيقة. فالسعي يؤدي دوماً إلى غير الحقيقي. وحده الذهن غير الساعي يدرك كينونته. فأنت كلّما سعيت تفوّت عليك كينونتك، فرصة أن تكون. فالسعي يتحرّك دوماً إلى المستقبل، ولا يمكن للمسعى أن يكون هنا والآن. كيف يمكنك السعي هنا والآن؟ أنت تستطيع فقط *الوجود* هنا والآن. والسعي رغبة، يدخل إليها المستقبل والوقت ويجري تفويت هذه اللحظة، تفويت هُنا والآن. والحقيقة موجودة هنا والآن.

لو أنّك ذهبت إلى بوذا وسألت: «هل اللّه موجود؟» لنفى ذلك على الفور بقوله: «لا وجود للّه». ولو أنّه قال إنّه موجود لخلق باحثاً؛ لو أنّه قال بوجود اللّه، لبدأت بالسعي. وها أنت تسعى وراء الحقيقة، لكنّ المعلّم يقول أن لا وجود للحقيقة. يقطع الأساس بالذات للسعي، يسحب الأرضيّة بالذات التي تقف عليها، حيث يقف ذهنك. يدفعك ببساطة إلى الهاوية.

قال المستفسر: «لمَ يحيط بك إذاً كلّ هؤلاء الساعين؛ لمَ هذا الحشد إذا لم يكن هناك ما يجري السعي إليه، ولم يكن للحقيقة وجود؟». واصل المستفسر تضييع المغزى. نظر المعلّم من حوله، وقال: «لا أرى أحداً، لا يوجد أحد هنا». وواصل المستفسر تضييع المغزى، لأن الفكر يواصل دوماً التضييع. استطاع أن ينظر. والواقع هو الآتي: لا يوجد أحد.

إذا لم تسع فأنت غير موجود، لأن السعي هو الذي يعطيك الأنا. وإذا أنت،

في تلك اللحظة التي لا تسعى فيها للوصول وراء أي شيء أو أي شخص، لن تكون موجوداً هنا، ولن تُسمع جلبة حاضرين أيضاً. حتّى أنا، إن لم أدرّس تعاليمي لأحد وإن لم تتعلم أنت شيئاً من أحد، فمن هنا؟ لا شيء ليُدَرَّس ولا حقيقة لأعلّمها. سيكون العالم فارغاً، وتحل نعمة هذا الفراغ التام. سيختفي الأشخاص وتعم حالة الوعي المحيطي(*).

الأفراد موجودون هنا بسبب الأذهان الفرديّة. لديك رغبة مختلفة؛ لذلك تختلف عن جارك. الرغبات تخلق الفوارق. أنا أسعى إلى شيء، وأنت تسعى إلى شيء آخر؛ يختلف مساري عن مسارك، يختلف هدفي عن هدفك. لذلك أنا أختلف عنك. وإذا كنتُ لا أسعى وأنت لا تسعى، تختفي الأهداف، ولا يعود للمسارات وجود. كيف يمكن عندها للأذهان أن توجد؟ ينكسر الكوب. ينساب الشاي خاصتي إليك، وينساب الشاي خاصتك إليّ. ويصبح الأمر وجوداً محيطيّاً.

تطلّع المعلّم من حوله، وقال: «لا أرى أحداً، لا يوجد أحد».

لكن الفكر يستمرّ في التضييع. قال المستفسر: «فمن تعلّم إذاً؟. لا يوجد أحد، فمن تعلّم؟». قال المعلّم: «ليس لديّ لسان، فكيف أعلّم؟». وواصل إعطاءه التلميحات ليغدو متيقّظاً، لينظر. لكن المستفسر ظلّ غارقاً في ذهنه الخاص. وتابع المعلّم الضرب والطرق على رأسه؛ كان هراءً كل ما تحدث به، وهدفه إخراج كل ذلك.

ولو أنّك كنت حاضراً لاقتنعت من المستفسر لا من المعلّم. ولبدا المستفسر محقّاً تماماً. بدا هذا المعلّم مجنوناً، عبثيّاً. كان يتحدّث! ومع ذلك قال: «لا يوجد لسان، فكيف أستطيع التحدّث؟».

أخذ يقول: «انظر إليّ، فأنا من دون شكل. انظر إليّ، فأنا لست متجسّداً. يبدو لك الجسد، لكنّني لست ذلك، فكيف يمكنني التحدّث؟».

يستمر الذهن مفقوداً. ذلك هو بؤس الذهن. تدفعه فيعاود استجماع نفسه، تضربه فيغرق لبرهة ويرتجف، ويعاود مرّة أخرى إثبات نفسه.

(*) حالة من وعي الفرد لارتباطه بالعالم الخارجي، بوصفه جزءاً لا يتجزأ منه، وشعوره بالخلود.

هل شاهدت الدمية اليابانيّة؟ يسمّونها دمية *داروما*. ترمي بها في أي اتجاه، رأساً على عقب، وكيفما اتّفق؛ لكنّك مهما فعلت، تجلس الدمية في وضعيّة البوذا. فأسفلها وازن جدّاً بحيث لا تستطيع حيال ذلك شيئاً. أما كلمة *داروما* فمشتقة من الاسم الياباني بودي دارما. تعوّد بودي دارما القول إن ذهنك يشبه تماماً هذه الدمية. يرمي بها، يركلها، لكنّه مهما فعل لا يتمكّن من إزعاجها؛ فجزؤها الأسفل ثقيل جدّاً. ترميها رأساً على عقب، ويبقى الجانب الصحيح منتصباً.

وهكذا تابع هذا المعلّم ضغطه. بعض من الهزّ وتعود الدمية إلى وضعها الصحيح من جديد، لم يفهم المغزى. يئس المستفسر في النهاية، وقال: «أنا لا أتابعك، لا أفهم». ووجّه المعلّم ضربته القاضية، وقال: «وأنا نفسي لا أفهم».

أواصل التعليم، وأنا أعرف تمام المعرفة أن لا وجود لما أعلّمه. لذلك يمكنني الاستمرار إلى ما لا نهاية. ولو وُجد ما أعلّمه لانتهيت بالفعل. يستطيع بوذا أن يسترسل في الحديث، لعدم وجود شيء يعلّمه. إنها قصّة لا تنتهي، لا تبلغ خواتيمها أبداً؛ ولذلك يمكنني الاسترسال. ولن أنتهي أبداً؛ قد تنتهي أنت قبل أن تنتهي قصّتي، لأنها بلا نهاية.

سألني أحدهم: «كيف تتمكّن من الاسترسال في الكلام كل يوم؟». قلت: «لعدم وجود ما أعلّمه». ستشعر بذلك فجأة يوماً من الأيّام، بأنّني لا أتكلّم، بأنّني لا أعلّم. وقد أدركتَ عدم وجود ما يُعلَّم، لأن الحقيقة لا وجود لها.

ما الانضباط الذي أمدّك به؟ لا شيء. الذهن المنضبط هو أيضاً ذهن، بل إنه أكثر عناداً، أكثر تعنّتاً؛ الذهن المنضبط أكثر غباء. اذهب وشاهد جميع الرهبان المنضبطين في كل أنحاء العالم: مسيحيين وهندوساً وجانيّين. كلّما رأيتَ إنساناً منضبطاً تماماً، ستجد وراءه ذهناً غبيّاً. لقد توقّف انسيابه. ينشغل كثيراً في العثور على شيء، حيث يكون على استعداد للقيام بأيّ شيء تقوله. وإذا قلت له: «قف على رأسك لساعة»، فهو على استعداد للوقوف على رأسه. وذلك بسبب الرغبة. فإذا لم يستطيع الوصول إلى اللّه إلا من خلال الوقوف على رأسه لساعات، فهو مستعدّ لذلك، لكن عليه أن يصل.

أنا لا أقدّم إليك أي وصول، أي رغبة؛ فلا مكان تبلغه ولا من أمر تحقّقه. وإذا أدركتَ ذلك، تكون قد حقّقت الإنجاز في هذه اللحظة بالذات. وأنت، في هذه اللحظة بالذات، كامل؛ ما من شيء يتوجّب عمله، وما من شيء يتوجّب تغييره.

لذلك قال المعلّم: «أنا نفسي لا أفهمه». ويصعب إيجاد معلّم يقول: «أنا نفسي لا أفهمه». على المعلّم أن يدّعي أنه يعرف، وعندها فقط ستتبعه. وليس على المعلّم أن يكتفي بالادّعاء أنه يعرف، بل يجب أن يزعم أنّه *الوحيد* الذي يعرف، ولا أحد غيره: «جميع المعلّمين الآخرين على خطأ. أنا وحدي أعرف». وعندها ستتبعه. عليك أن تتأكد بشكل مطلق، وعندها تصبح تابعاً. يمدّك اليقين بشعور أن هذا هو الرجل، وأنك إذا تبعته ستصل.

سأروي لك قصّة: حدث مرّة أن كان معلّم مزعوم على سفر. وأخذ يعلن في كلّ قرية يقصدها قائلاً: «لقد وصلت. لقد وصلت إلى معرفة اللّه. فإذا شئتم تعالوا واتبعوني».

راح سكان تلك القرى يلمسون قدميه، ويقدّمون إليه الاحترام ويخدمونه. لكن ما من أحد تبعه، بالنظر إلى وجود عدد كبير آخر من الأمور التي يتوجّب القيام بها قبل أن يمضي الشخص سعياً وراء الإلهي. فالأهمّ قبل المهم. والإلهي يحلّ دوماً في المرتبة الأخيرة، والأمر الأخير لا يأتي أبداً، لأن الأهم لا نهاية له؛ فهو لا ينتهي أبداً. إلا أن مجنوناً في إحدى القرى، وهو مجنون وإلاّ لما تبع المعلّم، قال: «حسناً. هل وجدت اللّه؟».

تردّد المعلّم بعض الشيء، وهو ينظر إلى المجنون، لأن هذا الرجل بدا خطيراً، وقد يتبعه ويفتعل له مشكلات هو بغنى عنها؛ لكنّه لم يتمكّن من نكران ذلك أمام القرية بأكملها، فقال: «نعم».

قال المجنون: «الآن، لقّني. سأتبعك حتى النهاية. أريد أن أدرك اللّه بنفسي». اضطرب المعلّم المزعوم، لكن ما العمل؟ وشرع المجنون يتبعه، وبات كظلّه تماماً. مرّ عام. وقال المجنون: «كم يبعد، كم يبعد المعبد؟».

وأردف: «لست مستعجلاً، لكن كم يستغرق ذلك من الوقت؟». عند هذا الحد بات المعلّم يشعر بقدر كبير من عدم الارتياح ومن الاضطراب حيال هذا الرجل. فالمجنون ينام بقربه، ويتحرّك معه؛ صار ظلّه. وبسببه أخذ يقينه يتحلّل. وكلّما قال في إحدى القرى: «اتبعوني»، يستبدّ به الخوف، لأن هذا الرجل ينظر إليه ويقول: «إنني أتبعك يا معلّم، لكنني لم أصل بعد».

مرّت السنة الثانية، ومرّت الثالثة، وقال المجنون: «لم نبلغ أي مكان. نسافر فحسب إلى قرى مختلفة وتواصل القول للناس، 'اتبعوني'. أنا أتبعك، وأفعل كلّ ما تقوله، لذا لا يمكنك القول إنّني لا أتبع النظام».

كان المجنون مجنوناً فعلاً، يفعل كلّ ما يُطلب منه. ولم يستطع المعلّم بالتالي خداعه بالقول له إنه لا يبذل ما في وسعه. وأخيراً قال له المعلّم في إحدى الليالي: «بسببك ضيّعت طريقي. كنت، قبل لقائك، متيقّناً؛ ولكنّني لم أعد كذلك الآن. فأرجوك أن تتركني».

كلّما وُجد شخص مُتيقّن، وأنت على ما يكفي من الجنون، تشرع في اتباعه. أيمكنك أن تتبع الشخص الذي يقول: «أنا نفسي لا أعرف. أنا نفسي لا أفهم؟». إذا استطعت أن تتبع هذا الإنسان فسوف تصل. تكون قد وصلت بالفعل إذا قررت أن تتبعه، لأن الذهن هو الذي يطلب اليقين، الذهن هو الذي يطلب المعرفة. ويطلب الذهن أيضاً التأكيدات الجازمة. فإذا أمكنك أن تكون على استعداد لاتباع شخص يقول: «أنا نفسي لا أعرف»، يكون السعي قد توقّف. وها أنت لم تعد تطلب المعرفة.

من يطلب المعرفة لا يستطيع طلب الكينونة. فالمعرفة هراء؛ والكينونة حياة. عندما تتوقّف عن طلب المعرفة تكون قد توقّفت عن طلب الحقيقة، لأنّ الحقيقة هي هدف المعرفة. إذا لم تحاول طرح الكثير من الأسئلة حول الكينونة، وإذا كنت صامتاً لا تسعى إلى هدفٍ معيّن، عندها فقط ستتكشّف لك كينونتك.

كلّ شيء متوفّر، وقد توفّر على الدوام؛ وأنت لم تفوّته قط. لكنّك لا تستطيع

النظر لأنّك تسعى، بسبب المستقبل، إلى الهدف. فالحقيقة تحيط بك، وأنت موجود فيها. فتماماً كما يوجد السمك في المحيط، توجد أنت في الحقيقة. ليست التقوى هدفاً، بل التقوى هي ما هو هنا والآن. الأشجار، الرياح التي تهب، الغيوم التي تتحرّك، السماء، أنت، أنا؛ التقوى هي كل ذلك. وهي ليست هدفاً.

تخلّ عن الذهن والإله. اللّه ليس شيئاً، إنّه اندماج. والذهن يقاوم الاندماج، الذهن ضد الاستسلام؛ الذهن ماكر جدّاً ويحسب الأمور.

هذه القصّة جميلة. أنت المستفسر. جئت للحصول على المعرفة، لحلّ اللغز، وأكرّر لك: لا توجد حالة ذهنيّة، لأن الذهن لا وجود له. ولا وجود للحقيقة، وبالتالي لا معنى للسعي إليها. كل مسعى عقيم؛ والبحث بهذا الشكل حماقة. اسعَ وستخسر. لا تسعَ، وستجد. اركض وستفوّت. توقّف، فلطالما كان ما تسعى إليه موجوداً هنا.

ولا تحاول أن تفهم، كن.

صر جاهلاً، صر كالطفل. وحده قلب الطفل يستطيع أن يقرع أبواب العالم الآخر، ووحده قلب الطفل يُسمع.

خارج المألوف - التحرّر من التكييف

كلّ أشكال التكييف سموم. أن يفكّر المرء بنفسه على أنه هندوسيّ، يعني أن يفكّر بنفسه على أنه معارض للإنسانيّة. أن يعتبر المرء نفسه ألمانيّاً، صينيّاً، يعني أن يعتبر نفسه معارضاً للإنسانيّة، أن يفكّر بعبارات العداوة وليس الصداقة.

اعتبر نفسك فقط كائناً بشريّاً. إذا امتلكتَ أي ذكاء، ففكّر بنفسك على أنّك مجرّد كائن بشريّ. وعندما ينمو ذكاؤك بعض الشيء، فسوف تتخلّى حتى عن صفة *البشري*؛ وتفكّر في نفسك بوصفك كائناً فحسب. وتتضمّن الكينونة كلّ شيء: الأشجار والجبال والأنهر والنجوم والطيور والحيوانات.

صرْ أكبر، صرْ جبّاراً. لمَ تعيش في الأنفاق؟ لمَ تزحف إلى داخل الثقوب الصغيرة السوداء، حيث تعتقد أنّك تعيش في أنظمة أيديولوجيّة عظيمة؟ وأنت لا تعيش فيها، لعدم وجودها. فما من فكرة كبيرة كفاية لتحتوي على الكائن البشري؛ لا يمكن لأيّ مفهوم احتواء الكينونة. فكلّ المفاهيم تُقعِد وتشلّ.

لا تكن كاثوليكيّاً، ولا تكن شيوعيّاً، بل كن كائناً بشريّاً فحسب. فهذه كلّها سموم، كلّها تحيّزات غُرزت فيك عبر العصور، وهي أشبه بالتنويم المغناطيسي.

لا تكن كاثوليكيّاً، ولا تكن شيوعيّاً، بل كن كائناً بشريّاً فحسب. فهذه كلّها سموم، كلّها تحيّزات غُرزت فيك عبر العصور، وهي أشبه بالتنويم المغناطيسي.

أصبحت جزءاً من دمك، من عظامك، من نخاعك بالذات. وعليك أن تتيقّظ كثيراً للتخلّص من كل هذا السم.

جسمك ليس مسمَّماً بالقدر الذي تسمّم به ذهنك. والجسم ظاهرة بسيطة، ويمكن تنظيفه بسهولة. ويمكنك، إذا دأبتَ على تناول طعام غير نباتي، التوقّف عنه، وليس ذلك بذي شأن. وإذا توقّفت عن تناول اللحوم، ففي غضون ثلاثة أشهر سينظف جسمك كلّياً من السموم الناتجة من الأطعمة غير النباتية. وهذا أمر بسيط. فليس علم وظائف الأعضاء على هذا القدر من التعقيد.

لكنّ المشكلة تظهر مع السيكولوجيا. فالراهب الجايني لا يتناول أبداً أيّ طعام مسمّم، لا يأكل أبداً ما هو غير نباتي. لكنّ ذهنه ملوّث ومسمّم بالجاينيّة، كما لم يتسمّم أحد آخر.

الحرّية الحقيقيّة هي التحرّر من أي إيديولوجيّة. ألا يمكنك أن تعيش بلا إيديولوجيّة؟ هل من حاجة إلى الإيديولوجيّة؟ ولمَ هناك هذا القدر من الحاجة إلى الإيديولوجيّة؟ تحتاج إليها لأنها تساعدك على البقاء غبيّاً، تحتاج إليها لأنّها تساعدك على البقاء غير ذكيّ. تحتاج إليها لأنّها توفّر لك الأجوبة الجاهزة، فلا تحتاج إلى العثور عليها بنفسك.

لن يتمسّك الرجل الذكي بأي إيديولوجيّة، ولمَ يفعل؟ لن يحمل شحنة من الإجابات الجاهزة. يعرف أنّه يمتلك ما يكفي من الذكاء للتمكّن من مجابهة أي وضع يستجد. ولمَ يحمل شحنة غير ضروريّة من الماضي؟ وما الفائدة من حملها؟

لن يتمسّك رجل الذكي بأي إيديولوجيّة، ولمَ يفعل؟ لن يحمل شحنة من الإجابات الجاهزة. يعرف أنّه يمتلك ما يكفي من الذكاء للتمكّن من مجابهة أي وضع يستجد.

والواقع هو الآتي: كلّما حملت المزيد من الماضي تضاءلت قدرة استجابتك للحاضر، لأن الحاضر ليس تكراراً للماضي، فهو دوماً جديد، جديد دائماً ودوماً. وهو ليس القديم أبداً؛ قد يبدو أحياناً كالقديم، لكنّه ليس قديماً، فهناك فوارق أساسيّة.

لا تكرّر الحياة نفسها أبداً. فهي نضرة دائماً، جديدة دائماً، دائمة الاستكشاف، وتتحرّك دوماً نحو مغامرات جديدة. ولن تنفعك إجاباتك الجاهزة القديمة. بل إنّها في الواقع ستعرقلك؛ لن تسمح لك برؤية الوضع الجديد. سيكون الوضع جديداً والجواب قديماً.

ولهذا أنت تبدو على هذا القدر من الغباء في الحياة. لكن الاستمرار في الغباء يبدو أقلّ كلفة. فالذكاء يحتاج إلى جهد، والذكاء يعني أن عليك أن تنمو. والنمو مؤلم. يعني الذكاء أن عليك أن تبقى دائم اليقظة والإدراك؛ لا يمكنك أن تغفو، ولا يمكنك العيش مثل السائر في نومه.

غير أن الذكاء، ينبئ بمزيد من المخاطر. ويصعب جدّاً أن تكون ذكيّاً لأن ذلك يحتّم عليك العيش مع الحشود الغبيّة. يشكّل العيش مع المصابين بالعمى، وأنت تمتلك عينين، وضعاً خطيراً؛ فمن المحتّم أن يقتلعوا عينيك. لا يمكنهم تحمّلك، فأنت بمثابة إهانة لهم.

لذلك صُلب يسوع، وسُمّم سقراط، وقُتل الحلاّج، وقُطع رأس سرمد. كانوا أذكى مَن سار على وجه الأرض، فكيف تصرّفنا معهم؟ ولمَ ينبغي لمن يمتلك ذكاء سقراط أن يُقتل؟ لأنّه أصبح لا يُحتمل. بات وجوده بمثابة إهانة كبيرة. فأن تنظر في عينيه يعني النظر في المرآة. ونحن على درجة كبيرة من البشاعة، حتى أننا بدلاً من قبول واقعنا كبشعين، نجد أن السياق الأسهل هو تحطيم المرآة ونسيان أمر بشاعتنا، والشروع من جديد في عيش الحلم القديم بأنّ كلاً منّا هو الإنسان الأجمل في العالم.

قضينا على سقراط، لأنه كان مرآة. ثمّ قرّر الناس أن من الأفضل لهم أن يبقوا عاديّين، بل أغبياء.

قرأت في اليوم السابق بالتحديد تقريراً يفيد عن اكتشاف بضعة علماء نفس في إنكلترا أن في الوقت الذي يبلغ فيه كبار السياسيّين أرفع المناصب، يكون ذكاؤهم قد أخذ فعلاً في الأفول. فكّرْ فقط في شخص يصبح رئيس حكومة وهو في الرابعة والثمانين! وقد حذّر علماء النفس أولئك العالم كلّه بأن هذا يشكّل خطراً. أن يصبح

أشخاص تجاوزوا الستين والسبعين والثمانين رؤساء حكومات ورؤساء، إنما هذا هو الخطر المحدق بالعالم، لأنهم يمتلكون قدراً كبيراً من القوّة، ولم يعد لديهم سوى هذا الكمّ القليل من الذكاء.

إلا أن علماء النفس هؤلاء ليسوا على علم بأمر آخر أودّ أن أخبركم به. فالواقع هو أن اختيار هؤلاء الناس كرؤساء حكومات ورؤساء لا يجري، إلاّ لأنهم لم يعودوا أذكياء. الناس لا يحبّون الأشخاص الأذكياء. الناس يحبّون الناس الذين يشبهونهم؛ يشعرون أنّهم ليسوا بغرباء. والأشخاص الأذكياء سيكونون غرباء.

لا يمكنني أن أفكّر في أي بلد يختار سقراط لرئاسة الحكومة، إنه لأمر مستحيل. فهو مختلف جدّاً، ومقاربته للحياة مختلفة، وتبصّره في الأمور على درجة كبيرة من العمق. ولا يمكن لأي بلد أن يتحمّله، بل لا يمكن لأي بلد أن يمتلك ما يكفي من الشجاعة لجعله رئيس حكومة، لأنّه سيجلب الفوضى. سيشرع في تغيير كل شيء، لأنّ كلّ شيء يحتاج إلى التغيير.

يجب تدمير هذا المجتمع الرديء بالكامل؛ عندها فقط يمكن خلق مجتمع جديد. الترميم لن ينفع. فقد عملنا على مدى قرون في ترميم الخرائب القديمة ذاتها. فلا دعائم بعد الآن ولا ترميم ولا تكليس! كل ما يحتاج إليه الأمر هو هدم المجتمع، ودعونا نخلق مجتمعاً جديداً. دعونا نأتِ بكائن بشري جديد، إنسان جديد *Homo Novus*. دعونا نولّد شيئاً جديداً، ذهناً جديداً، وعياً جديداً.

من الخطر بالتأكيد وجود أشخاص غير أذكياء في مراكز القوة. وإلّا تحوّل الأمر من خطر إلى أخطر، لأن أولئك يمتلكون المزيد والمزيد من السلطة، والأقل فالأقل من الذكاء. لكن لمَ يحدث ذلك؟

يختار الناس للسلطة أشخاصاً مملّين، موتى، لأنهم يكونون في أمان معهم. تختار البلدان أشخاصاً عاديين ليكونوا في السلطة لأنّهم يحفظون تقاليدها، مواثيقها، تحيّزاتها. سيحمون سمومهم بدلاً من القضاء عليها، وسيحسّنونها ويعزّزونها.

من الخطر بالتأكيد وجود أشخاص غير أذكياء في مراكز القوة. وإلّا تحوّل الأمر من خطر إلى أخطر، لأن

أولئك يمتلكون المزيد والمزيد من السلطة، والأقل فالأقل من الذكاء. لكن لمَ يحدث ذلك؟ ثمة منطق خفي. الناس لا يريدون التغيير. فالتغيير شاق، التغيير صعب.

نوع جديد من العصيان

من المهم فهم ما أعنيه *بالعصيان*. فهو ليس العصيان الذي تجده في القواميس. ولا تتعلّق فكرتي عن العصيان بأن تكره أن يُملى عليك ما يتوجّب فعله، أو أن تفعل تماماً عكس ما يُطلب منك، كردّ فعل.

لا تحتاج الطاعة إلى الذكاء. الآلات كلّها مطيعة؛ ولم يسبق لأحد أن سمع بآلة عاصية. والطاعة بسيطة أيضاً. ترفع عنك عبء أي مسؤوليّة. ولا تدعو الحاجة إلى ردّ فعل، فما عليك إلا أن تفعل ما يُطلب منك فعله. فتقع المسؤوليّة بالتالي على المصدر الذي يأتي منه الأمر. وهكذا، تصبح أنت حرّاً للغاية، ذلك أنك لن تُدان على فعلك.

على أثر الحرب العالمية الثانية، حدث في محكمة نورمبرغ، أن اكتفى عدد كبير جدّاً من كبار رجالات أدولف هتلر بالقول إنّهم ليسوا مسؤولين، وإنهم لا يشعرون بأنهم مذنبون. فقد اكتفوا بالطاعة، فعلوا كلّ ما طُلب منهم القيام به، وأدّوه بأكثر ما يمكنهم من الفاعليّة. والواقع، في رأيي، هو أنه ليس من العدل تحميلهم المسؤوليّة وإدانتهم ومعاقبتهم وإرسالهم إلى المشانق. تلك ليست عدالة، بل انتقام. ولو أن أدولف هتلر انتصر في الحرب لوجد جماعة تشرتشل وجماعة روزفلت وجماعة ستالين أنفسهم في الموقف ذاته، ولقالوا الشيء نفسه بالتحديد، إنهم ليسوا مسؤولين.

ولو وقف ستالين في قفص المحكمة، لقال إن الأمر قد صدر عن القيادة العليا للحزب الشيوعي. وهذه ليست مسؤوليّته لأن القرار ليس قراره؛ لم يفعل أي شيء من تلقاء نفسه. وبالتالي، إذا أردت معاقبة شخص فعليك معاقبة مُصدر الأمر. لكنّك تعاقب شخصاً اكتفى بتطبيق ما تُعلّمه الأديان كلّها، ما يعلّمه زعماء العالم جميعهم، وهو الطاعة.

في الطاعة بساطة؛ ويحتاج العصيان إلى مرتبة أعلى من الذكاء. يستطيع الأحمق أن يكون مطيعاً، ووحدهم الحمقى في الواقع يمكنهم أن يكونوا مطيعين. فمن المحتّم على الذكي أن يسأل عن السبب: «لمَ يُفترض بي فعل ذلك؟ ولن أشارك فيه ما لم أعرف أسبابه وعواقبه». وهو بهذا يكون مسؤولاً.

المسؤوليّة ليست لعبة. إنها واحدة من أكثر طرائق الحياة أصالة، وخطراً أيضاً؛ لكنّها لا تعني العصيان من أجل العصيان. فذلك غباء أيضاً.

هناك قصّة تُروى عن المتصوّف الملاّ نصر الدين. اعتُقد، منذ البداية، أن حياته مقلوبة رأساً على عقب. وهو ما أصاب أهله بالاضطراب. فلو قالوا «توجّه يميناً»، لتوجّه يساراً. وارتأى والده العجوز في النهاية ألّا يُتعبوا أنفسهم معه، وأن من الأفضل، بدل ذلك، أن يأمروه بالذهاب يميناً إذا أرادوه أن يذهب يساراً؛ وهكذا يتوجّه نحو اليسار.

كان نصر الدين وأبوه في أحد الأيّام يعبران النهر، وهما ينقلان كيساً من السكّر شُدّ بحزام إلى حمار، وأخذ الكيس يميل إلى اليمين، وكان ثمة خطر أن ينزلق إلى النهر. وكان يتوجّب أن يبقى متوازناً على الحمار. لكن أن يطلب الأب من نصر الدين أن يحرّك الكيس نحو اليسار سيعني خسارة السكّر، لأنه سيحرّكه إلى اليمين.

فقال الوالد لنصر الدين، «كيسك ينزلق، يا بُني؛ حرّكه نحو اليمين». وحرّكه نصر الدين صوب اليمين.

قال الوالد: «غريب، إنها المرّة الأولى التي تطيع فيها!».

قال نصر الدين: «إنها المرّة الأولى التي تمكر فيها. عرفتُ أنّك تريدني أن أحرّكه إلى اليسار؛ أمكنني أن أرى بعينيْ أين يجب تحريكه. فأنت حتى بطريقتك الماكرة هذه لا يمكنك أن تجعلني مطيعاً».

غير أن مجرّد التحرّك ضد الطاعة لن يرفع من مستوى ذكائك. سوف تبقى على المستوى نفسه. لكن، سواء أكنت مطيعاً أم عاصياً، فلن يطرأ أي تغيير على ذكائك.

والعصيان، في نظري، ثورة كبرى. ولا يعني أن عليك التفوّه بـ«لا» مطلقة في كل وضع من الأوضاع. بل يعني ببساطة أن تقرّر: هل تقوم بذلك العمل أم لا؟ وهل القيام به مفيد أم لا؟ يعني أن تتحمّل المسؤوليّة بنفسك. ولا يتعلّق الأمر بكره الشخص أو بكره أن تؤمر، لأنك لا تستطيع بهذا الكره أن تتصرّف بطاعة أو بعصيان؛ فأنت تتصرّف بقدر كبير من اللاوعي. ولا يمكنك التصرّف بذكاء.

عندما يُطلب منك القيام بأمر، فإنّك تُمنح فرصة الاستجابة. ربّما كان ما يُطلب منك صائباً، فقم به، وكن ممتنّاً للشخص الذي طلب منك في الوقت المناسب القيام به. وربّما كان غير صائب، فأوضح الأمر. بيّن أسبابك، ولماذا ليس صائباً. ساعد الشخص على رؤية أن ما طلبه يسير في الاتجاه الخاطئ. لكن لا تدع مكاناً للكره. إذا كان الأمر صائباً فقم به بمحبّة. وإذا لم يكن صائباً، فإن الأمر يحتاج إلى المزيد من المحبّة، لأنّه سيوجب عليك أن تقول للشخص، أن تشرح له، أن ذلك ليس صائباً.

سبيل العصيان ليس راكداً، ولا يعني مجرّد الوقوف ضدّ كل نظام، والشعور بالغضب والحقد والرغبة بالانتقام من الشخص. فسبيل العصيان هو سبيل الذكاء العظيم.

ثمّ إنّ القضية لا تتعلّق في النهاية بالطاعة أو بالعصيان. والأمر، إذا حُوّل إلى واقعه الأساسي، وهو مسألة ذكاء فحسب، فتصرّفْ بذكاء. سيتوجّب عليك أحياناً أن تطيع، وأحياناً أن تقول: «إنني آسف، لا يمكنني القيام بذلك». لكن المسألة ليست مسألة حقد أو انتقام أو غضب. وإذا ظهر الحقد أو الغضب أو الانتقام، فيعني ذلك ببساطة أن ما قيل لك صحيح، لكنّ إطاعته تخالف أنا العائدة إليك؛ وهي مؤذية. ويَظهر هذا الشعور بالأذى في صورة حقد، أو غضب.

لكن الأنا العائدة إليك ليست المسألة؛ المسألة هي العمل الذي عليك القيام به، وعليك أن تستحضر كل ذكائك لتصوّر ذلك. فإذا كان صحيحاً، فكن عندها مطيعاً؛ وإذا كان خطأ، فكن عاصياً. لكن لا تدع مجالاً للنزاع ولا للمشاعر المؤذية.

والأمر أكثر سهولة إذا كنت مطيعاً؛ فأنت لا تحتاج إلى شرح الأمر لأحد. لكنّك إذا لم تطع فأنت مدين بتفسير. وربّما كان شرحك ليس صحيحاً. وعليك عندها التراجع والقيام بالأمر.

على المرء أن يعيش بذكاء، هذا كلّ شيء. وعندها يتحمّل مسؤوليّة كل ما يفعله.

ثمة مفكّرون كبار لا يعيشون بذكاء. فمارتن هايدغر، وهو أحد كبار مفكّري عصره، كان من أتباع أدولف هتلر. وبعد هزيمة هتلر وفضْح جانبه الحيواني الأساسي ووحشيّته ونزعته القاتلة وعنفه، تراجع حتى هايدغر، وقال: «تبعت فحسب زعيم الأمّة».

لكن لا شأن للفيلسوف في اتّباع زعيم الأمة. بل إن واجب الفيلسوف الأساسي يتمثّل حقيقة في توجيه زعماء الأمّة، لا في اتّباع توجيهاتهم. وعلى رؤيته أن تكون أوضح من رؤيتهم، لأنه خارج السياسة الناشطة. فهو يقف منعزلاً، ويمكنه أن يرى أموراً لا يمكن للأشخاص المنخرطين في العمل رؤيتها.

لكن يسهل رمي المسؤوليّة على شخص آخر...

أنا على يقين من الآمر الآتي: لو انتصر أدولف هتلر لقال مارتن هايدغر: «انتصر لأنّه تبع فلسفتي». ومن المؤكّد أن هايدغر كان مفكّراً عظيماً بالمقارنة مع أدولف هتلر. فأدولف هتلر مجرّد إنسان متخلّف. لكنّها السلطة...

درجْنا على اتّباع القوي، الأب، الأم، المعلّم، الكاهن، اللّه. وقيل لنا في الأساس إن كلّ من يمتلك السلطة محق: «القوّة دائماً على حق، وعليك الرضوخ لها». وذلك سهل لأنه لا يتطلّب أي ذكاء. بسيط لأنك لن تُحمَّل أبداً المسؤوليّة، ولن يُقال لك أبداً أنك تتحمّل مسؤوليّة ما قد جرى.

يُعلّم، على مرّ سنوات التدريب في كلّ جيوش العالم، أمر واحد فقط، هو الطاعة. فقد وُجد في ألمانيا خلال الحرب العالميّة الثانية أشخاص طيّبون، لكنّهم كانوا رؤساء لمعسكرات اعتقال! كانوا آباء جيّدين، أزواجاً جيّدين، أصدقاء جيّدين.

ما أمكن لأحد أن يتصوّر، وهو يراقبهم مع عائلاتهم ومع أصدقائهم وفي الأندية، أن هؤلاء الناس يقتلون كلّ يوم آلاف السجناء. ولم يشعروا بالذنب على الإطلاق، لأنها مجرّد أوامر تلقّوها من فوق. ذلك ما قضى به تدريبهم كلّه، أن ينفّذوا الأوامر. أصبح الأمر جزءاً من دمائهم ومن عظامهم ومن نخاعهم: عندما تأتي الأوامر فإن الطريقة الوحيدة هي إطاعتها.

الطاعة واحدة من أكبر الجرائم، لأن كل الجرائم الأخرى تتولّد منها. تجرّدك من الذكاء، تجرّدك من الحزم، تجرّدك من المسؤوليّة. تدمّرك كفرد.

هكذا عاش الجنس البشري من البدء حتى اليوم، ولهذا أقول إن الطاعة واحدة من أكبر الجرائم، لأن كل الجرائم الأخرى تتولّد منها. فهي تُجرّدك من الذكاء، تجرّدك من الحزم، تجرّدك من المسؤوليّة. تدمّرك كفرد. تحوّلك إلى إنسان آلي.

لذلك أنا أؤيّد العصيان تأييداً تاماً. لكنّ العصيان ليس فقط *نقيضاً* للطاعة. فالعصيان يسمو على الطاعة وعلى العصيان المزعوم الذي تفسّره القواميس. فما العصيان إلا تأكيد للذكاء: أنا أتحمّل المسؤوليّة، وسأقوم بكل ما يراه قلبي وكياني صائباً. ولن أفعل ما يتناقض مع ذكائي».

تعرّضت طوال حياتي، من طفولتي وحتّى الجامعة، للإدانة على عصياني. وقد أصررت على «أنّني لست عاصياً. فأنا أحاول أن أتصوّر، مستخدماً ذكائي، ما هو الصحيح وما الذي يجب فعله. وأنا أتحمّل كامل المسؤوليّة عنه. وإذا لم يجرِ أمر من الأمور كما يجب، فهذا خطأي. ولا أريد إدانة غيري، لأنه طلب منّي القيام بذلك». لكن صَعُب ذلك على أهلي ومعلّميّ وأساتذتي.

كان ارتداء القلنسوة إلزامياً في مدرستي، ودخلت إلى الثانويّة من دون قلنسَوة. قال الأستاذ على الفور: «ألا تعلم أن القلنسوة إلزاميّة؟».

قلت: «لا يمكن لشيء مثل القلنسوة أن يكون إلزاميّاً. وكيف تكون تغطية رأسك بشيء ما إلزامية؟ الرأس إلزاميّ، لكن القلنسوة لا. وأنا جئت ومعي رأسي؛ وربّما جئت أنت ومعك القلنسوة فحسب».

قال: «تبدو فتى غريباً. فقد كُتب في قانون المدرسة أن ليس بمقدور أي تلميذ دخول المدرسة من دون القلنسوة».

قلت: «يجب إذاً تغيير القانون. فهو مكتوب بأيدٍ بشريّة وليس بيد اللّه؛ والكائنات البشريّة ترتكب الأخطاء».

لم يستطع الأستاذ تصديق الأمر. وقال: «ما خطبك؟ لمَ لا يمكنك الاكتفاء بارتداء القلنسوة؟».

قلت: «المشكلة ليست في القلنسوة؛ إنني أريد أن أعرف لماذا هي إلزاميّة، وأعرف ما هي أسباب فرضها، وما الذي قد يُسفر عنه ارتداؤها؟. وإذا لم تستطع تعليل كل ذلك، فيمكنك اصطحابي إلى المدير لأناقش الأمر معه». فاضطرّ إلى ذلك.

البنغاليّون، في الهند، هم أذكى الناس؛ ولا يرتدون القلنسوة. والبنجابيّون هم الأقل ذكاء، والأشدّ بساطة، ويرتدون العمامة. قلت للمدير: «إذا نظرنا إلى الوضع، فإن البنغاليّين لا يرتدون أيّة قلنسوة وهم أذكى الناس في البلاد، ولا يكتفي البنجابيّون بارتداء القلنسوة، بل يضعون عمامات ضيّقة جدّاً، وهم أقل الناس ذكاء. وإذا كان للأمر أي علاقة بذكائكم، فإنني أفضّل ألاّ أركب هذه المخاطرة».

أنصت المدير إليّ وقال: «الفتى عنيد، لكنّ لما يقوله معنى. لم أفكّر قط في الأمر، وهذا صحيح. يمكننا نزع الصفة الإلزاميّة عن هذا القانون؛ فمن يريد ارتداء القلنسوة فليفعل؛ ولا حاجة بها إلى من لا يريد ارتداءها، لأن لا علاقة لها بالتعلّم».

لم يستطع المعلّم تصديق الأمر. وسألني، ونحن في طريق العودة: «ما الذي فعلته؟».

قلت: «لم أفعل شيئاً. اكتفيتُ بشرح الوضع. وأنا لست غاضباً، وعلى استعداد تام لارتداء القلنسوة. إذا شعرتَ بأنها تعزّز الذكاء فلمَ أكتفي بواحدة؟ يمكنني ارتداء قلنسوتين، ثلاث قلنسوات، الواحدة فوق الأخرى، إذا عزّز ذلك ذكائي ... لستُ غاضباً. لكن عليك أن تثبت قيمة الأمر».

قال لي المعلّم، وأنا لا أزال أذكر كلماته،: «ستواجه المشكلات طوال حياتك. لن تتأقلم مع أي مكان».

قلت: «لا بأس بذلك، لا أريد أن أكون أحمقَ وأتأقلم مع كل مكان. من الجيّد أن يكون المرء غير متأقلم أو 'غير ملائم' ولكن ذكيّاً. وقد جئتُ إلى المدرسة لأتعلّم الذكاء، لأكون غير ملائم بذكاء! أرجوك ألاّ تحاول مرّة أخرى أبداً أن تغيّرني من شخص فرد إلى ترس في آلة».

واختفت القلنسوات بدءاً باليوم التالي؛ وحده الأستاذ جاء مرتدياً واحدة. ونظر إلى الصف وفي أنحاء المدرسة... لأن القانون الجديد دخل حيّز التنفيذ ولم تعد القلنسوات إلزاميّة، وقد جاء جميع الأساتذة الآخرين، وحتى المدير، بلا قلنسوات. وبدا سخيفاً جدّاً. قلت له: «لا يزال هناك متّسع من الوقت. يمكنك خلعها ووضعها في جيبك». وهكذا فعل!

قال: «ذلك صحيح. الجميع ضد القلنسوة... وأنا اكتفيت بطاعة القانون».

تذكّر إذاً أنني عندما أتكلّم عن العصيان لا أعني إبدال العصيان بالطاعة. فلن يجعل ذلك منك شخصاً أفضل. أنا لا أستخدم عبارة *العصيان* إلاّ لأوضح لك أن الأمر متوقّف عليك، وأن عليك أن تكون العامل الحاسم في كل أفعالك في الحياة. ويمدّك ذلك بقوّة عظيمة، لأنّك مهما فعلت، فأنت تفعله بنوع من السند العقلي له.

حسبك أن تعيش بذكاء.

قرّرْ، إذا طُلب منك شيء: هل هو صحيح أو خطأ. عندها يمكنك تفادي كل مشاعر الذنب. وإلاّ فإنّك، في حال عدم تلبيتك الطلب، ستشعر بالذنب؛ وإذا لبّيته فستشعر أيضاً بالذنب. إذا لبّيته ستشعر بأنك خاضع، وبأنّك لست حازماً، وبأنّك لست نفسك. وإذا لم تلبّه، ستشعر من جديد بالذنب، لأنه ربّما كان الأمر الصائب الذي يتوجّب عليك فعله، وأنت لا تفعله.

لا تدعو الحاجة إلى كل هذه الحماقة. كن بسيطاً فحسب. إذا سئلت شيئاً فجاوب بذكاء. ومهما قرّر ذكاؤك، افعله بطريقة أو بأخرى، *لكنّك* مسؤول. وعندها لا تُطرح مسألة الذنب.

إذا لم تشأ القيام بالأمر، فاشرح للشخص المعني السبب الذي يدفعك إلى عدم القيام به. اشرح ذلك من دون غضب، لأن الغضب يُظهرك ضعيفاً، وتبدو وكأنك لا

تمتلك جواباً ذكيّاً. فالغضب هو دوماً إشارة إلى الضعف. اشرح الأمر برمّته، ببساطة وبوضوح؛ وربّما وَجد الشخص الآخر أنّك محقّ، وربّما كان ممتنّاً لك. أو ربّما امتلك الشخص الآخر أسباباً أفضل من أسبابك؛ عندها ستكون شاكراً للشخص الآخر لأنه زاد في وعيك.

استغلّ كلّ فرصة في الحياة لتعزيز ذكائك، ووعيك.

ما نفعله في العادة هو استغلال كلّ فرصة لخلق الجحيم لأنفسنا. أنت وحدك تتألّم، فتجعل الآخرين يتألّمون بسبب ألمك. وعندما يعيش عدد كبير جدّاً من الناس معاً، وعندما يتسبّبون بالألم واحدهم للآخر، يستمر الألم في التزايد. وهكذا يصبح العالم كلّه جحيماً.

يمكن تغيير ذلك على الفور.

الأمر الأساسي الذي يتوجّب فهمه، هو أن لا جنّة من دون ذكاء.

ذكاء البراءة

الطفل ذكاء محض، لأنه لم يتلوّث بعد. الطفل لوحة نظيفة، لم يُكتب عليها شيء. الطفل فراغ محض، صفحة بيضاء.

يشرع المجتمع على الفور في الكتابة على تلك الصفحة، فيخبرك بأنّك مسيحي، كاثوليكي، هندوسي، مسلم، شيوعي. ويتلو عليك البهاغفاد غيتا، أو القرآن، أو الكتاب المقدّس. لا يستطيع المجتمع الانتظار؛ لأنّه يخشى كثيراً من أنه إذا تُرك ذكاء الولد سليماً، فلا يمكن عندئذٍ استعباده بأي طريقة، من أي بنية تسلّطيّة. فهو لن يسيطر ولن يُسيطَر عليه. لن يمتلك أو يُمتلك. سيكون تمرّداً محضاً. ويجب إفساد براءته على الفور. يجب قصّ جناحيه، وإعطاؤه عُكّازين يتّكئ عليهما، فلا يتعلّم أبداً كيف يمشي على قدميه، ويبقى على الدوام في حالة من الاتّكالية.

يعتمد الأولاد في البداية على الأهل، والأهل يستمتعون بذلك كثيراً. وكلّما أمعن الأولاد في اعتمادهم، تملّك الأهل شعور طيّب جدّاً. إذ يصير لحياتهم بعض المعنى. يعرفون أنّهم يساعدون أفراداً جُدُداً جميلين على النمو؛ وأنّهم ليسوا فارغين

من المعنى. يستمتعون بالوكالة بكونهم مبدعين. وهذا ليس إبداعاً حقيقيّاً، لكن يمكنهم على الأقل القول إنهم يفعلون شيئاً، إنّهم منشغلون. ويمكن للقلق المتعلّق بتربية الأولاد أن ينسيهم مشكلاتهم الخاصة. وكلّما أمعن الأولاد في الاعتماد عليهم، شعروا بسعادة أكبر؛ مع أنّهم يواصلون في الظاهر القول إنهم يريدون لأولادهم أن يكونوا مستقلّين، لكنّ ذلك في الظاهر فقط. فالولد المستقلّ فعلاً يؤذي الأهل. لا يحبّون الولد المستقل لأنه لا يحتاج إليهم.

تتمثّل المشكلات الكبرى، التي يواجهها اليوم الجيل الأكبر سنّاً، في أن أولاد العصر الحديث لا يعتمدون عليهم. ومادامو ليسوا اتكاليين فلا يمكنكم فرض الأمور عليهم. لا يمكنكم أن تقولوا لهم ما يفعلون أو ما لا يفعلون، لا يمكنكم أن تكونوا سادتهم. يعاني الجيل القديم كثيراً. وللمرّة الأولى في التاريخ يشعر أبناء جيل كامل بأنهم فارغون تماماً وبلا معنى، لأن وظيفتهم كلّها قد انتهت، وتحطّم فرحهم في تنشئة الأولاد. وباتوا يشعرون في الواقع بالذنب، مخافة أن يكونوا بذلك قد أسهموا في تدمير أولادهم. ومن يدري؟ ربّما كان ما يقومون به ليس هو الصواب.

يدمّر الأهل ذكاء الأولاد، لأن هذا التدمير هو الطريقة الوحيدة لاستعبادهم. وبعد ذلك، يقوم الأساتذة والمدرسة والمعهد والجامعة بمتابعة الأمر نفسه. فما من أحد يريد متمرّداً، والذكاء تمرّد. لا يريد أحد أن يُشكّك به، لا يريد أحد أن يُشكّك في سلطته، والذكاء تشكيك. الذكاء شكّ محض. صحيح أن الثقة ستبرز في يوم من الأيّام من هذا الشكّ المحض. وهي لن تكون ضده، لأنّها لا تظهر إلاّ من خلال الشكّ.

لا تأتي الثقة الحقيقيّة إلاّ من خلال الشكّ والمساءلة والاستفسار. أما الثقة المزيّفة، التي نعرفها بالمعتقد، فتأتي بقتل الشكّ وتدمير المساءلة، من خلال إعطاء الناس الحقائق الجاهزة.

تخرج الثقة من الشكّ، كما يخرج الطفل من رحم الأم. فالشك أمّ الثقة. لا تأتي الثقة الحقيقيّة إلاّ من خلال الشكّ والمساءلة والاستفسار. أما الثقة المزيّفة، التي نعرفها بالمعتقد، فتأتي بقتل الشكّ وتدمير المساءلة، بتدمير كلّ سعي وتقصّ وبحث، من خلال إعطاء الناس الحقائق الجاهزة.

لا يهتم السياسي بذكاء الأولاد، لأن الزعماء ليسوا زعماء إلاّ لأنّ الناس أغبياء. وعندما يكون الناس على هذا القدر من الغباء، سيجدون زعماء أغبياء. والناس فاقدو الذكاء، إلى حدّ أنّهم على استعداد للسقوط في فخّ كل من يمكنه أن يزعم قيادتهم.

يولد الأولاد بذكاء محض، لكنّنا لم نستطع احترام ذلك. فالأولاد هم الأشخاص الأكثر عرضة للاستغلال في العالم، أكثر حتّى من النساء. وعاجلاً أو آجلاً سيحدث تحرير الأولاد بعد حدوث تحرير النساء. لقد استعبد الرجال النساء، واستعبد الرجال والنساء معاً الأولاد. وبما أن الطفل عاجز جدّاً، فإن عليه بطبيعة الحال الاعتماد عليك. ومن الدناءة بمكان أن تستغلّ عجز الولد. لكن الأهل كانوا حتى الآن دنيئين. ولا أقول إنهم كذلك عن قصد أو وعي، بل لأنّهم في حالة شبه لا واعية، وهم لا يدركون ما يفعلون. ولهذا، نجد العالم غارقاً في مثل هذا البؤس، غارقاً في مثل هذه الفوضى. ويواصل كلّ جيل تدمير الجيل التالي عن لاوعي، وعن عدم معرفة.

وهذا هو أول جيل يحاول التخلّص من الفخ، وهذه بداية تاريخ جديد تماماً. بيد أنّ الأولاد أذكياء بصورة مطلقة. وما عليك إلاّ أن تراقبهم، وتنظر في عيونهم، وترى الطريقة التي يتجاوبون فيها.

بدا بابو الصغير مستمتعاً جدّاً، وهو برفقة والده في حديقة الحيوانات. لكن نظرة قلقة علت وجهه وهما ينظران إلى الأسود. سأله والده عن المشكلة؛ فأجاب: «أتساءل، يا أبي... إذا أفلتت الأسود والتهمتك، عن رقم الباص الذي يجب أن أركبه للعودة إلى البيت».

راقب الأولاد فحسب، كن أكثر ملاحظة.

طلب المعلّم من التلاميذ الصغار أن يرسموا القصّة الأحبّ إلى قلوبهم في كتاب العهد القديم. رسم صبيّ صغير رجلاً يقود سيّارة قديمة. وفي المقعد الخلفي راكبان بالكاد يرتديان ثياباً. «هذا رسم جميل»، قال المعلّم؛ «لكن ما القصّة التي تخبرها؟».

بدا أن السؤال قد أدهش الفنّان الصغير. «حسناً»، صاح بدهشة. «ألم يُذكر في العهد القديم أن اللّه قاد آدم وحوّاء إلى خارج الجنّة؟».

لا يحتاج الأمر إلى برهان على ذكائهم! ما عليك إلا أن تنظر من حولك، الأولاد حاضرون في كلّ مكان، وما عليك إلّا أن تراقب.

وهاكم قصّة أخرى سمعتها...

طرح المعلّم، في مدرسة أخرى، الطلب نفسه على التلاميذ، أي أن يرسموا رسوماً يخبرون عبرها قصّة يحبّونها. رسم واحد من التلاميذ طيّارة بدلاً من السيّارة. وللطائرة أربع نوافذ. كان اللّه الآب ينظر إلى الخارج من واحدة من النوافذ، والروح القدس من الأخرى، ويسوع المسيح من الثالثة. لكن المعلّم تحيّر وسأل: «فهمت أمر هؤلاء الثلاثة، لكن من الرابع؟».

قال الولد: «ذلك هو الطيّار بيلاطوس»(*).

لكن ما من أحد يراقب الأولاد؛ بل يعتقد الجميع في الواقع أنهم مصدر للإزعاج. يجب عدم الاستماع إليهم، وعدم رؤيتهم؛ ذلك كان القول الفصل عبر العصور. من يبالي بما يسألون؟ مَن يبالي بما يقولون؟ مَن يستمع؟

عاد ولد إلى المنزل راكضاً، وهو يلهث ويتنفّس بقوّة، وأخبر أمّه، قائلاً: «أصغي إلي: طاردني نمر من المدرسة إلى البيت! وتمكّنت بطريقة ما من النجاة؛ اضطررت إلى الركض بسرعة فائقة!».

قالت الأم: «اسمع، سبق أن قلت لك ملايين المرّات ألاّ تبالغ، ملايين المرّات ألاّ تبالغ! وها أنت تعاود ذلك! وجدتَ نمراً في الشارع؟ أين النمر؟».

(*) في إشارة إلى بيلاطوس البنطي! وقد جرى التلاعب باسمه في اللغة الإنكليزية من Pontius Pilate إلى Pontius the pilot - المترجم.

قال: «يمكنك النظر من النافذة، فهو يقف هناك».

كان كلباً صغيراً!

نظرت الأم، وقالت: «أهذا نمر؟ تعرف تمام المعرفة أنّه كلب! اصعد وصلّ للّه، واطلب منه المغفرة!».

غادر الولد. وعاد بعد بضع دقائق. وقالت الأم: «هل صلّيت؟ هل سألت اللّه؟».

أجاب: «نعم! قلت، 'اغفر لي يا اللّه! أخطأت كلّياً في الاعتقاد أن ذلك الكلب الصغير نمر'. وقال اللّه: 'لا تقلق! فعندما رأيتُه، اعتقدتُ أنا أيضاً أنّه نمر!'».

يمتلك الأولاد ذكاء هائلاً، لكن لم يُسمح لهم بتطويره عبر العصور.

علينا إيجاد نوع جديد من التعليم لا يجري فيه فرض أيّ شيء على الأولاد، بل تجري مساعدتهم على تعزيز ذكائهم الطبيعي المُعطى من اللّه. ويجب عدم حشوهم بالمعلومات التي تكاد في الواقع تكون بلا فائدة. فتسعة وتسعون بالمئة من المعلومات التي نرميها في أذهان الأولاد غبيّة، حمقاء. لكن الطفل لن يتحرّر أبداً من العبء بسبب ذلك الحمل، ذلك الثقل.

عملتُ أستاذاً في الجامعة، وكنت تلميذاً من المدرسة الابتدائيّة إلى الجامعة. وبحسب ملاحظتي الخاصة، فإن تسعة وتسعين بالمئة من المعلومات التي نرمي بها على الأطفال عقيمة للغاية؛ ولا حاجة إليها على الإطلاق. وليست عقيمة فحسب، بل مضرّة أيضاً، مضرّة بالتأكيد.

تتوجّب مساعدة الأولاد أن يكونوا أكثر ابتكاراً، لا أن يُكثروا من التكرار الذي يرتكز عليه تعليمنا الآن بالذات. فنظامنا التربوي بأسره مجهّز للتكرار. وإذا استطاع الولد أن يكرّر بصورة أفضل من الآخرين، فسوف يُعتقد عندها أنّه أكثر ذكاء. وهو في الواقع يمتلك ذاكرة أفضل، وليس ذكاء أفضل. ويكاد يحدث دائماً ألّا يكون

الشخص صاحب الذاكرة القوية جدّاً صاحب ذكاء حادّ، والعكس بالعكس.

تتوجّب مساعدة الأولاد أن يكونوا أكثر ابتكاراً، لا أن يُكثروا من التكرار الذي يرتكز عليه تعليمنا الآن بالذات. فنظامنا التربوي بأسره مجهّز للتكرار.

لم يمتلك ألبرت أينشتاين ذاكرة قوية. كما أنّ نيوتن وأديسون، وكثيرين غيرهما من المخترعين الكبار، كانوا بالفعل ينسون الأشياء.

لكن نظامنا التربوي كلّه يتركّز في الذاكرة وليس في الذكاء. فهو يعمد إلى حشو الذاكرة بالمزيد والمزيد من المعلومات، وجعل الإنسان آلة! فجامعاتنا معامل يُختَزل فيها البشرّ إلى آلات. تُهدر خمسٌ وعشرون سنة، أي ثلث حياتك، في جعلك آلة! ويصعب عندها كثيراً تفكيكك من جديد، وجعلك كائناً بشريّاً.

ذلك هو عملي. تجيئونني بوصفكم آلات، كثيري التشنّج، ملؤكم الذكريات والمعلومات والاطّلاع، وتكونون قد فقدتم كلّ رابط مع قلوبكم وكياناتكم. بيد أن الشدّ بكم نزولاً نحو القلب، ثمّ نحو الكينونة، يغدو مهمّة صعبة بالفعل. لكن الأمر لن يحتاج إلى ذلك في عالم أفضل. فعلى التعليم أن يساعد الناس ليصبحوا أكثر ذكاء، وليس أكثر تكراراً. وهو الآن بالذات تكرار. فأنت تحشر في رأسك كل الهراء الذي يُقال لك، وتعود من ثم لتجترّه في أوراق الامتحان. وكلّما تقيّأت بصورة أفضل نلت علامات أفضل. هناك أمر واحد فقط عليك أن تتذكّره: أن تكون تكراريّاً تماماً: لا تضيف شيئاً ولا تحذف شيئاً، ولا تكون إبداعيّاً ولا تكون مبتكِراً.

يُقتل الابتكار، ويُشاد بالتكرار. ولا يستطيع الذكاء أن ينمو إلا في المُناخ الذي يُشاد فيه بالابتكار.

البراءة تمثّلها طبيعتك تحديداً. لكن ليس عليك أن تصيرها، فأنت هي بالفعل. تولد بريئاً. ثمّ تتراكم الطبقات على براءتك. براءتك أشبه بالمرآة، والتكييف أشبه بطبقات الغبار. ولا يتوجّب تحقيق المرآة، فالمرآة هناك ماثلة بالفعل، أو بالأحرى ماثلة هنا. المرآة لا تضيع، لكنها تختبئ وراء طبقات الغبار.

ليس عليك اتباع طريقة لبلوغ طبيعتك، لأنك لا تستطيع التخلّي عنها، لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان آخر. يستحيل ذلك حتى لو شئته. وهذا هو بالضبط تعريف الطبيعة. تعني الطبيعة الشيء الذي لا يمكن أن تدعه وراءك، الشيء الذي لا يمكن التخلّي عنه. لكن يمكنك تجاهله.

وذلك ما جرى بالضبط. لم تُفقد المرآة لكنّها أُهملت، أُهملت لأنّها لم تعد تعمل كمرآة. ليس بها أي خطب، لكن تغطّيها طبقات الغبار فحسب. وكل ما يحتاج إليه الأمر هو تنظيفها، أي نزع طبقات الغبار تلك.

ليست عمليّة صيرورتك بريئاً عمليّة صيرورة فعلية، بل إنّها عمليّة اكتشاف كينونتك. هي اكتشاف وليست إنجازاً. فهي لا تتوصّل إلى شيء جديد، بل تتوصّل إلى ما كنتَ عليه دائماً. إنها لغة منسيّة.

يحدث في مرات كثيرة أن ترى شخصاً على الطريق، تعرفه، يبدو وجهه مألوفاً. وتتذكّر أيضاً فجأة أنّك تعرف اسمه. تقول: «إنّه على رأس لساني»، ومع ذلك لا تتذكّره. ما الذي يحدث؟ إنه على رأس لسانك، فلمَ لا يمكنك النطق به؟ تعرف أنّك تعرفه، ولا تتمكّن مع ذلك من تذكّره. وكلّما حاولت زاد الأمر صعوبة، لأن بذل الجهد يجعلك أكثر توتّراً. وعندما تتوتّر تكون بعيداً كل البعد عن طبيعتك، بعيداً كل البعد عن ذلك الماثل هناك بالفعل. وعندما تسترخي تكون أكثر قرباً؛ وعندما تسترخي للغاية، سيظهر الاسم من تلقاء نفسه.

وهكذا تحاول بقوّة، لكنّه لا يأتي، فتنسى أمره كلّياً. ثم، وأنت مستلقٍ في حمّامك، أو تعوم في حوض السباحة، ولا تحاول حتّى أن تتذكّر اسم ذلك الرجل، يظهر فجأة كالفقاقيع. فما الذي جرى؟ لم تحاول أن تتذكّر، وكنت مسترخياً. هذا معناه أنك تتّسع وأنت مسترخٍ، وتضيق عندما تتوتّر. كلّما ازددت توتّراً ازددت ضيقاً. ويغدو الممر بينك وبين ما هو في داخلك ضيقاً جدّاً، ولا يغدو أي شيء قادراً أن يعبره، ولو كان اسماً واحداً.

جرت الاكتشافات العلميّة الكبرى بهذه الطريقة الغامضة جدّاً، بطريقة غير علميّة، إذا جاز التعبير.

عملت مدام كوري طوال ثلاثة أعوام على مسألة رياضيّة. وكلّما أمعنت في محاولاتها،

بات الحلّ بعيد المنال. جرّبت كلّ طريقة ممكنة، من دون أن تحقق أي نجاح، أو يحدث أي شيء. وامتلكت في مكان ما شعوراً ضمنيّاً عميقاً بأن «الحلّ موجود. فأنا لا أتصارع مع أمر عبثيّ». واستمرّ هذا الشعور الضمني كلّ الوقت أشبه بتيّار تحتي؛ كما أنّها لم تتمكّن، نتيجة ذلك، من التخلّي عن بذل الجهد. وأخذت تُصاب بالتعب. ثلاثة أعوام أهدرت على مسألة وحيدة. لكنّ شخصاً كان يقول في عمق أعماقها أن «الحلّ ممكن. هذا التمرين ليس عقيماً. تابعي». ومضت في ذلك بعناد، ثابرت. أوقفت كلّ المشروعات الأخرى، وزجّت بنفسها كلّياً في هذه المسألة الواحدة. لكنّها كلّما حاولت مع المسألة تصبح مستحيلة.

وحدث في إحدى الليالي، ما يشبه ما حدث لغوتاما بوذا؛ كانت المشكلة مختلفة بالتأكيد، لكنّ النهج نفسه. فقد كافح بوذا على مدى ستّة أعوام لبلوغ التنوّر، لكنه لم يبلغ شيئاً. ثم تخلّى في إحدى الليالي عن كلّ جهد. وبحلول الفجر، وفيما أوشك آخر النجوم على الغياب، أصبح متنوّراً.

تخلّت مدام كوري في تلك الليلة عن الفكرة، عن المشروع كلّه،ختمت الفصل. «كفى! إهدار ثلاثة أعوام كثير جدّاً على مسألة واحدة». هناك مسائل أخرى تنتظر حلولاً لها. انتهى الأمر في ذهنها، مع أن الإدراك الضمني كان لا يزال ماثلاً كهمسة دائمة. لكنّها تبعته ما يكفي، وقد أزف الوقت. فالمرء لا يمتلك إلا وقتاً محدوداً؛ وثلاثة أعوام كثيرة جدّاً على مسألة واحدة. تخلّت عن الفكرة عمداً. فهي، في ما يتعلّق بها، قد وضعت حدّاً للمشروع برمّته. ومضت إلى النوم على ألاّ تزعجها هذه المسألة بعد الآن.

فوجئت عندما استيقظت في الصباح. ها هو الحلّ مكتوب على قصاصة من الورق على طاولتها، كُتب بخطّ يدها. لم تستطع تصديق عينيها. من قام بذلك؟ الخادم لم يفعل ذلك، فهو لا يعرف شيئاً في علم الرياضيّات. وإذا لم تستطع مدام كوري القيام بذلك على مدى ثلاثة أعوام، فكيف يستطيع الخادم؟ وما من شخص آخر في المنزل. ولم يدخل الخادم في خلال الليل، فالأبواب موصدة من الداخل. نظرتْ عن كثب إلى خط اليد الذي يشبه خطّها.

تذكّرت فجأة حلماً. رأت في الحلم أنها نهضت ومضت إلى الطاولة وكتبت شيئاً... وأخذ الحلم يتّضح شيئاً فشيئاً. وتذكّرت رويداً رويداً ما قد فعلته في الليل. لم يكن ذلك حلماً، بل كان حقيقة. وهذا هو الحل! كافحت بشدّة على مدى ثلاثة أعوام ولم يحل شيء. وفي الليلة التي تخلّت فيها عن المشروع، تحقّق الأمر. فما الذي جرى؟ لقد كانت مسترخية.

ما إن تتخلّى عن المجهود حتى تسترخي، تصبح ليّناً، واسعاً، منفتحاً. كان الحل ماثلاً في داخلها، وطفا على السطح. طفا بعد أن وجد أن الذهن قد كفّ عن التوتّر.

البراءة حاضرة، لكنك أنت الذي نسيها، أُجبرتَ على نسيانها. فالمجتمع ماكر. وقد تعلّم الإنسان على مرّ القرون أنّك لا تستطيع البقاء في هذا المجتمع إلاّ إذا كنت ماكراً؛ وكلّما ازددتَ مكراً غدوت أكثر نجاحاً. تلك هي لعبة السياسة برمّتها: كن ماكراً، كن أكثر مكراً من الآخرين. إنّه صراع دائم وتنافس على من يمكنه أن يكون أشدّ مكراً. فالأكثر مكراً سينجح ويصير قويّاً.

تعلّم الإنسان، بعد قرون من المكر، أمراً واحداً، هو أن الاحتفاظ بالبراءة أمر خطر، لأنّك لن تتمكّن من البقاء. لذلك يحاول الأهل طرد البراءة من أولادهم. حتى أن المهمة البسيطة للأساتذة والمدارس والمعاهد والجامعات تتمثّل في جعلك أشدّ مكراً، أكثر حذاقة. ومع أنّهم يصفون ذلك بالذكاء، فهو ليس ذكاء.

تذكّر أن الذكاء ليس ضدّ البراءة. الذكاء نكهة البراءة، بل أريجها. والمكر ضد البراءة، والمكر والحذاقة ليسا مرادفين للبراءة. لكن الذكاء يتطلّب رحلة باطنيّة عظيمة. ولا يمكن للمدارس ولا للمعاهد ولا للجامعات أن تسهم في ذلك. فالأهل والكهنة والمجتمع جميعهم انبساطيّون extroverted؛ لا يمكنهم مساعدتك على ولوج الباطن. والبوذيون نادرون جدّاً، قليلون ومتباعدون. ولا يتمتّع أي منهم بحظ العثور على بوذا. وحده بوذا يستطيع مساعدتك لتكون شخصاً ذكيّاً، لكنّك لن تعثر على عدد كبير من

تذكّر أن الذكاء ليس ضدّ البراءة. الذكاء نكهة البراءة، بل أريجها. والمكر ضد البراءة.

البوذيين المستعدّين، لأن يصبحوا معلّمين في المدارس الابتدائيّة، ومعلّمين في المدارس الثانويّة وأساتذة جامعيّين؛ يستحيل ذلك.

وهكذا يوجد بديل للذكاء. تذكّر أن المكر بديل للذكاء، بديل سيّئ جدّاً. وليس بديلاً سيّئاً فحسب، بل إنّه أيضاً نقيضه تماماً. الشخص الذكي ليس ماكراً؛ هو بالتأكيد ذكيّ، لكن ذكاءه يحافظ على سلامة براءته. لا يبيعه من أجل أمور دنيويّة. أما الشخص الماكر، فعلى استعداد لبيع روحه مقابل أشياء صغيرة.

تذكّر أن المكر بديل للذكاء، بديل سيّئ جدّاً. وليس بديلاً سيّئاً فحسب، بل إنّه أيضاً نقيضه تماماً.

باع يهوّذا يسوع بثلاثين من الفضّة، ثلاثون من الفضّة فقط. كان بيع شخص مثل يسوع أمراً ممكناً. ربّما اعتقد يهوّذا أنه ذكيّ جدّاً، لكنّه كان ماكراً فحسب. وإذا لم تحب عبارة ماكر يمكنك أن تدعوه حاذقاً؛ هذه مجرّد تسمية جيّدة للشيء نفسه، للشيء البشع نفسه.

يجهّزك المجتمع لتكون ماكراً، كي تتمكّن بالتالي من المنافسة في هذا الصراع على الوجود، الصراع من أجل البقاء. إنها منافسة وحشيّة يسعى كلّ شخص فيها إلى الإمساك بخناق الآخر. فالناس على استعداد للقيام بأي شيء لينجحوا، ليشتهروا، ليتسلّقوا سلّم النجاح، ليحصلوا على اسم وشهرة. وهم على استعداد لاستخدامك جسر عبور. وما لم تكن ماكراً أنت الآخر، فسوف يجري ببساطة استغلالك والتلاعب بك. ولذلك يدرّب المجتمع كل طفل أن يكون ماكراً، طبقات المكر هذه هي براءتك.

لا ينبغي تحقيق البراءة، فهي حاضرة بالفعل. فالمسألة ليست مسألة أن تصير بريئاً، بل إن البراءة هي كينونتك. وما عليك إلاّ أن تكتشفها، أو تعيد اكتشافها. يجب أن تتخلّى عن كلّ ما تعلّمته من الآخرين، وسوف تصبح على الفور بريئاً.

من هنا نشأت خصومتي مع كلّ معرفة مستعارة. لا تستشهد بالكتاب المقدّس، لا تستشهد «بالجيتا». لا تتصرّف كالببغاء. لا تواصل العيش على المعلومات المستعارة. ابدأ بالسعي، وبالبحث عن ذكائك الخاص.

يحتاج الأمر إلى منهج سلبي؛ يجب أن يتحقّق عبر الوسيلة الإنكارية *via negative*. إنها طريقة بوذا. عليك أن تنكر كلّ ما أُعطي لك. عليك أن تقول: «هذا ليس ملكي؛ وبالتالي لا يحق لي أن أطالب به. ربّما كان صحيحاً وربّما لم يكن كذلك. من يدري؟ يقول الآخرون إنّه كذلك؛ لكن لا يسعني أن أوافق أو لا أوافق إلاّ إذا دخل نطاق تجربتي. ولن أصدّق أو لا أصدّق. لن أكون كاثوليكيّاً أو شيوعيّاً، لن أكون هندوسيّاً أو مسلماً. لن أتبع أي إيديولوجيّة». لأنّك، بغض النظر عمّن تتبع، ستجمّع الغبار من حولك. كفّ عن اللحاق.

[...] لا يقضي عملي بتعليمك شيئاً، بل بمساعدتك على اكتشاف نفسك. تخلّ عن كل معرفة. وهذا يؤلم، لأنّك حملت هذه المعرفة لفترة طويلة جدّاً وتباهيت كثيراً بها، وبشهاداتك. وأنا أقول لك، فجأة، تخلّ عن كل ذلك الهراء.

كن بسيطاً كالطفل. عد طفلاً من جديد كما وُلدت، كما أرسلك اللّه إلى هذا العالم. عندها، ستصبح مرآةً تعكس كينونتك. فالبراءة هي الباب إلى الدراية. المعرفة هي الحاجز والبراءة هي الجسر.

عطيّة الحياة

لم يقبلك أهلك ولا أساتذتك ولا جيرانك ولا مجتمعك، كما أنت. بل حاول كل منهم إدخال تحسينات عليك، جعلك أفضل. أخذ الجميع يشيرون إلى العيوب، إلى الأخطاء، إلى الأغلاط، إلى مكامن الضعف، إلى الزلاّت التي يتعرّض لها كلّ كائن بشري. ولم يشدّد أحد على جمالك، أو على ذكائك، أو على عظمتك.

فمجرّد كونك حيّاً عطيّة كبيرة. لكن لم يطلب منك أحد أن تكون شاكراً للوجود. بل على العكس من ذلك، كان الجميع نكدين وشاكين. لو أن كلّ ما يحيط بحياتك، منذ البداية تحديداً، يواصل، بطبيعة الحال، الإشارة إليك على أنّك لست ما يجب أن تكونه، ويواصل مدّك بالمثل العليا التي عليك أن تتبعها وأن تصيرها، لما جرت الإشادة بوجودك الآني *isness*، بل بمستقبلك، إذا أمكنك أن تصبح شخصاً محترَماً، قويّاً، غنيّاً، مفكّراً، شهيراً بصورة من الصورر، وليس مجرّد نكرة.

ولّد التكييف المستمر ضدّك فكرة في داخلك هي الآتية: «أنني لست جيّداً كفاية كما أنا، فهناك أمر ناقص. وعليّ أن أكون في مكان آخر، وليس هنا. ليس هذا المكان الذي يُفترض بي الوجود فيه، بل في مكان أسمى، أكثر قوّة، أكثر سيطرة، أكثر احتراماً، أكثر شهرة بكثير».

أدار عدد كبير من الناس رأسك، وذهنك، في طرائق كثيرة شتّى، بحسب ما يراودهم من أفكار تبيّن لهم كيف يجب أن تكون. ولا يملكون أي نيّات سيّئة حيالك. أحبّك أهلك وأحبّك أساتذتك، وأراد لك مجتمعك أن تكون شخصاً مهمّاً. إن نياتهم طيّبة، لكنّ إدراكهم محدود جدّاً. نسوا أنّك لا تستطيع أن تتدبّر تحويل زهرة المخمليّة إلى وردة، والعكس صحيح.

جلّ ما يمكنك فعله هو مساعدة الوردة على النموّ لتصبح أكبر، أكثر غنى بالألوان وأكثر أريجاً. في وسعك تزويدها بكلّ العناصر اللازمة لتحويل اللون والأريج، من سماد وأرض صالحة وريّ مناسب. لكنّك لا تستطيع أن تجعل غصن الورد ينتج أزهار اللوتس. وإذا أخذت تُدخِل في ذهن غصن الورد فكرة أن «عليك أن تنتج أزهار اللوتس»، وأزهار اللوتس جميلة بالطبع وكبيرة، فأنت تمدّه بالتكييف الخاطئ. ولن يكتفي غصن الورد بعدم إنتاج اللوتس؛ بل إن طاقته كلّها ستُوجّه إلى السبيل الخاطئ، ولن ينتج حتى الورود. فمن أين سيأتي بالطاقة لإنتاج الورود؟ وعندما يتبيّن ألّا وجود لأي لوتس، وأي ورود، فإن من المؤكّد أن تشعر هذه الوردة المسكينة باستمرار أنّها فارغة، محبَطة، مجدبة، عديمة الجدارة.

هذا ما يحدث للبشر: يعمل الناس، بكلّ نيّة طيّبة، على تغيير ذهنك. وفي مجتمع أفضل ومع أشخاص أكثر تفهّماً، لن يحاول أحد تغييرك. وسوف يساعدك الجميع على أن تكون نفسك. وأن يكون المرء نفسه هو أغنى شيء في العالم. وأن تكون نفسك هو كلّ ما تحتاج إليه لتشعر بالرضى، كلّ ما يمنح حياتك معنى واعتباراً. فمجرّد أن تكون نفسك وأن تنمو بحسب طبيعتك فسوف يتحقّق قدرك.

في مجتمع أفضل ومع أشخاص أكثر تفهّماً، لن يحاول أحد تغييرك. وسوف يساعدك الجميع على أن تكون نفسك. وأن يكون المرء نفسه هو أغنى شيء في العالم.

هذا هو الثراء الحقيقي. هذه هي القوّة الفعليّة.

ولو ترعرع كلّ شخص ليكون نفسه، فسوف تجد أن الأرض كلّها ممتلئة بالأشخاص الأقوياء من أصحاب الشكيمة الكبرى والذكاء والإدراك والرضى والفرح بالعودة إلى المنزل.

اكتشاف مفتاح «إيقاف التشغيل»

اصنع مسافة فاصلة بين نفسك وذهنك، ومن ثم راقبه كيف يشتغل، وضع هذه المسافة بينكما. فالمراقبة تنشىء المسافة تلقائيّاً. من هنا يصرّ بوذا أيضاً وأيضاً، على أن تراقبْ. راقب نهاراً وليلاً، وما الذهن إلاّ أداة متاحة لك. يمكنك عندها أن تستخدمه كلّما اقتضت الحاجة، ويمكنك إذا لم تحتج إليه أن توقف تشغيله. وأنت، الآن بالذات، لا تعرف كيف توقف تشغيله؛ فهو يعمل باستمرار. إنه أشبه بمذياع في غرفتك دائر على الدوام، ولا تعرف كيف تطفئه، فتضطّر إلى النوم، وهو دائر، ويأخذ في الصياح بكلّ أنواع الإعلانات، ويبث كل أنواع الأغاني التي سمعتها آلاف المرّات. لكنّك لا تعرف كيف تطفئه. وتشعر طوال اليوم بالتعب، وتريد في مرّات كثيرة التخلّص من ضجيج المذياع، لكنّك لا تستطيع، لأنّك لا تعرف كيف تطفئه. الأمر أشبه بالنوم والأضواء مشتعلة، لأنك لا تعرف كيف تطفئها.

يتذكّر فرويد صديقاً قرويًّا جاء لزيارته وكانت الكهرباء يومها تصل للمرّة الأولى إلى فيينا. اهتمّ فرويد للغاية بزائره، وأخذه إلى الغرفة التي سينام فيها، وتركه متمّنياً له ليلة سعيدة.

شُده القروي لأمر واحد فقط، هو: الكهرباء، واللمبات الكهربائيّة. فهو يعرف كيف يطفئ المصباح وكيف ينفخ على الشمعة لإطفائها، لكن كيف سيفعل مع اللمبة الكهربائيّة؟ جرّب كل ما يعرفه: وقف على كرسيّ ونفخ عليها مرّات عدّة من دون جدوى. تفحّصها من كلّ زاوية؛ لا ليس فيها أي ثقب، لا يوجد شيء.

كيف يمكنه أن يتصوّر وجود مفتاح على الجدار؟ فتخيُّل ذلك أمر مستحيل،

إذ لم يسبق له أن رأى الكهرباء. لكنّه خشي كذلك من الذهاب لسؤال فرويد أو أي شخص آخر، لأنهم سيعتقدون أنّه أحمق... «لا يمكنك حتى إطفاء النور، أيّ نوع من الرجال أنت؟». شعر بالارتباك، وحاول النوم والنور مضاء. ولم يتمكّن من النوم. وعاود مرّات عدّة الوقوف على الكرسي محاولاً من جديد. استمرّ الأمر طوال الليل؛ جافاه النوم بسبب الضوء، الكثير من الضوء، يا له من ضوء ساطع، لم يسبق له أن شاهد مثله. عرف الشموع، لكن لا بدّ وأن اللمبة تشعّ في الغرفة بنور ألف شمعة، بل أكثر. وبدا عند الصباح تعباً للغاية.

سأله فرويد: «يبدو عليك التعب الشديد. ألم تتمكّن من النوم؟».

قال: «لم تعد هناك فائدة من إخفاء الأمر، لأنّني سأمكث هنا ثلاثة أيّام، هذه اللمبة ستقتلني! مجرّد النظر إليها يثير القشعريرة في بدني. فكيف تطفئها؟».

قال فرويد: «أيها الأحمق! لمَ لم تسألني؟».

قال: «شعرت بالحرج، من الحماقة جدّاً السؤال عن مثل هذا الأمر البسيط!».

أخذه فرويد إلى الجدار، ودلّه على المفتاح. جرّبه، أداره وأطفأه، وضحك. وقال: «يا له من شيء بسيط، وقد حاولت الليل كلّه ولم أتمكّن من إيجاده!».

قد يحاول طوال حياته من دون أن يستطيع الربط بين المفتاح والضوء.

هكذا يحدث معك؛ فذهنك يعمل بصورة دائمة. يُقال إن الذهن آلية رائعة جدّاً، فهو يبدأ بالعمل في اللحظة التي تولد فيها ويواصل العمل إلى أن تقف في مواجهة الحضور، فيتوقّف فجأة، يحدث له شيء. وإلا فإنّه يستمر إلى أن تموت. قلّة قليلة جدّاً من الناس يتمكنون من مواجهة الحضور، فتستمر أذهانهم في العمل بلا عراقيل وتبقيهم تعبين للغاية، منهكين ومجهدين وضجرين. وتواصل ترداد الأمر نفسه المرّة بعد المرّة.

لمَ يضجر الناس إلى هذا الحد؟ تذكّر أن الحياة ليست مضجرة. فهي لغز هائل، مفاجأة دائمة، جديدة دوماً، وتجدّد نفسها باستمرار. تظهر الأوراق الجديدة وتتساقط الأوراق القديمة؛ تتفتّح الأزهار الجديدة وتذبل الأزهار القديمة. لكنّك

لا تستطيع رؤية الحياة، لأن ذهنك يصيبك بالضجر الدائم. فيواصل قول الأمور التي سبق أن قالها آلاف المرّات. تبدو تعباً جدّاً لسبب بسيط، هو أنك لا تعرف كيف تطفئه.

الحياة لغز هائل، مفاجأة دائمة، جديدة دوماً، وتجدّد نفسها باستمرار. تظهر الأوراق الجديدة وتتساقط الأوراق القديمة؛ تتفتّح الأزهار الجديدة وتذبل الأزهار القديمة. لكنّك لا تستطيع رؤية الحياة، لأن ذهنك يصيبك بالضجر الدائم. فيواصل قول الأمور التي سبق أن قالها آلاف المرّات. تبدو تعباً جدّاً لسبب بسيط، هو أنك لا تعرف كيف تطفئه.

يجب عدم رمي الذهن، بل وضعه في مكانه. إنّه خادم جميل وسيّد بشع جدّاً. أمسكْ زمامه بيديك. كن السيّد، بأن تصبح أول الأمر منفصلاً عنه. احرص ألّا يكون أنت، دع مسافة بينك وبينه؛ وكلّما زادت المسافة، ازدادت القدرة على إطفائه.

وسوف تصادف معجزة جديدة أخرى تتمثّل في أنّك، عندما تطفئ ذهنك، يصبح أكثر نضارة وذكاء. فكّر فحسب: يبدأ الذهن بالعمل منذ ولادتك ويستمر في العمل إلى أن تموت، وما من أحد يعرف أنه قد يستمرّ في العمل وأنت في القبر، لأن بعض الأمور القليلة تستمر عندها في الحدوث. تواصل الأظفار النمو حتّى وأنت في القبر، وبالتالي فإن شيئاً ما يستمر في العمل. ربما كانت هناك آليّة محلّية، وليس الذهن نفسه. لكن ربما احتوى الجسم على أذهان صغيرة محلّية تدعم الذهن الكبير، أشبه بعملاء للذهن الكبير. ربّما لم يتوصّل هؤلاء العملاء الصغار بعد إلى معرفة أن الفتى الكبير قد مات؛ فيواصلون القيام بالشيء القديم! لا يعرفون شيئاً آخر، ويواصلون تكرار وظيفتهم القديمة. يواصل الشعر النمو، وتواصل الأظفار النمو، وهي مجرّد أذهان صغيرة، أذهان محلّية، أذهان مصغّرة!

عليك أن تضع الذهن في مكانه الصحيح، وألاّ تستخدمه إلاّ عندما تحتاج إليه. تماماً كما تستخدم رجليك عندما تحتاج إليهما. فأنت لا تستخدمهما عندما لا تحتاج إليهما. ولو أنّك جلست على كرسي وواصلت تحريك رجليك إلى أعلى وإلى أسفل،

فسوف يحسب الناس أنّك مجنون. وذلك ما يحدث تماماً في الذهن، وتستمرّ مع ذلك في الاعتقاد بأنّك لست مجنوناً.

يتوصّل الوعي التأمّلي إلى معرفة المفتاح. ويكتفي عندما يريد أن يطفئ الذهن بالقول: «اسكت الآن»، ذلك كلّ ما في الأمر. ويحتفظ الذهن بالهدوء، ويسود صمت عظيم في الداخل. ويستطيع الذهن أيضاً أن يستريح في تلك الأوقات؛ وإلا أصاب التعب كلّ شيء.

كلّ شيء يتعب، كلّ شيء يصاب بالتعب، حتّى المعادن تصاب بالتعب. وذهنك مصنوع من أنسجة دقيقة جدّاً، دقيقة إلى درجة أنك لن تجد في العالم كله ما هو أدقّ منها. تعمل في جمجمتك الصغيرة ملايين الألياف الدقيقة. وهي على درجة كبرى من الدقّة، حيث يبدو شعرك أثخن بمئات آلاف المرّات من الأعصاب العاملة في دماغك. يا لها من ظاهرة دقيقة، لكنّنا لا نعرف كيف نستخدمها. إنها تحتاج إلى الراحة.

لذلك يصبح الشخص التأمّلي أكثر ذكاء، وأكثر سلامة. ويتجلّى فنّ في كلّ ما يفعله. ويتحوّل كلّ ما يلمسه إلى ذهب.

الذهن بركة مع التأمّل، وإلا فإنّه لعنة. أضف التأمّل إلى كينونتك وتختفي اللعنة، وتصير اللعنة بذاتها بركة؛ بركة مقنّعة.

أن تكون بسيطاً

البساطة هي في العيش من دون مثل عليا. المثل العليا تولّد التعقيد؛ فهي تولّد انقساماً في داخلك، وبالتالي التعقيد. وفي اللحظة التي تهمّ فيها أن تصبح شخصاً آخر، تغدو معقّداً. وأن ترضى بنفسك كما أنت، فهذه هي البساطة. المستقبل يجلب التعقيد؛ وأنت بسيط عندما تعيش كلّياً في الحاضر.

لا تعني البساطة أن تعيش حياة الفقر. ذلك غباء مطلق، لأن الشخص الذي يفرض على نفسه حياة الفقر ليس بسيطاً على الإطلاق، بل منافق. فالحاجة إلى

فرض الفقر تعني، في العمق، التوق إلى العكس تماماً؛ وإلا لمَ تستدعي الحاجة فرضه؟ أنت تفرض طابعاً معيّناً على نفسك، لأنك عكسه تماماً.

يريد الغاضب أن يصير رحوماً؛ ويريد الشخص العنيف ألّا يعود عنيفاً. لمَ؟ لأن الشخص الذي يفرض الفقر على نفسه يحاول ببساطة أن يعيش الحياة بحسب الآخرين، وليس بحسب عمق أعماق ذاته، وليس بحسب عفويّته الخاصة. ولا يمكن أبداً للعيش بحسب الآخرين أن يكون بسيطاً على الإطلاق.

أن تعيش بحسب الآخرين يعني أن تعيش مقلّداً. وتكون حياتك مزدوجة: سوف تكون شيئاً في الظاهر ونقيضه تماماً في أعماقك. ووحدها الأعماق تهم، ولا أهمّية للظاهر أبداً. ستكون قدّيساً في الظاهر وخاطئاً في عمق أعماقك. وذلك ما سيشكّل الأمر الحاسم لك، لأنّ اللّه على تماس مع عمقك فقط وليس مع ظاهرك.

الظاهر على تماس مع المجتمع، والوجود على تماس مع العمق. لا يعرف الوجود إلا ما هو أنت، ولا يعرف أبداً ما تدّعي أنّك عليه. لا يعترف الوجود إلّا بأفعالك. قد تدّعي أنّك قدّيس كبير، أنّك مهاتما، لكن الوجود لا يلقي بالاً على ذلك، لأنه لا يولي اهتماماً لكل ما هو مزيّف. كلّ ما هو مزيّف يحدث خارج الوجود الذي لا يعرف إلاّ الحقيقي، أنت الحقيقي.

تعني البساطة أن تكون نفسك، أيّ من كنت، أن تكون في حالة قبول عظمى، من دون هدف، من دون مثال أعلى. فكل المثل العليا هراء، عليك التخلُّص منها كلّها.

تعني البساطة أن تكون نفسك، أيّ من كنت، أن تكون في حالة قبول عظمى، من دون هدف، من دون مثال أعلى. فكل المثل العليا هراء، وعليك التخلُّص منها كلّها.

أن يكون المرء بسيطاً أمر يحتاج إلى شجاعة، لأنه سيكون في تمرّد دائم. يحتاج إلى شجاعة لأنّه لن يتأقلم أبداً مع ما يُسمّى بالمجتمع الفاسد الموجود من حوله. سيكون دائماً دخيلاً. لكنه سيكون بسيطاً، وفي البساطة جمال. ويصير في تناغم تام مع نفسه. ولن يشهد داخله صراعاً، ولا انقساماً.

المثال الأعلى يجلب الشرخ. وكلّما كبر المثال الأعلى ازداد الشرخ اتّساعاً. يعني المثال الأعلى أنّك ستكون يوماً ما في مكان ما في المستقبل، في هذه الحياة أو في حياة أخرى، قدّيساً عظيماً. وقبل أن يحدث ذلك، ستظل خاطئاً. يساعدك ذلك على الاستمرار في الأمل، وفي الاعتقاد الظاهري بأنك ستصير في الغد ما يتوجّب أن تصير عليه. وهكذا تتحمّل يومك. يمكنك تجاهله، لا تحتاج إلى تدوينه، لا تحتاج إلى ملاحظته. فالأمر الحقيقي سيحدث غداً.

لكن الغد لن يأتي أبداً. إنّه دائماً اليوم... دائماً اليوم.

ويواصل الشخص الذي يعيش في المثل العليا إغفال الواقع، لأن الواقع هو الآن وهنا. وأن تكون الآن وتكون هنا هو في أن تكون بسيطاً: أشبه بالأشجار، هنا الآن، أشبه بالغيوم، هنا الآن، أشبه بالطيور، هنا الآن، أشبه ببوذا، هنا الآن. ويحتاج المثال الأعلى إلى المستقبل. والبساطة ليست مثالاً أعلى. وقد صنع البشر من البساطة أيضاً مثالاً أعلى: يا للغباء البشري.

لا يمكن للبساطة أبداً أن تكون مثالاً أعلى، لأن أي مثال أعلى لا يمكن أن يخلق البساطة. فهو يسمّمك ويجعلك معقّداً، يشطرك، ويجعل منك شخصين: أنت ومن تودّ أن تكونه. وستندلع الآن حرب دائمة، حرب أهليّة.

آنذاك سوف تتقاتل مع نفسك، الشخص العنيف الذي يحاول أن يكون غير عنيف، البشع الذي يحاول أن يكون جميلاً، وهكذا دواليك. وعندما تحاول باستمرار، وتسعى أن تصير ما ليس أنت، تتبدّد طاقتك في ذلك النزاع، تأخذ طاقتك في التسرّب. والطاقة بهجة. وأن تمتلك الطاقة يعني أن تكون حيّاً، أن تكون نضراً، أن تكون شاباً.

انظر إلى وجوه الناس كم تبدو باهتة. انظر إلى عيونهم ولن تشعر بأي إشراق، لن تشعر بأي طاقة تنساب منها. بل على العكس ستشعر كما لو أنّها تمتصّك. وبدلاً من أن تفيض بالطاقة، تصبح ثقوباً سوداء: تمتصّك وتستغلّ طاقتك. وستصير، بوجودك مع الناس، أكثر فقراً. ولهذا فإنك، عندما تدخل في حشد وتعود، تشعر بالتعب والإنهاك، تشعر بالإرهاق وتحتاج إلى الراحة. لمَ؟ لمَ تشعر، بعد وجودك في الحشد،

كما لو أنّك فقدت شيئاً؟ أنت تفقد شيئاً بالتأكيد، لأن الحشد مؤلّف من ثقوب سوداء. وكلما زاد عدم ذكاء الحشد، وبات من العامّة، ستشعر بالإرهاق.

لذلك عندما تكون وحيداً، جالساً بصمت وليس بصحبتك أحد، في حالة عظمى من العزوبيّة، وحيداً فحسب، فإنك تمتلئ ويتجدّد شبابك. لذلك يجعلك التأمّل أكثر شباباً، وأكثر حياة، وتبدأ بتقاسم شيء ما مع الوجود. ولا تعود طاقتك متجمّدة: وتبدأ بالتدفّق. أنت في نوع من الرقصة على غرار النجوم. تنبعث فيك أغنية.

لكنّك في الحشد تخسر دوماً. وتكسب دوماً في التأمّل. لمَ؟ ما الذي يحدث في التأمّل؟ تصير في التأمّل بسيطاً: لا يعود المستقبل يشغلك. وهذا ما هو عليه التأمّل: إنّه التخلّي عن الانشغال بالماضي وبالمستقبل، والوجود هنا الآن. وحدها هذه اللحظة حاضرة. وكلّما حدث ذلك، وكلّما وُجدت هذه اللحظة، لحظة مراقبة شروق الشمس، أو النظر إلى غيمة بيضاء تطفو في السماء، أو مجرّد وجودك مع شجرة تناجيها، أو مراقبة عصفور يطير، فإنك تنسى كلّ ما يتعلّق بالماضي وبالمستقبل، وتستحوذ عليك اللحظة الحاضرة. عندها ستشعر بتجدّد شبابك. لمَ؟ لأن الشرخ يختفي، الشرخ الذي خلقته المثل العليا. أنت في تلك اللحظة واحد، متحّد، أنت كلّك معاً.

فإنك تنسى كلّ ما يتعلّق بالماضي وبالمستقبل، وتستحوذ عليك اللحظة الحاضرة. عندها ستشعر بتجدّد شبابك. لمَ؟ لأن الشرخ يختفي، الشرخ الذي خلقته المثل العليا. أنت في تلك اللحظة واحد، متحّد، أنت كلّك معاً.

ليست البساطة مثالاً أعلى؛ لا يمكنك فرض البساطة على نفسك. لذلك لا أقول أبداً أن أشخاصاً، مثل المهاتما غاندي، بسطاء. فهم ليسوا كذلك، ولا يمكنهم أن يكونوا كذلك. البساطة هي مثالهم الأعلى، الذي يحاولون بلوغه. والبساطة هدف بعيد جدّاً في المستقبل، بعيد، وهم يكافحون ويرهقون أنفسهم ويبذلون جهداً عظيماً. وكيف يمكنك خلق البساطة من الجهد؟ تعني البساطة، ببساطة، أن «تكون». وأنت تحاول من خلال الجهد إدخال تحسين على الوجود.

والوجود ممتاز كما هو، ولا يحتاج إلى تحسين. ويواصل القدّيسون المزعومون إدخال تحسين على أنفسهم، تخلّ عن هذا، تخلّ عن ذاك، اكبت هذا، افرض ذاك، هذا ليس جيّداً، ذلك جيّد... جهد متواصل، ويضيعون في هذا الجهد بالذات.

البساطة حالة من عدم الجهد؛ إنها تواضع، ليس التواضع المناقض للغرور، ولا التواضع المناقض للأنا، ولا المناقض للذهن المتكبّر. لا، فالتواضع ليس نقيض الكبرياء. بل التواضع هو غياب الكبرياء. حاول أن ترى الفكرة. فلو أن تواضعك هو ضد كبريائك، وهذا الأنا العائدة إليك، وضد غرورك، لكان ما فعلته مجرّد كبت. وها أنت تصبح فخوراً بتواضعك؛ وستشرع في التباهي به. هذا ما يحدث. انظر إلى الأشخاص المتواضعين المزعومين، فهم يذيعون باستمرار أنهم متواضعون.

لا يعرف الأشخاص المتواضعون فعلاً أنّهم متواضعون؛ فكيف يمكنهم التباهي بذلك؟ كيف يستطيع المتواضع أن يعرف أنّه متواضع؟ الشخص المتواضع لا يعود شخصاً، بل يغدو في حالة من الفناء: الشخص المتواضع انحلّ، ولم يعد الآن إلا حضوراً. فالتواضع حضور، وليس صفة مميّزة للشخصيّة، وليس سمة، بل مجرّد حضور. يشعر الآخرون بك، لكنّك لن تتمكّن من الشعور به بنفسك. وكذلك الأمر مع البساطة.

تعني البساطة العيش من اللحظة إلى اللحظة بطريقة عفويّة، لا بحسب فلسفة معيّنة، لا بحسب الجاينيّة أو البوذيّة أو الهندوسيّة، ولا بحسب أيّة فلسفة. وتخون نفسك كلّما عشت بحسب فلسفة ما، تصبح عدوّ نفسك. تعني البساطة أن تكون على علاقة صداقة وثيقة بنفسك، أن تعيش حياتك من دون أن تتدخّل فيها أيّة فكرة.

يحتاج المرء بالتأكيد إلى الشجاعة، لأنه سيعيش دائماً في حالة من عدم الأمان. والإنسان الذي يعيش مع المثل العليا آمن. يمكن التنبّؤ بتصرّفه؛ ذلك أمانه. يعرف ما الذي سيفعله في الغد. يعرف في حال بروز وضع معيّن أن هذه هي الطريقة للاستجابة له. وهو على يقين دائم. أما الشخص البسيط فلا يعرف شيئاً عن الغد، عن اللحظة التالية، لأنّه لن يتصرّف انطلاقاً من ماضيه. بل سيستجيب انطلاقاً من إدراكه الراهن.

ليس للشخص البسيط «طابع». وحده الشخص المعقّد له طابع، إما جيد، وإما سيّىء ليس هذا موضوعنا. هناك أطباع جيّدة وأطباع سيّئة، لكنّهما كلتيهما معقّدتان. ولا طابع للشخص البسيط، وهو ليس جيّداً ولا سيّئاً، لكنّه يمتلك جمالاً لا يستطيع الأشخاص الجيّدون أو الأشخاص السيّئون الحصول عليه أبداً. وما من اختلاف شديد بين الجيّد والسيّئ. إنهما وجهان لعملة واحدة. فوراء الشخص الجيّد آخر سيّئ، ووراء الشخص السيّئ آخر جيّد.

ستفاجأ لمعرفة أنّ القدّيسين يحلمون دوماً بأنّهم يرتكبون الخطيئة. ولو نظرتَ في أحلام قدّيسيك المزعومين لفوجئت جدّاً. فأي نوع من الأحلام يواصلون مشاهدتها؟ ذلك هو الذهن المكبوت يفور ويطفو في أحلامهم. ويحلم الخطأة دوماً بأنّهم أصبحوا قدّيسين. يبصر الخطأة أجمل الأحلام، لأنهم واظبوا طوال حياتهم على ارتكاب الخطيئة. وقد تعبوا من كلّ تلك الأمور. وها هو الجزء المرفوض يحادثهم في أحلامهم.

الجزء المرفوض يتحدّث إليك في الأحلام، لاوعيك يتحدّث إليك: اللاوعي هو الجزء المرفوض. تذكّر أنك إذا كنت صالحاً في وعيك، وإذا تمنّيت مزايا جيّدة، فسوف تكون سيّئاً [في أحلامك]. كلّ ما رفضته يغدو لاوعيك، والعكس بالعكس.

ليس للشخص البسيط وعي ولاوعي؛ ليس لديه انقسام. إنّه مدرك فحسب. بيته كلّه ممتلئ بالنور. ولا تعرف كينونته بأكملها سوى أمر واحد فقط، هو الإدراك. فهو لم يرفض أي شيء، وبالتالي لم يخلق اللاوعي. وهذا أمر يجب فهمه.

يعتقد سيغموند فرويد وكارل غوستاف يونغ وألفرد أدلر وغيرهم أن الوعي واللاوعي أمران طبيعيّان. وهما ليسا كذلك. فاللاوعي هو نتاج ثانوي للحضارة. كلّما اكتسب الشخص حضارة، كبر لاوعيه، لأن الحضارة تعني الكبت. والكبت يعني أنّك تمنع بضعة أجزاء من كينونتك من الخروج إلى النور، وأنّك تدفعها إلى الظلمة، ترمي بها في قبوك حتى لا تلتقي بها أبداً.

رمى الناس بجنسهم، بغضبهم، بعنفهم في القبو، وأوصدوا الأبواب. لكنّ العنف والجنس والغضب أمور لا يمكن الإقفال عليها. إنها كالأشباح. يمكنها المرور عبر الجدران، وما من طريقة لمنعها. وإذا نجحت في منعها نهاراً فسوف تأتيك ليلاً، ستلازمك في أحلامك.

يحلم الناس بسبب اللاوعي. وكلّما اكتسب المرء حضارة، حلم. اذهب إلى السكّان الأصليين، الناس الطبيعيّين، وستفاجأ مرّة أخرى عندما تعرف أنّهم لا يحلمون كثيراً، بل نادراً جدّاً، مرّة كلّ فترة. تمرّ سنوات ولا يخبرون عن أي حلم. ينامون من دون أحلام، لأنّهم لم يكبتوا شيئاً. فهم يعيشون في شكل طبيعي.

لن يمتلك الشخص العادي اللاوعي، لن يرى الشخص الطبيعي الأحلام، لكن الشخص المعقّد يراها.

ذلك ما يحدث لك. إذا صمْت في نهار ما، تحصل ليلاً على وليمة في أحلامك. الصوم يولّد الوليمة في الحلم. والناس الذين يولمون نهاراً يشرعون في التفكير في الصوم؛ يفكّرون فيه على الدوام. وحدها الدول الغنيّة هي التي تصبح مهتمّة بالصيام. أميركا مهتمّة بالصيام، بالحمية الغذائيّة وبما شابه. لا يمكن للدولة الفقيرة أن تفكّر في الصيام. فالدولة الفقيرة في صيام دائم، تتبع حمية غذائيّة دائمة، وفي حالة مستمرّة من سوء التغذية. وحدهم الأغنياء يفكّرون في الصيام. الجاينيّون في الهند هم الجماعة الأكثر ثراء؛ ويشتمل دينهم على الصيام. والمسلمون هم الأفقر، ويشتمل دينهم على إقامة الولائم. فعندما يحتفل الشخص الفقير بالمناسبة الدينيّة يقيم الولائم. وعندما يحتفل الغني بمناسبته الدينيّة يصوم.

يمكنك رؤية المنطق في ذلك. فنحن نأخذ في التعويض. والحلم تعويضي، يعوّض عن حياتنا في اليقظة. الرجل البسيط لا يحلم، ولا يمتلك الرجل البسيط أي لاوعي.

الإنسان البسيط سيكون بسيطاً. يعيش كل لحظة بلحظتها من دون أي فكرة عن كيفيّة الحياة؛ لا يمتلك أي فلسفة للحياة، بل يثق بذكائه. وما الحاجة إلى امتلاك

فلسفة؟ لمَ يحتاج المرء إلى فلسفة للحياة؟ لتتمكّن من توجيهه. ولو أنّك ذكيّ لما احتجت إلى أي فلسفة حياة. فالذكاء يكفي بذاته، إنه نور لذاته.

لمَ يحتاج المرء إلى فلسفة للحياة؟ لتتمكّن من توجيهه. ولو أنّك ذكيّ لما احتجت إلى أي فلسفة حياة، فالذكاء يكفي بذاته، إنّه نور لذاته.

الضرير يطلب التوجيه: «أين الباب؟ أيّ اتجاه عليّ أن أسلك؟ أين المنعطف؟». وحده الضرير يجهّز نفسه قبل القيام بأيّة حركة. الإنسان ذو العينين السليمتين يتحرّك لأنه يستطيع أن يبصر. سيعرف عندما يواجه الباب، وسيعرف عندما يبلغ المنعطف. يمكنه الوثوق بعينيه.

وتلك هي الحالة أيضاً مع العالم الباطني. ثق بذكائك، ولا تثق بفلسفات الحياة؛ وإلا فإنك ستستمر غبيّاً. ظلّ القسم الأكبر من البشرية بلا ذكاء، لأنهم وثقوا بفلسفات الحياة المسيحيّة، والهندوسيّة، والإسلام.

هناك، مرّة أخرى، أمر ذو أهمية كبيرة جدّاً يجب تذكّره، وهو الآتي: يولد كلّ طفل ذكيّاً. فالذكاء ليس أمراً تمتلكه فئة، ولا تمتلكه فئة أخرى. الذكاء هو أريج الحياة نفسها. إنه في الحياة. إذا كنتَ حيّاً فأنت ذكي. إلا أنّك إذا لم تثق به، فسوف يشرع شيئاً فشيئاً في الاختفاء من حياتك. إذا لم تستخدم ساقيك تخسر القدرة على الركض. إذا لم تستخدم عينيك على مدى ثلاث سنوات، وتواصل عصبهما تصبح أعمى. لا يمكنك إبقاء حواسّك حيّة، إلا إذا واصلت استخدامها.

الذكاء ظاهرة طبيعيّة؛ يولد كلّ طفل ذكيّاً. وتعيش قلّة قليلة جدّاً من الناس بذكاء، وقلّة قليلة جدّاً من الناس تموت بذكاء. ويواصل ٩٩,٩٪ من الناس، طوال حياتهم، أغبياء؛ لكنهم لم يكونوا منذ البداية فاقدين للذكاء. فما الذي يجري؟ أنّهم لا يستخدمون ذكاءهم أبداً. يثقون وهم أولاد صغار بأهاليهم وبتوجيهاتهم.

ولو أنّ الأهل، في عالم أفضل، يحبّون أولادهم فعلاً، لعلّموهم أن يثقوا بذكائهم. في العالم الأفضل سوف يساعد الأهل أولادهم، في أبكر وقت ممكن، أن يستقلّوا، أن يعتمدوا على أنفسهم.

وعلى [الأولاد] من بعدها أن يثقوا بمعلّميهم في المدرسة؛ ثم بأساتذتهم في

المعهد والجامعة. وما إن ينقضي ثلث حياتهم حتى يكونوا قد تعلّموا الثقة بغيرهم: وهكذا يُمنع ذكاؤهم من العمل.

انظر إلى الأولاد الصغار، كم أنّهم أذكياء وتدبّ فيهم الحياة، كم أنّهم نضرون، كم أنهم على استعداد هائل للتعلّم. وانظر إلى الأشخاص الأكبر سنّاً كم أنّهم بليدون، تافهون وليس لديهم استعداد لتعلّم أي شيء، يتمسّكون بكل ما يعرفونه، يتمسّكون بالمعلوم، وغير مستعدّين أبداً للذهاب في أيّة مغامرة.

في العالم الأفضل، يُترك الولد، في أقرب فرصة ممكنة، ليأخذ الأمور على عاتقه. ويجب أن يتركّز جهد الأهل كلّه على جعل الولد يستخدم ذكاءه. ويجب أن ينصبّ الجهد كلّه، إذا كان ثمة تربية وليس سوء تربية، على إعادة رمي الولد المرّة تلو المرّة في ذكائه الخاص، ليتمكّن من العمل، ويتمكّن بالتالي من استخدامه. قد لا يكون على هذا القدر من الفاعليّة في البداية، ذلك صحيح. فربّما تمكّن التلميذ من إعطاء جوابه الخاص، لكنّه لن يكون على قدر صحّة إجابات المعلّم؛ ليس هذا ما يعنينا. قد لا يكون جواب التلميذ صائباً تماماً، وقد لا يتناسب مع أجوبة الكتب، لكنه سيكون جواباً ذكيّاً وذلك هو جوهر المسألة.

راقب الأولاد وستُفاجأ باستمرار. لكن ما نفعله هو أننا نبدأ بتدمير ذكائهم، لأننا مهتمّون أكثر من اللازم بالجواب الصحيح، وليس بالجواب الذكي. وهذا اهتمام خاطئ. دع الجواب يكن ذكيّاً، مبتكَراً بعض الشيء، جواب الولد نفسه. لا تكلّف نفسك في شأن الجواب الصحيح، لا تكن على هذا القدر من الاستعجال؛ فالصحيح سيأتي وحده. دع الولد يبحث عنه، دعه يصادفه وحده. لمَ نحن على هذا القدر من الاستعجال؟

نحن نهمل نموّ الذكاء عند الولد؛ ونزوّده بالجواب الصحيح. فكّر فقط، فالعمليّة برمّتها هي إبعاد الولد عن إيجاد الجواب بنفسه. نحن نعطيه الجواب. ولا يحتاج الذكاء إلى النمو عندما تُعطى الأجوبة من الخارج، لأنّ الذكاء لا ينمو إلاّ عندما يُضطر الولد إلى إيجاد الجواب بنفسه.

نحن مهووسون كثيراً بفكرة الصحيح. ويحذَّر من ارتكاب أي خطأ. ولمَ لا؟

فالشخص الذي لا يرتكب أي خطأ لا ينمو أبداً. يحتاج النمو إلى أن تضلّ أحياناً، أن تشرع في اللهو، في ارتكاب الحماقات، أن تعثر على أمور غريبة، ولو أنّها خاطئة. عليك أن تصل إلى الصحيح بجهودك الخاصة، بنموّك الخاص؛ وعندها يتشكّل الذكاء.

يحتاج النمو إلى أن تضلّ أحياناً، أن تشرع في اللهو، في ارتكاب الحماقات، أن تعثر على أمور غريبة، ولو أنّها خاطئة. عليك أن تصل إلى الصحيح بجهودك الخاصة، بنموّك الخاص؛ وعندها يتشكّل الذكاء.

أن يكون المرء بسيطاً يعني أن يكون ذكيّاً. البساطة هي الذكاء، هي الحياة من دون مثل عليا، من دون مرشدين، من دون خرائط، هي العيش كلّ لحظة بلحظتها من دون أي ضمان.

اهتمامنا بالصحيح، وخوفنا من الخطأ، ليسا إلاّ خوفنا من غير المأمون. يجعلنا الصحيح آمنين، ويرمينا الخطأ خارج الأمان، لكن الحياة هي انعدام الأمن. لا أمان في أي مكان. ربّما كان لديك رصيد مصرفي، لكن ثمة احتمالاً أن يفلّس المصرف في أي يوم. ربّما حظيت بأمان حصولك على زوج أو زوجة، لكنّ يمكن أن تتركك الزوجة في أي لحظة، قد تقع في الحب، أو أن الزوج قد يموت.

الحياة غير مأمونة. والأمان ليس إلاّ وهماً نخلقه من حولنا، وهماً مريحاً. ونقتل ذكاءنا بسبب هذا الوهم المريح. على الرجل الذي يريد العيش ببساطة أن يعيش في عدم الأمان، عليه أن يقبل واقع أنّه ما من شيء آمن ومؤكّد، وأننا في رحلة مجهولة، وأن ما من أحد متأكّد إلى أين نذهب، أو من أين جئنا.

لا يمتلك أحد في الواقع، باستثناء الأغبياء، وهم اليقين. فكلّما ازددتَ ذكاء غدوت أقل يقيناً؛ أكثر تردّداً، لأن الحياة فسيحة. الحياة شاسعة، لا تُقاس، غامضة. فكيف يمكنك أن تتيقّن؟

الحياة في عدم اليقين، في عدم الأمان، الحياة بساطة. أن تعيش الحياة بلا مثل عليا، من دون طابع، حياة ليست متجذّرة في الماضي ولا يحفّزها المستقبل، لهي حياة هنا والآن تماماً.

نور لذاتك

كانت آخر كلمات غوتاما بوذا على الأرض، هي الآتية: *كن نوراً لذاتك*. لا تتبع الآخرين، لا تقلّد، لأنّ التقليد والتبعيّة يولّدان الغباء. تولد ولديك إمكانيّة ضخمة من الذكاء. تولد مع نور في داخلك. أنصت إلى الصوت الساكن، الصغير في داخلك وهو سيرشدك. لا أحد آخر يمكنه أن يرشدك، أن يشكّل نموذجاً لحياتك، لأنّك فريد من نوعك. لم يسبق قط أن وُجد مَن هو شبيهك تماماً، ولن يشبهك من جديد أحد تماماً. هذا مجدك، عظمتك، بأن عدم استبدالك أمر محسوم؛ وبأنك أنت نفسك وليس أي شخص آخر.

الشخص الذي يتبع الآخرين يصبح خاطئاً، مزيّفاً، آليّاً. في وسعه أن يكون قدّيساً كبيراً في عيون الآخرين، لكنّه في عمق أعماقه مجرّد كائن غير ذكي ولا شيء غيره. قد يحظى بشخصية قابلة جدّاً للاحترام، لكن ذلك في الظاهر فقط، ولا يبلغ حتى عمق البشرة. حكّه قليلاً، وستُفاجأ أنه في الداخل شخص مختلف تماماً، عكس الظاهر تماماً.

يمكن، من خلال اتّباع الآخرين، تنمية شخصيّة جميلة، لكنّك لا تستطيع الحصول على وعي جميل، وما لم تحصل على وعي جميل، فلن تصير أبداً حرّاً.

يمكن، من خلال اتّباع الآخرين، تنمية شخصيّة جميلة، لكنّك لا تستطيع الحصول على وعي جميل. وما لم تحصل على وعي جميل، فلن تصير أبداً حرّاً. يمكنك مواصلة تغيير سجونك، يمكنك الاستمرار في تغيير عبوديّتك، رقّك. يمكنك أن تكون هندوسيّاً أو مسلماً أو مسيحيّاً أو جاينيّاً، لكن ذلك لن يساعدك على شيء. فأن تكون جاينيّاً يعني أن تتبع ماهافيرا مثالاً يُحتذى. لكن لا يوجد من هو مثل ماهافيرا، ولن يوجد أبداً. وأنت باتباعك ماهافيرا ستصبح هويّة مزيّفة. ستفقد كلّ واقع، وتخسر كلّ صدق. وستكون غير صادق مع نفسك. تغدو اصطناعيّاً، غير طبيعي. وأن تكون اصطناعيّاً، أن تكون غير طبيعي، فهذه طريق التافه، الغبي، الأحمق.

يعرّف بوذا الحكمة بأنها العيش في ضوء وعيك الخاص. ويعرّف الحماقة على أنها اتباع الآخرين، تقليدهم، أن تصبح ظلّ شخص آخر.

المعلّم الحقيقي يخلق معلّمين وليس أتباعاً. المعلّم الحقيقي يعيد رميك إلى داخل ذاتك. يتركّز جهده كلّه في جعلك مستقلاً عنه، لأنك كنت على مدى قرون تابعاً، ولم يؤدّ بك ذلك إلى أي مكان. وتواصل التعثّر في ليل الروح الكالح.

وحده نورك الداخلي يقدر أن يصير شروق الشمس. المعلّم المزيّف يقنعك باتباعه، بتقليده، بأن تكون مجرّد نسخة كربونيّة عنه. ولن يسمح لك المعلّم الحقيقي بأن تكون نسخة كربونيّة، بل يريدك أن تكون النسخة الأصليّة. إنّه يحبّك! فكيف يجعلك مقلّداً؟ لديه عطف عليك، ويودّك أن تكون حرّاً تماماً، حرّاً من كل تبعيّة خارجيّة.

لكن الكائن البشري العادي لا يريد أن يكون حرّاً. يريد أن يكون تابعاً. يريد لشخص آخر أن يقوده. لمَ؟ لأنّه سيتمكّن عندها من الإلقاء بالمسؤوليّة كلّها على عاتق شخص آخر. وكلّما زادت المسؤوليّة التي تنقلها منك إلى عاتق شخص آخر، تقلّصت إمكانية أن تصير أبداً ذكيّاً. فالمسؤوليّة، مع ما تفرضه من تحدّ، هي التي تولّد الحكمة.

على المرء أن يقبل الحياة بكل مشكلاتها؛ وأن يعبر الحياة من دون حماية؛ وأن يسعى ويبحث عن طريقه الخاصة. الحياة فرصة، تحدّ، للعثور على ذاتك. لكن الأحمق لا يريد سلوك الطريق الصعب، الأحمق يختار الطريق المختصر. يقول لنفسه: «إن بوذا قد نجح في بلوغ المرحلة العُليا، فلمَ أزعج نفسي؟ سأكتفي بمراقبة سلوكه وأقلّده. يسوع بلغ المرحلة العُليا، فلمَ أبحث وأسعى؟ يمكنني ببساطة أن أغدو ظلاً ليسوع. يمكنني أن أكتفي بأن أتبعه أينما يذهب».

على المرء أن يقبل الحياة بكل مشكلاتها؛ وأن يعبر الحياة من دون حماية؛ وأن يسعى ويبحث عن طريقه الخاصة. الحياة فرصة، تحدّ، للعثور على ذاتك.

لكن، كيف يمكنك باتّباع شخص آخر أن تغدو ذكيّاً؟ لن تدع أي فرصة لذكائك

كي يتفجّر. يحتاج ذكاؤك، ليبرز، إلى حياة تحدٍّ، إلى حياة مغامرة، إلى حياة تعرف كيف تخاطر وكيف تسير إلى المجهول. وحده الذكاء يمكنه إنقاذك، وما من شخص آخر. تذكّر أن ذكاءك الخاص ووعيك الخاص يمكنهما أن يصبحا النيرفانا الخاصة بك.

كن نوراً لذاتك تغدو حكيماً؛ دع الآخرين يصبحوا قادتك، مرشديك، وستبقى غبيّاً، وستستمر في إضاعة كل كنوز الحياة، التي كانت لك.

أعراض، نقاط انطلاق وأحجار عثرة

أجوبة عن أسئلة

هل تستطيع الحواسيب أن تستأثر بعمل الذكاء البشري؟

قد يفتقر السؤال إلى الجدّية، لكنّه واحد من أكثر الأسئلة الجدّية الممكنة. الأمر الأوّل الذي يجب تذكّره هو أن ذلك سوف يحدث. وليس ثمة إمكانيّة لتفاديه؛ ولا تدعو أي حاجة إلى تفاديه. وربّما كنت الوحيد في العالم الذي يدعم دعماً مطلقاً استئثار العقول الآلية بعمل الذكاء البشري. وأسباب دعمي مثل ذلك الأمر الغريب واضحة جدّاً.

أوّلاً، إنّ ما نطلق عليه اسم الذهن البشري هو في حدّ ذاته حاسوب بيولوجي. ومجرّد ولادته معك لا يشكّل الكثير من الفارق. ويمكن زرع حاسوب أفضل في دماغك، أكثر فاعليّة وذكاء وشموليّة.

هناك على الدوام أشخاص يخافون من كلّ ما هو جديد. وقد عارضت الأديان والكنائس بشدّة كلّ ما هو جديد، لأن من شأن كلّ جديد أن يغيّر بنية الحياة الإنسانيّة بكاملها. ويمكن للحاسوب، على سبيل المثال، أن يغيّر الغباء الذي أظهره الإنسان على مرّ التاريخ كلّه. ولا أعتقد أن الحواسيب ستحبّذ خلق الحروب، أو أن الحواسيب تستغل الناس، أو تميّز بين الأسود والأبيض، وبين الرجل والمرأة.

أضف إلى ذلك أنّك أنت السيّد دوماً وليس الحاسوب. وما الحاسوب إلا أداة رائعة تمنحك إمكانات ضخمة لا تتوفّر لك بيولوجيّاً. ويمكنك القيام بأمور لم يحلم بها الإنسان. وفي وسع الحاسوب أن يتفوّق ألف مرّة على ألبرت أينشتاين. ويستطيع، بطبيعة الحال، إنتاج علوم أكثر أساسيّة، وأكثر واقعيّة، لا تتغيّر في كل يوم، لأن الاكتشافات الجديدة تحدث؛ فتنتهي صلاحيّة الاكتشافات القديمة. يمكن للحاسوب بلوغ قلب الواقع بالذات.

يستطيع أن يكشف لك كل ما تريده. إنه أداة في يديك. وهو ليس خطراً.

وبما أنه سيقوم بكل العمل الفكري والذهني، يُترك لكم ببساطة كلّية أن تسترخوا في التأمّل؛ لكن هذه الإمكانية التي أخبركم عنها لم يرها أيٌّ منكم. يمكنك وضع الحاسوب إلى جانبك؛ وهو يقوم بكلّ عمليّة التفكير؛ فلا تحتاج إلى المضي في الثرثرة من دون داع. والحاسوب ليس مسيحيّاً، ولا مسلماً؛ بل هو مجرّد قطعة آليّة اخترعها الوعي الإنساني. وهو يستطيع في المقابل مساعدة الوعي الإنساني على بلوغ أعلى إمكاناته.

إلا أن كلّ جديد سيواجه بالمعارضة، لأنه سيؤدّي إلى انتهاء صلاحيّة القديم. وستقفل المعامل القديمة، والصناعات القديمة. هناك الكثير من الاختراعات التي لا تُسوَّق أبداً في العالم، لأن الأشخاص الذين ستتأثّر أعمالهم بها يشترون براءات اختراعها. ولا يمتلك العالِم المال لتنفيذ اختراعه.

هناك مئات الاختراعات التي تساعد البشريّة لتكون أكثر ارتياحاً، أكثر فرحاً، لتمتلك ثياباً أفضل وطعاماً أفضل. لكنّها لن تبصر النور أبداً بسبب أولئك الذين سيفلسون لو بلغت تلك الأمور الجديدة السوق. والأشياء الجديدة تولّد بطبيعة الحال الخوف.

بيد أن الروبوتات تدير الآن الكثير من المعامل. فهي لا تتعب أبداً، ولا تأوي أبداً إلى النوم؛ لا تطلب أجراً أو علاوة، لا تنشئ النقابات ولا تُضرب. إنها ألطف الناس الذين تستطيع العثور عليهم. وهي تعمل أربعة وعشرين ساعة يوماً بعد يوم. فاعليّتها ممتازة، مئة في المئة. لكن تحملُ خطر أن يفقد الناس وظائفهم. عندها

سيعمد هؤلاء العاطلون عن العمل إلى افتعال المشكلات، ويقولون إنهم: لا يريدون الروبوتات. لكنّني أؤيد الروبوتات تأييداً تاماً. على الجميع أن يصبحوا عاطلين عن العمل، ويتلقّوا أجوراً على كونهم عاطلين عن العمل. الروبوتات تقوم بالعمل، وأنت تحصل على الأجر. وتصير الحياة فرحاً محضاً.

يمكنك آنذاك أن تتأمّل، أن ترقص، تغنّي، تقوم برحلات عالميّة. فالمشكلة تظهر لأننا لا نستطيع التفكير في الحل. والحل بسيط. تلقّيتَ أجراً لأنّك كنت تنتج. وها هو الروبوت ينتج أكثر، وبفاعلية أكبر كثيراً، ولا يتقاضى أجراً. ولا تدعو الحاجة إلى بقائك عاطلاً عن العمل، جائعاً وفقيراً. وفي ذلك عمليّة حسابيّة بسيطة جدّاً: يجب أن تتلقّى أجراً، أجراً أكبر، لأنّك أخليت المكان لروبوت ينتج مئات المرّات أكثر. وبالتالي لن تقع الخسارة إذا ضوعف مُرتَّبك.

وإذا افترضنا أن العالم كلّه بات عاطلاً عن العمل، وامتلك ما يكفي من المال للاستمتاع، فهل تعتقد أن هناك من سيلتحق بالجيش؟ سينضم الناس إلى الكرنفالات والسيرك... وستقام كلّ أنواع الاحتفالات، وسوف تنتفي الحاجة إلى الحرب. وحتّى لو دعت الضرورة المطلقة إلى الحرب، فالروبوتات موجودة، دعها تحارب. ولن ينتصر أحد. فالطرفان روبوتات: لن يُقتَل أحد. وهي ستعود في كل يوم ينقصها بعض القطع؛ أصلحها وأعد إرسالها. ويمكن حتى الحرب أن تصبح فرحاً عظيماً، لن تتعلّق المسألة بالهزيمة أو بالانتصار.

وإذا افترضنا أن العالم كلّه صار عاطلاً من العمل، وامتلك ما يكفي من المال للاستمتاع، فهل تعتقد أن هناك من سيلتحق بالجيش؟ سينضم الناس إلى الكرنفالات والسيرك... وستقام كلّ أنواع الاحتفالات، وسوف تنتفي الحاجة إلى الحرب.

لكنّ البشر يخافون، لأنهم لا يستطيعون تصوّر عالم لا يعاني فيه الناس. أنت تخشى من أن الحواسيب ستحتل مكان الذكاء. وهي ستكون متفوّقة جدّاً في الذكاء، لكن عليك أن تتذكّر أمراً واحداً: تلك الحواسيب طوع يديك. أنت لست طوع أيديها، وبالتالي ليس ثمة مشكلة.

عشتَ حتى الآن بحسب الذاكرة، وهي عبء غير ضروري تحمله في رأسك. خمسة وعشرون عاماً من التدريس في المدارس والمعاهد والجامعات: دكتوراه في الفلسفة، دكتوراه في الآداب... ما الذي تفعله؟ أنت تخلق حاسوباً، لكن بطريقة قديمة منتهية الصلاحية، بإجبار الأولاد الصغار على الاستظهار. ولا حاجة إلى ذلك. إذ يستطيع الحاسوب أن يقوم بكل شيء، ولا يحتاج إلاّ إلى تزويده بالمعلومات.

يمكنك أن تشتري حاسوباً يعرف كلّ شيء عن علم الطب. ولا تحتاج إلى ارتياد معهد طبّي؛ ما عليك إلاّ أن تسأل الحاسوب فتجد الجواب على الفور. ولا يمكن الركون بهذا القدر إلى ذاكرتك. بمقدورك دوماً تزويد الحاسوب بذاكرة جديدة، لأن الاكتشافات الجديدة تحدث في كل يوم. يمكن وصل الحاسوب بالحاسوب الرئيسي للجامعة، فتجري، حتى من دون أن تزعج نفسك، تغذية حاسوبك على الفور بكل اكتشاف جديد يتعلّق بموضوعك. فالحاسوب ينتظر أن تطرح استفسارك، ويخبرك بما تريد معرفته.

في وسعك الحصول على حاسوب متعدّد الأبعاد يحتوي على كل أنواع الذاكرة، أو على حاسوب أحادي البعد يحتوي فقط على التاريخ، كل تاريخ الجنس البشري. ولا يمكنك الآن امتلاك تاريخ الجنس البشري كلّه. فهل تعرف التاريخ الذي تزوّج فيه سقراط من زنتيب؟ في وسع الحاسوب إخبارك بذلك على الفور. ذلك التاريخ السيّئ الطالع... ولطالما راودني الشك بأن سقراط وافق بهذه السهولة الكبيرة على تجرّع السم بسبب زوجته. وبما أن الحياة على هذا القدر من العذاب المبرح، فلا يمكن الموت أن يكون أكثر سوءاً.

كم تستطيع أن تحفظ؟ إن ذاكرتك محدودة. لكن في وسع الحاسوب أن يحفظ مقادير من الأمور تكاد تكون غير محدودة. وهناك المزيد الأكثر من الإمكانات: يمكن أن ينضم حاسوب إلى حاسوب آخر، ويتمكّن من تصوّر اختراعات جديدة، أدوية جديدة، طرائق صحّية جديدة، سبل جديدة للحياة.

يجب عدم اعتبار الحواسيب وحوشاً. إنها نعمة كبرى. وما فعله عقل الإنسان صغير جدّاً. وما إن يتولّى الحاسوب الأمور، حتى يغدو ممكناً القيام بالكثير، حيث

لا تعود الحاجة تدعو أن يجوع أحد، أو أن يعيش في الفقر، أو أن يكون لصّاً، أو قاضياً، لأنّهم جميعهم ينتمون إلى المهن نفسها، القضاة واللصوص، المجرمون والمشرّعون. ولا حاجة أن يكون هناك فقراء وأثرياء. بمقدور الجميع أن يكونوا ميسورين.

لكن، من أين تأتي حكومة تسمح بحدوث ذلك. لن يسمح أي دين بحدوث ذلك، لأنه يخالف عقائده. يؤمن الهندوس بأن عليك أن تعاني لأنك ارتكبت أعمالاً شرّيرة في حياتك السابقة. وما من أحد يعرف شيئاً عن الحياة السابقة. لا يستطيعون قبول اختراع يمكنه القضاء على البؤس والفقر والمرض، وإلا فماذا سيحل بنظريّة التقمّص، والثواب والعقاب، والأفعال الصالحة والسيّئة؟ سوف تفقد العقيدة الهندوسيّة برمّتها معناها.

تخرّج شاب في الجامعة بإجازة في الطب. وكان والده العجوز ينتظره، وقد تعب من العمل طوال حياته. فثلاثة من أبنائه يدرسون في معهد الطب، وتمنى لو أن واحدهم يعود على الأقل ليحل محلّه ويساعد الاثنين الآخرين. قال الشاب على الفور: «لا حاجة بك إلى القلق. ما عليك إلاّ أن ترتاح وتسترخي، وسأتكفّل بالأمر».

وافى أباه في اليوم الثالث، وقال: «أبي، لقد شفيت المرأة التي كنت تعالجها على مدى ثلاثين عاماً».

قال الأب: «يا لك من غبي! تلك هي المرأة التي دفعت عنك وعن شقيقيك. فأنا أبقيتها على هذه الحالة. إنّها على درجة كبيرة جدّاً من الثراء تمكّنها من تحمُّل تكلفة مرضها. فهي ليست فقيرة».

من الخطر جدّاً أن يكون المرء غنيّاً ومريضاً. وأن يكون المرء فقيراً ومريضاً ليس بالأمر الخطير جدّاً. ذلك أنه سيُعالج في فترة قصيرة جدّاً، لأنه لا يستطيع دفع الكثير.

بل إنه، على العكس من ذلك، قد يسأل الطبيب: «ماذا عن الدّواء؟ ماذا عن الطعام الذي وصفته؟ لا أملك أي مال». وسوف يفكّر الطبيب، ويقول: «من الأفضل شفاؤه والتخلّص منه». لكن عندما يمرض الغني، فسوف يشكّل معضلة مهنيّة غريبة في ذهن الطبيب: شفاؤه أو تركه معلّقاً، لأنّه كلّما بقي معلّقاً، حصل الطبيب على مزيد من المال. ولن يحصل عليه، إذا شفاه.

ولو تمكّنت الحواسيب من الأمر، فإن كثيراً من المهن سوف تتأثّر. وهذه المهن هي التي ستحول دون ذلك؛ سوف تخرج بألف عذر وعذر: لم يخلق اللّه أي حاسوب، الحواسيب خطرة، لأنها ستسلبك كل ذكائك.

ما الذي تفعله بذكائك سوى البؤس والغيرة؟ الحواسيب، على أقل تقدير، لن تُصاب بالغيرة، ولن تبتئس. ما الذي تفعله بذكائك سوى الدمار، وكلّ أنواع الحروب، وكلّ أنواع العنف.

ما الذي تفعله بذكائك سوى البؤس والغيرة؟ الحواسيب، على أقل تقدير، لن تُصاب بالغيرة، ولن تبتئس.

تستطيع الحواسيب أن تمنحك عطلة دائمة على مدى حياتك كلّها. يمكنك الاسترخاء. يتوجّب عليك أن تتعلّم كيف تسترخي، لأنّ الجميع قد أدمنوا العمل. فقد توجّب عليك طوال آلاف السنين العمل، والعمل، والكدح في العمل! سوف تخالف الحواسيب كل تكييفك المتعلّق بالعمل. ويغدو الكسل للمرّة الأولى صفة روحيّة: طوبى للأكثر كسلاً، لأن لهم ملكوت هذا الكوكب. ولو شاؤوا لاستطاعوا، من خلال كسلهم، إقامة حدائق غنّاء. وذلك من باب الفرح فحسب، وليس لأيّة غاية. يمكنهم أن يرسموا، ليس للبيع، بل من أجل أن يبتهجوا فقط بالألوان، بمزج الألوان، برقصة الألوان. يمكنهم عزف الموسيقى، ليس لأي سبب مؤقّت، وليس كعمل، بل بوصفها فرحاً وطرباً.

قد تغدو الحياة هنا على هذا الكوكب الجنّة التي حلم الإنسان بالعثور عليها. فلا تدعو الحاجة إلى الذهاب بعيداً بعيداً. فما من أحد يعرف الطريق، ولم يذهب أحد إلى هناك. ومن ذهبوا لم يكلّفوا أنفسهم حتى إرسال بطاقة مفادها: «لقد وصلنا!»،

يا لهم من أشخاص بخلاء، مجرّد بطاقة ميلاديّة... لكن توجّب خلق الجنّة؛ فليست هناك جنّة في الوجود. بل لا بُد من أن تنتج من إدراك الإنسان، من وعيه.

والحاسوب جزء أيضاً من إبداع الإنسان. ولا حاجة بك إلى التنافس معه؛ فأنت السيّد. أنت والحاسوب، وللمرّة الأولى، منفصلان. ذلك ما دأبت كل تعاليم المتصوّفة على إخبارك إيّاه، وهو أنك وذهنك منفصلان. لكنّ ذلك صعب، لأنّ الذهن موجود في داخل رأسك، ووعيك قريب جدّاً منه، وهكذا فإن آلاف المتصوّفة دأبوا على تعليم ذلك؛ لكن ما من أحد يُصغي. المسافة ليست طويلة جدّاً. لكنّها ستتضح كثيراً مع الحواسيب؛ ولا حاجة إلى متصوّف ليخبرك بذلك.

يحمل كلّ شخص حاسوبه الخاص في جيبه. ويعرف أنه منفصل عنه. ويتحرّر المرء من التفكير. فالحاسوب يقوم بذلك. وإذا أردت التفكير في أمر، اطلب من الحاسوب التفكير به. وإذا ظهرت عندك عادة الثرثرة القديمة، قل للحاسوب، «ثرثر»، وسوف يثرثر. لكن تستطيع أن تكون للمرّة الأولى ما دأب بوذا على الحديث عنه، مدركاً، صامتاً، هادئاً، بركة من الوعي.

لا يستطيع الحاسوب أن يدرك. يستطيع أن يكون مفكّراً، مطّلعاً؛ أن يكون على درجة كبرى من الاطلاع تمكّنه من احتواء كل مكتبات العالم، حاسوب وحيد تحتفظ به في جيبك. حاسوب وحيد يعفي ملايين الناس من حفظ أمور غير ضروريّة، ويمنعهم من تعليم الطلاّب وتعذيبهم؛ ما يفضي إلى زوال الامتحانات وكل أنواع الأمور الغبيّة.

يستطيع الحاسوب أن يكون ظاهرة من أعظم الظواهر التي تحدث على الإطلاق؛ أن يصير القفزة الكمّية quantum leap، أن ينفصل عن الماضي وكل تكيُّفاته.

استجاب هايمي غولدبرغ لإعلان مبوّب في صحيفة يتحدّث عن «فرصة العمر!»؛ وهو مزوّد بعنوان؛ فوجد نفسه وجهاً لوجه مع العجوز فنكلشتاين.

«ما أبحث عنه»، قال العجوز فِنْك، «هو شخص يحمل عنّي كل قلق. وتقضي وظيفتك بتحمّل مسؤوليّة كل همومي».

«لا بأس بذلك العمل»، قال هايمي. «وكم سأتقاضى عنه؟».

قال العجوز فنك: «ستحصل على عشرين ألف دولار في السنة، لجعل همومي همومك».

«حسناً»، قال هايمي، «ومتى أتقاضى أجري؟».

«ها!» قال فنك: «ذلك همّك الأوّل».

لمَ تبدو البشريّة على هذا القدر من الاستعداد لسلوك سبيل الانتحار الشامل؟

السبب واضح. فقد أدرك الناس أن حياتهم بلا معنى، وأن ما من شيء يحدث باستثناء البؤس؛ وليس لدى الحياة ما تقدّمه إلاّ القلق والكرب.

لطالما انتحر الأفراد. وسوف تفاجأ بأن الأشخاص الذين انتحروا كانوا دوماً أكثر ذكاء من الناس العاديين. تبلغ نسبة الانتحار لدى علماء النفس ضعفي ما لدى أصحاب المهن الأخرى. كذلك يُصاب الرسّامون والشعراء والفلاسفة بالجنون، أو يُقدمون على الانتحار. ولم يُعرف عن الأغبياء أبداً إقدامهم على الانتحار أو إصابتهم بالجنون.

لم يقدم الأغبياء قط على الانتحار، لأنّهم لا يستطيعون التفكير حتى بالمعنى والمغزى والغاية. لا يفكّرون على الإطلاق؛ يكتفون بالعيش، بالحياة الفارغة. وكلّما ارتفع معدّل الذكاء، ازداد خطره، لأنّه يجعلك تدرك أن الحياة التي تعيشها ليست إلاّ حياة جوفاء وفارغة تماماً. ليس فيها ما تتمسّك به. وتعرف أن الغد سيكون تكراراً لليوم، فما الفائدة من الاستمرار؟

يقدم الأفراد على الانتحار، لأنهم وحدهم قد بلغوا مستوى معيّناً من الذكاء، من

إدراك الحياة: ألها أيّ معنى أم لا؟ وللمرّة الأولى، بلغ ملايين الناس في مختلف أنحاء العالم ذلك النضج الذي يشعرون معه أن الحياة بلا معنى. وذلك هو السبب في تحرّك الإنسانيّة نحو الانتحار الشامل. يبدو أنّ لا سبب للاستمرار، ومن أجل ماذا؟ عشت حياتك ولم تعثر على شيء. وها هم أولادك سيعيشون ولن يعثروا على شيء: جيل بعد جيل، ولا تمتلك يداك إلاّ الفراغ، لا رضى ولا قناعة.

للمرّة الأولى، بلغ ملايين الناس في مختلف أنحاء العالم ذلك النضج الذي يشعرون معه أن الحياة بلا معنى. وذلك هو السبب في تحرّك الإنسانيّة نحو الانتحار الشامل. يبدو أنّ لا سبب للاستمرار، ومن أجل ماذا؟

لكنّ ذلك، في رأيي، يمنح الإنسان فرصة هائلة. وحدهم الأشخاص الأذكياء جدّاً أقدموا على الانتحار، أو أصيبوا بالجنون، لأنهم لم يتأقلموا مع هذا العالم المجنون. لم يستطيعوا تكييف أنفسهم مع كلّ ذلك الجنون المنتشر حولهم. شعروا بأنفسهم وقد أخذوا في الانهيار، ذلك كان جنونهم. لكن هذا النوع من الناس هو وحده الذي أصبح أيضاً متنوّراً.

هناك بالتالي إمكانيتان للذكاء: إما أن يصاب الشخص الذكي بالجنون، لأنّه لا يستطيع تصوّر ما يحدث، ولماذا يحدث، ولماذا يُفترض به القيام بهذا الأمر أو ذاك؛ وإما أنه يرى الوضع الذي يدفعه إلى الجنون، فيقدم على الانتحار، واضعاً حدّاً لحياته. وهذه هي الحال على وجه الإجمال في الغرب.

في الشرق جرّب النوع نفسه من الناس أمراً آخر، وهو ليس الجنون بل التأمّل. والغرب فقير في هذا المجال، لا يعرف غنى التأمّل. لا يعرف أن في وسع التأمّل تغيير كلّ رؤيتك للحياة؛ ويمكنه أن يمدّك بقدر هائل من المغزى والجمال والبركة. وتصير عندها الحياة أمراً مقدّساً لا يسعك القضاء عليه.

عليك النظر في معدّل الانتحار في الشرق، المنخفض جدّاً بالمقارنة مع الغرب؛ وفي معدّل إصابة الناس بالجنون، المنخفض قياساً على معدّله في الغرب. وهناك أمر إضافيّ آخر هو أن الناس الذين يصابون بالجنون في الشرق ليسوا في الحقيقة

أذكياء جدّاً. إنّهم مرضى نفسيّين. وليس ذكاؤهم هو الذي دفعهم إلى الجنون، بل شيء يفتقرون إليه في أذهانهم. ربّما كان طعامهم ليس مناسباً، ولا يكفي لإنضاج أذهانهم. أضف إلى ذلك أن النباتيّة تفتقر إلى أنواع من البروتينات يحتاج إليها الذكاء في شكل مطلق لينمو.

وهكذا، فإن هناك اختلافاً تاماً في الجنون بين الغرب والشرق. فالجنون لدى مَن هم في الشرق أمر نفساني؛ ذلك أنهم يفتقرون إلى بعض الأمور، فيتأخّر نموّهم، ولا تستطيع أذهانهم أن تنمو كما يُفترض بها ذلك.

مَن يقدمون على الانتحار في الشرق يختلفون أيضاً عمّن يقدمون على الانتحار في الغرب. ينتحر الناس في الشرق بسبب الجوع، بسبب المجاعة، لأنهم لا يتمكّنون من العيش، وتصير الحياة عذاباً كبيراً. وهناك بالتالي فارق نوعي.

لكن الأشخاص الأذكياء في الشرق يتحوّلون دوماً نحو التأمّل. ويحاولون، كلّما شعروا أن الحياة بلا معنى، إيجاد المعنى في دواخلهم؛ ذلك هو سبيل التأمّل. يحاولون إيجاد منبع الحياة والحب بالذات، فيجدونه. وهو ليس في مكان ناء، بل إنّه في داخلك. تحمله كلّ الوقت!

الأشخاص الأذكياء في الشرق يتحوّلون دوماً نحو التأمّل. ويحاولون، كلّما شعروا أن الحياة بلا معنى، إيجاد المعنى في دواخلهم؛ ذلك هو سبيل التأمّل.

تفتّش النخبة المثقّفة في الغرب عن المعنى في الخارج، وليس ثمة معنى فيه. يبحثون عن الطوبى في الخارج. تذكّر بأن الجمال هو في عين الناظر إليه؛ وهو ليس في الخارج. ويصحّ الأمر نفسه على المغزى والطوبى والبركة. إنها في داخل بصيرتك، في داخلك. ويمكنك، عندما تمتلكها، إسقاطها على مجمل الوجود. لكن عليك أن تعثر عليها في داخلك أوّلاً.

ولو أن جان بول سارتر ومارسيل بروست ومارتن هيدغر ولودفيغ ويتّغنستين وبرتراند راسل، وأمثالهم، ولدوا في الشرق لصاروا كائنات متنوّرة. لكنهم باتوا جميعهم في الغرب مثقلين جدّاً بالقلق والكرب. وجدوا ذلك كلّه طارئاً وغير ذي

معنى، وأن لا غرض في الحياة، وأن الفرح ليس إلاّ مجرّد حلم، مجرّد أمل؛ ولا وجود له على أرض الواقع.

يحتاج الغرب إلى التأمّل. ويحتاج الشرق إلى الدواء؛ فهو معتلّ جسديّاً. والغرب معتلّ روحيّاً. وعندما ندرك المشكلة بوضوح... [سنجد] أن الشرق ليس هو الذي يشكّل خطراً على العالم؛ إذ يمكنه، في أسوأ الحالات، أن يجوع ويموت كما يموت الناس في أثيوبيا. لكنّه ليس خطراً على العالم. والواقع هو أن المجاعة في الشرق تساعد بموتها العالم بطريقة من الطرائق. فهي تخفض عدد سكّان العالم. وتجعل الجميع أكثر ثراء من دون معرفتك ذلك. قد لا ترى كيف يسهم موت ألف أثيوبي كل يوم، في رغدك بطريقة ما. لكنه يفعل، لأن انخفاض عدد سكان العالم يمكّن الناس من العيش براحة أكبر، وبسهولة أكبر، وبفرح أكبر.

ليس الشرق مصدر المشكلة؛ بل تأتي المشكلة من الغرب. المشكلة هي في أنّ النخبة المثقّفة في الغرب قد طفح بها الكيل من الحياة، وبالتالي لا تبدي مقاومة حقيقيّة للأسلحة النوويّة وللحرب العالميّة الثالثة. بل إن الذهن الغربي يبدو بطريقة ما أنه، في عمق أعماقه، يأمل بوقوعها قريباً، لأن الحياة بلا معنى.

ولو تمكّن السياسيّون من تدمير العالم كلّه، بدلاً من أن تخاطر بإقدامك على الانتحار، لكان ذلك أكثر سهولة بكثير... ولن تعيش معضلة أن تكون أو لا تكون. ولن تفكّر هل تقضي على نفسك أم لا، وتتساءل إن كانت الأمور ستختلف في الغد؟

الإقدام على الانتحار مسؤوليّة فرديّة، لكن كلّ مسؤولية فردية تختفي في الحرب العالميّة، في الحرب النوويّة. فهي ليست من فعلك، بل تحدث فحسب.

لمَ لا تحارب النخب الثقافيّة الغربيّة بالفعل الأسلحة النوويّة؟ لمَ يواصل العلماء، وهم جزء من النخبة الثقافيّة، خدمة الحكومات؟ تتمثّل الطريقة الأبسط بأن يستقيل جميع العلماء الذين يصنعون الأسلحة النوويّة. يجب أن يقولوا: «كفى. لا يمكننا صنع هذه الأسلحة التي ستقضي على الحياة في الأرض». ولا يبدو أن الشعراء والفلاسفة والرسّامين يعترضون. باتوا مجرّد متفرّجين. وهناك سبب وراء ذلك. تحوّلت الإنسانيّة الغربيّة شيئاً فشيئاً إلى متفرّجة، على كل شيء.

أنت لا تلعب كرة القدم، لكن ٢٢ شخصاً من المحترفين قد اتخذوا من لعب

كرة القدم وظيفة لهم. وملايين الناس هم مجرّد متفرّجين، يتحمّسون... يقفزون على مقاعدهم، يصرخون، يصيحون. وإذا لم يحضروا إلى الملعب، فإنهم يتسمّرون في بيوتهم أمام شاشات التلفزة ويقومون هناك بالحركات نفسها. غيرك يلعب؛ وأنت مجرّد متفرّج.

يشاهد الأميركي العادي التلفاز بمعدّل خمس ساعات إلى ست في اليوم: ستّ ساعات من مجرّد كونه متفرّجاً، لا مشاركاً. ثم هناك أفلام السينما وأنتم فيها متفرّجون، ومبارايات الملاكمة وأنتم فيها متفرّجون. يبدو وكأنّكم فقدتم الاتصال بالحياة. تنظرون فحسب إلى الآخرين وهم يعيشون؛ وما حياتكم إلا للفرجة. يشارك شخص ما في مباراة على بطولة العالم في الشطرنج، وأنتم تتفرّجون. ألا يمكنكم لعب الشطرنج بأنفسكم؟ ألا يمكنكم لعب كرة القدم بأنفسكم؟

والأمر ليس بعيداً جدّاً، وهو يحدث بالفعل... لن تمارس الحب مع زوجتك، أو مع صديقتك. سوف يقوم شخص آخر بذلك وأنت تتفرّج وتقفز، «ها! عظيم! هيّا!».

لقد تخلّيت عن الحياة كلّها ليعيشها شخص آخر نيابة عنك، وتسأل من ثمّ أين ذهب المعنى؟ ولماذا لا تشعر بأنّك حيّ؟ لمَ لا يوجد بعض المعنى في حياتك؟ لا يمكن أن يكون ثمة معنى للمتفرّجين، بل للمشاركين، المنخرطين كلّياً، المنخرطين بقوّة في كل فعل.

وبالتالي ربّما كانت النخبة الغربيّة المثقّفة تقف تماماً في وضعيّة المتفرّج، تشاهد عندما يُعلن على التلفزة نشوب الحرب العالميّة الثالثة. تستمع إلى المذياع، تقرأ في الصحف... لكن هل ستقوم بشيء أم لا؟

الفعل هو الذي يحافظ على عصارتك. وإذا اكتفيت بالمشاهدة فسوف تجف. تصبح هيكلاً عظميّاً.

يفاجئني أن الغرب يمتلك أغلبيّة عالميّة رائعة، مثقّفة، ذكيّة، لكنّها لا تفعل شيئاً ولا تبادر إلى أي فعل. فالإيدز ينتشر، وأنتم تكتفون بالتفرّج. تكدّس حكوماتكم الأسلحة النوويّة، وهي تحضّر لمحرقة جنازتكم، وأنتم تكتفون بالتفرّج.

يجب إخراجكم من حالة التنويم المغناطيسي المتمثّلة في كونكم مجرّد متفرّجين. الناس الذين يصنعون الأسلحة النوويّة ليسوا كثراً. لا يوجد إلا بضعة علماء يعرفون كيف. ألا يمكنهم ببساطة أن يقولوا «لا، لن نكون خدماً للموت؟».

وماذا يفعل جميع الشعراء وجميع الرسّامين وجميع الحائزين جائزة نوبل والروائيين والممثّلين والموسيقيين والراقصين؟ يجب أن يقوموا باحتجاج عظيم، يجب أن يغرقوا كل الأسلحة النووية في المحيط الهادئ. ولا بدّ أن من سمّاه بالهادئ قد امتلك تبصّراً عظيماً في المستقبل. ولندع الآن هذا الاسم يصبح حقيقة.

لكن المشكلة هي في أنّك ما لم تبدأ بالشعور ببعض المعنى في الحياة، ببعض الفرح يظهر فيك، ببعض الأريج يحيط بك، فلن تتمكن من القتال من أجل الحياة. وتحتاج الحياة، للمرّة الأولى في تاريخ الإنسان، أن يُحارَب من أجلها.

ما لم تبدأ بالشعور ببعض المعنى في الحياة، ببعض الفرح يظهر فيك، ببعض الأريج يحيط بك، فلن تتمكن من القتال من أجل الحياة. وتحتاج الحياة، للمرّة الأولى في تاريخ الإنسان، أن يُحارَب من أجلها.

التأمّل يخلق المناخ المناسب. يعيدك إلى الحركة، إلى الحب، إلى المعنى. وعندها سترى، بطبيعة الحال، أنّ وقت القيام بشيء ما قد حان. ولا يتوجّب على هذه الأرض الجميلة أن تموت.

هذا كوكب فريد من نوعه، وصغير جدّاً. هذه الأرض منقطعة النظير في هذا الكون الهائل الذي لا يعرف حدوداً؛ منقطعة النظير، لأن الطيور تغرّد فيها، والأزهار تتفتّح فيها. وقد بلغت الحياة فيها مستوى جديداً، هو: الوعي. وإذا لامست قلّة من الناس نقطة الأوميغا، تكون قد بلغت التنوّر.

الكون كلّه ميت بالمقارنة مع هذه الأرض. وهو كبير وواسع. لكن حتى زهرة واحدة لهي أثمن كثيراً من أكبر النجوم. وكل من يريد تدمير الأرض يريد تدمير شيء منقطع النظير آخذ في التطوّر. وقد استغرق الأمر آلاف السنين لبلوغ حالة الوعي هذه. وحتى لو لم تبلغ إلاّ قلّة من الناس الطوبى النهائية والوجْد، فإن هذا يكفي ليجعل من هذه الأرض أعظم كنز.

هناك ملايين الأنظمة الشمسية، لكن لا يمكن لأي نظام شمسي أن يدّعي امتلاك غوتام بوذا، أو لاو تزو، أو بودي دارما، أو كبير. هذه الأرض حقّقت أمراً عظيماً للغاية، جعلت الكون كلّه غنيّاً. ولا يمكن تدميرها.

يجب وقف الحرب، وهذا أمر في متناول أيدينا. لا تكن مجرّد متفرّج. واشرع، بدلاً من الاستمرار في بؤسك، في البحث عن منابع الحياة واللغز في داخلك. تلك هي الإمكانيّة الوحيدة لإنقاذ الأرض بأسرها.

لا أستطيع مجاراة الكثير من الأوضاع التي أجد نفسي فيها؛ فهل أحتاج إلى المساعدة من طبيب نفسي؟

ذهنك على ما يرام تماماً. والواقع هو أن هذا الوضع يطرأ على كلّ من يمتلك بعضاً من الذكاء. وليس الأمر أنّك تفتقر إلى شيء، بل في أنّك تمتلك ذكاء أكثر من المتوسّط. وهذه المشكلة لا تنتج من النقصان، بل من الزيادة، أي إنك تمتلك ذكاء أكثر من المتوسّط.

عندما يصبح الذهن أذكى بعض الشيء، فإنّه لا يرضى أبداً، لأنّه يستطيع دوماً تخيّل أوضاع أفضل: تلك هي المشكلة. لو امتلكت ألف روبيّة وأنت غبي لرضيت! لكن كيف لإنسان ذكي أن يرضى؟ سيفكّر بألفين، ثلاثة آلاف، خمسة آلاف؛ أياً يكن فهو دوماً يستطيع تخيّل المزيد.

لديك امرأة جميلة؛ يأخذ الشخص الذكي في التفكير بالمزيد من النساء الجميلات، ويواصل التخيّل. الغبي يكتفي لأنّه لا يستطيع التصوّر... لا يستطيع حتى تصوّر وضع أفضل، فلماذا لا يكتفي؟ وكيف لا يكتفي؟

وهكذا لا يستطيع الأطبّاء النفسيّون المساعدة، لأنك خالٍ من أي خطب! لا يمكنهم تصويب أي شيء، لعدم وجود ما هو خطأ. فأنت تمتلك ذكاء أكثر من المتوسّط. وبات عليك الآن أن تستخدم هذا الذكاء بعمق أكبر لحل مشكلاتك. وعليك أن تستخدم ذكاءك أنت لحل مشكلاتك، بدلاً من طلب مساعدة شخص آخر.

عليك، مثلاً، عندما لا تشعر بالرضى عن أمر معيّن، أن تدرك سبب عدم رضاك. انظر إلى حالة عدم الرضى بأكملها، غص فيها عميقاً. وسيساعدك الإدراك لأنّك تمتلك الذكاء، ويمكن تحويل الذكاء إلى إدراك.

العظات لن تنفع، لن يساعدك قول أحدهم: «كن راضياً فحسب». عليك أن تمضي في تحليل عميق لحالاتك المزاجيّة. وليس ثمة خطب، بالتالي، في كلّ مرّة تشعر فيها بعدم الاكتفاء. أوّل ما يجب فهمه هو أن ليس هناك أي خطب! عليك أن تشعر بأنّك محظوظ، لأنك استطعت أن تكون غبيّاً، لا يواجه الأغبياء أبداً هذه المشكلة، ليس للحمقى أي مشكلات. المشكلة مؤشّر جيّد.

وعندما تفكّر في الحياة، عندما تصير مدركاً للحياة، تجد أن الحياة بلا معنى، فكيف يمكنك أن ترضى بها؟ إذا غصت بها في العمق ستجد مع الوقت أن ليس ثمة إمكانيّة لأيّ رضى في الحياة. وتكون عندها قد صادفت أوّل حقيقة أساسيّة، وهي أن الحياة بلا معنى. وعندها يمكن للمرء أن يتحوّل إلى الداخل: وتنتفي بعدها حاجة المضي إلى الخارج، لأنك لن تجد فيه أي معنى ممكن، لن تجد سوف القلق والكرب.

والأشخاص أمثالك يقدمون على الانتحار. عندما تصير الحياة شاقّة جدّاً، ولا يعود فيها شيءٌ مرضياً، ما يجلب السعادة، يراود المرء الشعور الآتي: «ما الفائدة من الاستمرار في الحياة؟». وتقضي بعدها على نفسك! الناس أمثالك إما يقدمون على الانتحار، وإما يصيرون من كبار الساعين؛ وكلتا الحالتين إمكانيّة. فإذا لم يقضوا على أنفسهم يتحوّلون إلى الداخل، ويولّدون حياة جديدة. فلا معنى للحياة المتوفّرة عبر الحواس، وهي ليست الحياة الوحيدة. ثمة حياة واحدة أخرى، أعظم كثيراً، وهي حياة الإدراك الباطني.

وها أنت تصبح الآن ساعياً، وقد بلغت الباب. وأرجوك بالتالي ألاّ تفكّر بأنك مريض. وإذا فكّرت بهذه العبارات، سوف يراودك شعور بأنّك مريض، تنوّم نفسك مغناطيسيّاً لتعتقد أنّك مريض. وأنت لست مريضاً على الإطلاق. أسقط كلّياً تلك الفكرة! ولا تقصد أبداً الطبيب النفسي، لأنّك إذا ذهبت، فسوف يجد فيك خطباً ما،

حتى وإن لم يكن موجوداً. يجب أن يجده، فعليه أن يكسب عيشه، وعليه بالتالي أن يعثر على شخص ما، أن يجد خطباً فيه، ويعالجه.

يمكنني أن أرى في عمقك عدم وجود أي خطب. المسألة مسألة أنّك غير محظوظ، لناحية أنّك تمتلك من الذكاء ما يفوق المعدّل. ويمكنك بالتالي أن تخلق منه بؤساً أو تخلق منه بركة، ذلك متوقّف عليك.

أشعر بأن الكيل قد طفح بي من نفسي، ولا أشعر بالارتباط بين عالمي الداخلي والعالم الآخر. كان لي الكثير من الاهتمامات؛ لكنّني لم أعد أشعر بأنني على اتصال بها.

هذا ما سيشعر به أي شخص ذكي. الضجر هو الثمن الذي يدفعه المرء مقابل الذكاء. ويجب عدم أخذ الأمر على محمل السلبيّة. فذلك جيّد لأن هناك، مع هذا الإدراك، إمكاناً بالتجاوز. إذا لم يطفح بك الكيل، فلن تتمكّن أبداً من تجاوز نفسك. طوبى للذين طفح بهم الكيل، لأن بإمكانهم أن يتجاوزوا. والتجاوز، بالطبع، عمل صعب وشاق؛ وليس سهلاً. إنّه أشبه بتسلّق جبل إفرست. لكن ما إن يطفح بك الكيل فعلاً، حتى ينبثق من الصعوبة نفسها تحدّ.

وهكذا يتمثّل الأمر الأوّل في ألاّ تقلق بشأنه. وهذا أمر جيّد. ولا تأخذ هذا الأمر على محمل السلبيّة، لأنه جزء من الذكاء، وأنت شخص ذكيّ، ومن الطبيعي، بل من المحتّم، أن تبلغ هذه الحالة من الضجر.

الأمر الثاني...

عندما تبدأ ضجراً، سوف تشرع في التساؤل عن كيفيّة المضي نحو الداخل، لأن الكيل قد طفح بك من الخارج، وأنت تعرف كلّ ما في الخارج. قرأت اليوم قصّة قديمة جدّاً، عن ملك اسمه بارتيرهاري.

استدعى ذلك الملك، بعد أن تُوّج، جميع وزرائه، وقال لهم: «هذه هي قاعدتي وهذا هو أمري لكم: أريد تجربة كلّ شيء مرّة واحدة، وليس مرّتين أبداً. يجب ألا

يقدّم إليّ الطعام نفسه مرّتين، ولا أن يؤتى إليّ بالمرأة نفسها، كلّ شيء مرّة واحدة فقط».

جاؤوا مع نهاية السنة وقالوا: «لم يعد المزيد ممكناً. قمنا بكلّ ما يمكننا فعله. وها نحن ندفع أنفسنا إلى الجنون، لا يمكننا العثور على أمور جديدة!».

قال الملك: «لا بأس، سأتخلّى عن ذلك كلّه!» وغدا سانياسيّاً(*). قال: «لقد اكتفيت الآن! تذوّقت كلّ شيء مرّة واحدة، فما الفائدة من تذوّقه مرّتين؟ أنا لست على هذا القدر من الغباء! لا بأس بمرّة واحدة، وأنا قد عرفت المذاق الآن، لكن ما الفائدة من تكرار تذوّقه؟».

أحببت القصّة... فهي جميلة للغاية.

هذا ما سيكون عليه الشخص الذكي! وبالتالي ليس ثمة ما تقلق في شأنه، لا تكن جدّياً في شأنه. فهو جيّد، ولا بأس أبداً في الشعور بأن الكيل قد طفح بك. الأشخاص الذين لا يشعرون بأن الكيل قد طفح بهم من أنفسهم موجودون في الوضع الخاطئ؛ إنّهم في خطر، ولن يتغيّروا أبداً. ولا حاجة بهم إلى التغيُّر. سوف يستمرّون في الدوران داخل الدولاب، إنّهم أشخاص آليّون.

الأشخاص الذين لا يشعرون بأن الكيل قد طفح بهم من أنفسهم موجودون في الوضع الخاطئ؛ إنّهم في خطر، ولن يتغيّروا أبداً.

إنّه شعاع الإدراك الأوّل فيك، أن تشعر بأن الكيل قد طفح بك.

من ذا الذي يشعر بأن الكيل قد طفح به؟ هذا الإدراك هو أنت. إنّه شعاع الوعي الأوّل. وبالتالي فإن كل ما عشتَه حتى الآن، وكلّ الأشياء التي قمت بها حتى الآن، هما بلا معنى.

(*) اتّبع فلسفة الزهد في الهندوسيّة - المترجم.

ولننتقل الآن إلى الأمر الثاني... الآن وقد شارف الخارج على الانتهاء، سوف تبرز مشكلة، هي الآتية: كيف يمكن الولوج إلى الداخل؟ إذا شرعت في الكفاح للدخول، فلن تدخل، لأنّ كل ما نفعله بالجهد يؤدّي إلى الخارج، يأخذنا إلى الخارج؛ أي إن ما يُعمل بجهد ينتقل إلى الخارج.

أن تذهب يعني أن تسترخي، أن تصرف من الذهن، وما من طريقة أخرى. تدخل عندما تسترخي، وتخرج عندما تشرع في القيام بأمر ما. الفعل يعني الفعل خارجاً، وعدم الفعل يعني المضي إلى الداخل. ولهذا فهو شاق. ولو أن هناك ما يمكن فعله لقلت لك: «قم بهذا وستدخل». الأمر لا يتعلّق بالفعل. سيتوجّب عليك تعلّم الصبر، سيتوجّب عليك تعلّم الصبر اللامتناهي.

ابدأ بالجلوس. كلّما أتيح لك الوقت، اجلس بصمت وعيناك مغمضتان، ولا تفعل شيئاً. هل طفح بك الكيل من الخارج؟ مع الوقت ستختفي أحلام الخارج، لانتفاء الحاجة إلى الأحلام، كي تستمرّ.

لن تفكّر بالطعام، فإذا فكّرت به، فاعرف عندها تمام المعرفة أن الكيل لم يطفح بك. ولو أنّك فكّرت في النساء، فاعرف جيّداً أن كيلك لم يطفح بعد. وستُظهر لك أحلامك إن كان الكيل قد طفح بك فعلاً أم أنك لا تزال تمتلك اهتماماً معلّقاً. وإذا بقي لديك اهتمام معلّق، فأنهه أيضاً؛ لا ضرر في ذلك. وإذا طفح بك الكيل فعلاً، فمع الوقت سوف يراودك شعور بأن الطاقة تتحرّك من تلقاء نفسها إلى الداخل. وأنت لا تفعل شيئاً، بل تكتفي بالجلوس في المكان، وهي تمضي إلى الداخل، تسقط فيه.

وسيَبرز محورك من خلال تلك الكينونة الداخلية، التي ستنشأ من خلالها اهتمامات جديدة، حماسة جديدة، أسلوب جديد، طريقة جديدة في الحياة. ولا يمكنك تهذيبها، فكلّ ما يمكنك تهذيبه سيكون مجرّد تكرار للقديم ... وربما أُدخلت عليه تعديلات طفيفة هنا وهناك، لكنه لن يشكّل الكثير من الفارق. فابدأ إذاً بالجلوس ساكناً، وقم بالمزيد من التأمّلات الساكنة.

أخشى دائماً في عملي من فقدان ثقتي بنفسي.

لا نحتاج، في الواقع، إلى الثقة بالقدر الذي نعتقد أننا نحتاج إليه.

يمكن أن تشكّل الثقة للبعض إمّا ميزة رائعة، وإماً عائقاً. فالحمقى، مثلاً، هم دوماً أكثر ثقة من الأشخاص الأذكياء. ففي الغباء ثقة معيّنة. الحمقى أكثر عناداً. وبما أنّهم عميان، لا يستطيعون أن يروا، يهرعون إلى أي مكان، حتى الأمكنة التي يخشى الملائكة الخطو فيها.

يُفترض بالشخص الذكي أن يمتلك القليل من التردّد. فالذكاء تردّد. وهو ما يظهر ببساطة أن هناك ملايين الفرص، ملايين البدائل، وعلى المرء أن يختار. وكلّ خيار اعتباطي. ومن المحتّم بالتالي وجود ضعف في الثقة. وكلّما ازددت ذكاء، ازددت شعوراً بذلك.

هناك ملايين الفرص، ملايين البدائل، وعلى المرء أن يختار. وكلّ خيار اعتباطي، ومن المحتّم بالتالي وجود ضعف في الثقة. وكلّما ازددت ذكاء، ازددت شعوراً بذلك.

وهكذا، لا تكون كلّ ثقة بالنفس أمراً جيّداً. فتسعة وتسعون بالمئة من الثقة حماقة. وواحد بالمئة فقط أمر جيّد، وهو ليس مطلقاً أبداً. هذا الواحد بالمئة دائم التردّد، لأن هناك بالفعل الكثير جدّاً من البدائل. فأنت تقف دوماً عند مفترق طرق، ولا تعرف أيّ طريق هي الصحيحة فعلاً. وكيف يمكنك أن تكون واثقاً؟ ولمَ تتوقّع أن تكون واثقاً؟

تكاد الطرق كلّها تكون هي نفسها، لكنّ على المرء أن يختار. إنه اختيار المقامر. لكن هذه هي الحياة. ومن الجيّد أنها على هذا الشكل. ولو أنّ كلّ شيء واضح المعالم، مخطّط مسبقاً، مجهّز، وأنت تتلقّى تعليمات: فحسب «تحرّك يميناً ويساراً، وقُمْ بهذا وبذاك»، لوُجدت الثقة، لكن ما الفائدة منها؟ سوف يختفي التشويق. آنذاك تصبح الحياة بلا نور. وتغدو روتيناً قاتلاً.

الحياة دائمة التشويق، لأن كلّ خطوة توصلك إلى مفترق طرق... طرق كثيرة جدّاً

من جديد، وعليك أن تختار من جديد. تبدأ بالارتعاش. هل يكون الخيار صحيحاً أم لا؟ وكيف يمكن للمرء عندها أن يكون واثقاً عن حق؟ أن تكون واثقاً عن حق يعني أن تفكّر في كل البدائل، وبكل ما تشعر بأنه أفضل بعض الشيء من البدائل الأخرى...

لا تسأل عن الصالح المطلق والخاطئ المطلق. ليس في الحياة شيء كهذا. إنه نسبة مئويّة فحسب؛ الواحد أفضل قليلاً من الآخر، وهذا كلّ شيء. فالحياة لا تنقسم إلى قطبين، إلى الجيّد والسيّئ. فبين الجيّد والسيّئ ألف وضع ووضع. اكتفِ إذاً بالنظر حولك بموضوعيّة، بصمت، بشعور. انظر، من دون قلق، إلى كل إمكانيّة. فإذا شعرت بأنها أفضل قليلاً من سواها، تحرّك إليها. وانسَ البدائل الأخرى عندما تقرّر التحرّك، لأنّها لم تعد تهم الآن. وتحرّك بثقة.

اكتفِ إذاً بالنظر حولك بموضوعيّة، بصمت، بشعور. انظر، من دون قلق، إلى كل إمكانيّة. فإذا شعرت بأنها أفضل قليلاً من سواها تحرّك إليها. وانسَ البدائل الأخرى عندما تقرّر التحرّك، لأنّها لم تعد تهم الآن. وتحرّك بثقة.

هذه ثقة ذكيّة فعلاً. وهي لا تقضي على التردّد بالكامل، بل تستخدمه. وهي لا تدمّر البدائل. فالبدائل قائمة. وهي تطيل التفكير عن وعي في كل البدائل بالقدر الإنساني الممكن من الصمت. فالذكاء لا يطلب أبداً كل ما هو غير إنساني.

هذه هي المسارات. يتحرّك الكثيرون إلى اليمين معتقدين أنّه أفضل. وأنت تواصل الشعور بأن التحرّك إلى اليسار أفضل. وسوف ينشأ بالطبع تردّد لأنّك تعرف أن الكثيرين من الأذكياء يتحرّكون في الاتجاه المعاكس. فكيف يمكنك أن تكون واثقاً؟ أنت لست وحدك هنا. كثير من الأذكياء يذهبون في ذلك الاتجاه، وتستمرّ مع ذلك في الشعور بأن هذا مناسب لك.

قف عند مفترق الطرق، فكّر، تأمّل. وانس من ثمّ، عندما تقرّر، كل البدائل الأخرى، تحرّك. وما إن تقرّر التحرّك حتى تحتاج إلى كلّ طاقتك. لا تتمزّق، ولا تدع نصف ذهنك يفكّر في البدائل. هكذا يجب على المرء استخدام التردّد.

لا يقين بأنّك ستكون على حق. أنا لا أقول ذلك. ما من طريقة للتأكّد. قد تكون مخطئاً، لكن ليس ثمة وسيلة لمعرفة ذلك، إلّا إذا سلكت الطريق حتى النهاية، على طول الخط.

لكن على المرء، بحسب فهمي للأمور، أن يفكّر بطريقة صحيحة. فمجرّد التفكير يمدّك بالنمو. تتحرّك على الطريق، ولا يهمّ إذا كانت صحيحة أو خاطئة. والمسألة من منظوري لا تتعلّق بوجهتك. ما يهمّني هو أنّك لست عالقاً، بل تتحرّك.

وما من موجب للقلق حتى لو بلغتَ طريقاً مسدودة لا تؤدّي إلى أي مكان. أمر جيد أنّك ذهبت، فضلاً عن أن الحركة بذاتها قد مدّتك بكثير من الخبرة. عرفتَ الطريق الخطأ. وصرتَ الآن تعرف الخطأ أكثر من ذي قبل. وها أنت تعرف ما هو خاطئ؛ الأمر الذي يساعدك في العثور على الحقيقة.

لمعرفة الحقيقة أنها حقيقيّة، ينتقل المسار من تجربة معرفة الخطأ أنّه خطأ. وعلى المرء أن يتنقّل على الكثير من الطرق الخاطئة قبل بلوغ الطرق الصحيحة.

تشكّل معرفة الخطأ أنه خطأٌ، تجربة عظيمة، لأنّها الطريقة الوحيدة التي يتوصّل فيها المرء مع الوقت إلى معرفة ماهيّة الحقيقة. ولمعرفة الحقيقة أنها حقيقيّة، ينتقل المسار من تجربة معرفة الخطأ أنّه خطأ. وعلى المرء أن يتنقّل على الكثير من الطرق الخاطئة قبل بلوغ الطرق الصحيحة.

وهكذا أرى أنك حتى لو سرتَ نحو الجحيم، فإنني أباركك، لعدم وجود طريقة أخرى لمعرفة الجحيم. وإذا لم تعرف الجحيم، فلن تتمكّن أبداً من معرفة ماهيّة الجنّة. امضِ إلى الظلمة، لأنها السبيل إلى معرفة النور. امضِ إلى الموت، لأنّه السبيل إلى معرفة الحياة.

يتمثّل الشيء الوحيد المهمّ في ألاّ تعلق في مكان ما. لا تكتفِ بالوقوف عند مفترق الطرق، متردّداً، لا تلوي على الذهاب إلى أي مكان. لا تجعل من التردّد عادة.

استخدمه، تلك نصيحة جيّدة. فكّر في كلّ البدائل. وأنا لا أطلب منك عدم التفكير، وعدم التردّد. لكن لا تتحرّك كالغبي، وتركض معصوباً مغمض العينين، حيث لا تواجه مشكلة، ولا تعرف أن هناك طرقاً أخرى. هذا هو السبب في أن

الأغبياء يتمتّعون بكثير من الثقة، لكنّهم بذلك يكونون قد ألحقوا الكثير من الضرر بالعالم. ولكان العالم مكاناً أفضل، لو وُجد عدد أقل من الناس الواثقين.

انظر إلى أمثال أدولف هتلر، إنهم واثقون جدّاً. يعتقدون أن اللّه أوكل إليهم المهمّة العظيمة المتمثّلة في تغيير العالم كلّه. إنّهم أغبياء، ولكنّهم واثقون جدّاً. وحتى بوذا ليس واثقاً كأدولف هتلر، لأن بوذا ليس غبيّاً. فهِمَ تعقيدات الحياة. وهي ليست على هذا القدر من البساطة التي يعتقدها هتلر، لكنّه يندفع والناس يتبعونه.

لمَ يتبع هذا العدد الكبير من الناس أمثال هؤلاء الزعماء الأغبياء؟ لمَ يواصلون السير وراء السياسيّين؟ ماذا يحدث؟ يندر أن يكون هناك سياسي ذكيّ، لأنّه لو كان ذكيّاً لما صار سياسيّاً. فالذكاء لا يختار أبداً مثل هذا الأمر الغبي. لكن لمَ يتبع الزعماءَ هذا العددُ الكبير من الناس؟

يكمن السبب في أن الناس ليسوا على قدر كبير من الوثوق. لا يعرفون إلى أين يذهبون، فيكتفون بانتظار مسيح ما، شخص يخبرهم، بقدر كبير من الثقة، والاستحواذ، أن ذلك هو المسار الصحيح، وتتلاشى مخاوفهم. فيقولون، «نعم، هذا هو الزعيم. سنتبعه الآن، ها قد أتى الرجل المناسب، الذي يمتلك القدر الكبير من الثقة!».

ثقة الزعيم تلك، الناجمة عن غبائه، تساعده على جمع الكثيرين من الأتباع، لأنّ الناس يفتقرون إلى الشجاعة، إلى الثقة. إنهم عالقون. يخافون التحرّك. يكادون أن يصابوا بالشلل جرّاء تردّدهم. يحتاجون إلى شخص يصير مشعلاً ويمتلك قدراً كبيراً من الثقة، حيث لا يصيبهم خوفهم، وفقدانهم الثقة، بالقلق. وها هم يستطيعون الآن التحرّك مع هذا الإنسان. يمكنهم القول: «نعم، لسنا واثقين، لكنّك واثق. تصير ثقتك لنا بديلاً».

وهكذا، فإن الثقة ليست فضيلة على الدوام.

الذكاء على الدوام فضيلة. كن دائم الإصرار على الذكاء. وسيجعلك أحياناً

كثير التردّد والتوتّر. يُفترض أن يكون هكذا... ذلك أمر طبيعي. والحياة على قدر كبير من التعقيد، وهي تتحرّك باستمرار نحو المجهول. فكيف يمكن للمرء أن يكون واثقاً؟ الطلب في ذاته منافٍ للعقل.

فاجعل من الذكاء هدفاً لك، الأمر الذي يمكّنك من استخدام التردّد والتوتّر، وكل شيء، بطريقة مبدعة.

وهكذا، فإن الثقة ليست فضيلة على الدوام. الذكاء على الدوام فضيلة. كن دائم الإصرار على الذكاء. وسيجعلك أحياناً كثير التردّد والتوتّر. يُفترض أن يكون هكذا... ذلك أمر طبيعي.

أستطيع أن أرى ذهني لا يزال طفولياً. فماذا أفعل؟

ثمّة أمور على المرء أن يدركها. فالإدراك في ذاته يأتي بالتحوّل؛ ولا يعني ذلك أن عليك، بعد أن تصير مدركاً، القيام بشيء لتحقيق التغيير.

يمكنك أيضاً، وأنت تنظر إلى ذهنك بوصفه طفولياً، أن ترى أنّك لست ذهنك، وإلّا مَن الذي ينظر إلى الذهن بوصفه طفولياً؟ هناك شيء وراء الذهن، إنه المراقب على التلّة.

أنت تنظر فقط إلى الذهن. وتنسى كلّياً مَن الذي ينظر إليه. راقب الذهن لكن لا تنسَ المراقِب، لأن حقيقتك مركّزة في المراقب، لا في الذهن. والمراقب دوماً بالغٌ تماماً، ناضج، وعيه مركّز. ولا يحتاج إلى النمو.

وما إن تدرك أن الذهن ليس إلّا أداة بين يدَيْ روحك الشاهدة، حتى تنتفي المشكلة؛ إذ يمكن استخدام الذهن بالطريقة الصحيحة. وها هو السيّد قد استفاق، ويمكن إصدار الأمر إلى الخادم ليقوم بما يتوجّب.

يكون السيّد في العادة نائماً. ويغدو بغياب المراقب، الخادم سيّداً. وليس الخادم إلاّ خادماً، وهو ليس بالتأكيد على درجة كبيرة من الذكاء.

يجب تذكيرك بحقيقة أساسيّة: وهي أن الذكاء ينتمي إلى الوعي المراقِب؛ والذاكرة تنتمي إلى الذهن.

الذاكرة أمر مختلف. الذاكرة ليست الذكاء. لكن جرى على مدى قرون خداع الإنسانيّة والقول لها مداورة إن الذاكرة هي الذكاء. ولا تحاول مدارسك ومعاهدك وجامعاتك العثور على ذكائك؛ لكنها تحاول أن تعرف مَن القادر على الاستظهار أكثر.

وها نحن نعرف الآن تمام المعرفة أن الذاكرة شيء آلي. ويمكن للحاسوب امتلاك ذاكرة أفضل من ذاكرتك؛ لأن ذاكرة الإنسان لا يُركن إليها إلّا ضمن حدود. لأنّه ينسى، تختلط عليه الأمور؛ تحتجب ذاكرته. فأنت تقول أحياناً: «إنني أتذكّر ذلك، لكنّه على رأس لساني». غريب، إنّه على رأس لسانك، فلمَ لا تتكلّم إذاً؟

تقول إنّه لا يحضر، «إنّه على رأس لساني... أعرف أنّني أعرف، وهو ليس بعيداً، إنّه قريب جدّاً». لكن يبقى هناك حاجز معيّن، حاجز دقيق جدّاً، قد يكون مجرد ستار لا يسمح له بالظهور. وكلّما زدت في محاولتك وازددت توتّراً، تضاءلت إمكانيّة تذكّره. وتنسى، في النهاية، أمره كلّياً، وتبادر إلى أمر آخر، كتحضير كوب من الشاي، أو إحداث حفرة في الحديقة؛ فيظهر فجأة، لأنّك كنت مسترخياً، نسيت أمره كلّياً، اختفى أي توتّر. فظهر.

الذهن المتوتّر يصبح ضيّقاً. والذهن المسترخي يتّسع، متيحاً لمزيد أكبر من الذكريات أن تعبره. أما الذهن المتوتّر، فيضيق جدّاً إلى حدّ أن قلّة قليلة من الذكريات، يمكنها عبوره.

الذهن المتوتّر يصبح ضيّقاً. والذهن المسترخي يتّسع، متيحاً لمزيد أكبر من الذكريات أن تعبره. أما الذهن المتوتّر، فيضيق جدّاً إلى حدّ أن قلّة قليلة من الذكريات، يمكنها عبوره.

لكنّ سوء الفهم استمرّ لآلاف السنين، وهو لا يزال مستمرّاً، كما لو أن الذاكرة هي الذكاء. وهي ليست كذلك.

في الهند، كما في بلاد العرب والصين واليونان وروما وكل البلدان القديمة، تعتمد اللغات القديمة كلّها على الذاكرة وليس على الذكاء. يمكنك أن تصير علاّمة في السنسكريتيّة من دون أي حفنة من الذكاء. لا حاجة بك إلى الذكاء، بل على ذاكرتك أن تكون ممتازة

فحسب. تغدو أشبه بمجرّد ببغاء... والببغاء لا يفهم ما يقوله، لكنه يستطيع قوله صحيحاً بشكل مطلق وباللفظ الصحيح. ويمكنك تعليمه ما شئت. اللغات القديمة كلّها تعتمد على الذاكرة.

ويعتمد كلّ النظام التربوي في العالم على الذاكرة. فلا يُسأل التلميذ في الامتحانات عمّا يبيّن ذكاءه، بل عمّا يبيّن ذاكرته، عن مدى ما يتذكّره من كتب الدراسة. وهذا أحد أسباب تخلُّف ذهنك. فقد استخدمتَ الذاكرة كما لو أنّها ذكاؤك، وهذا سوء فهم خطير للغاية. ولأنّك تعرف وتتذكّر وتتمكّن من الاستشهاد بكتبك المقدّسة، تشرع في التفكير بأنّك راشد وناضج وصاحب معرفة وحكيم.

وتلك هي المشكلة، وهي أنّك تشعر.

لستُ رجلاً ذا ذاكرة. ويتمثّل جهدي هنا في إثارة تحدّ داخلك لتبدأ بالتحرُّك نحو ذكائك.

لا جدوى من مقدار ما تتذكّر. ذلك أن المغزى هو في مقدار ما اختبرتَه بنفسك. وأنت في حاجة إلى ذكاء كبير لاختبار العالم الباطني، والذاكرة لا تنفع. يمكنك إذا أردت أن تكون علاّمة، أستاذاً، مفكّراً، أن تستظهر الكتب المقدّسة. ويمكنك أن تفخر جدّاً بأنكّ تعرف هذا القدر. وسيعتقد الآخرون أنك تعرف هذا القدر، لكن ذاكرتك ليست، في العمق، إلا جهلاً.

لا يمكنك، قبالتي، أن تخفي جهلك. وأنا أحاول بكلّ الطرائق المتاحة أن أضع جهلك أمامك، لأنّك كلّما بكّرتَ في إدراكه بكّرت في التخلّص منه. وأن تعرفَ هو اختبار جميل تبدو معه المعرفة المستعارة مجرّد حماقة.

سمعت عن رئيس أساقفة اليابان. أراد هداية أحد معلّمي «الزن» إلى المسيحيّة. فذهب إلى المعلّم، وهو لا يفقه أي شيء عن العالم الباطني. واستُقبل بمحبّة كبيرة وباحترام.

فتح إنجيله وشرع يقرأ موعظة الجبل. أراد أن يؤثّر في معلّم «الزن»: نحن نتبع هذا الرجل. ما رأيك في هذه الكلمات، وفي الرجل؟

قرأ آيتين فقط، وقال معلّم «الزن»: «هذا يكفي. أنت تتبع رجلاً صالحاً، لكنّه كان يتبع رجالاً صالحين آخرين. فلا أنت تعرف ولا هو يعرف. عد إلى ديارك».

صُدم رئيس الأساقفة جدّاً. وقال: «عليك على الأقل أن تدعني أكمل القراءة كلّها».

قال معلّم «الزن»: «لا مجال هنا للهراء. إذا كنت تعرف شيئاً فقله. أغلق الكتاب! لأنّنا لا نؤمن بالكتب. أتبحث في كتب ميتة وأنت تحمل الحقيقة في كينونتك؟ عد إلى ديارك، وانظر في داخلك. وإذا وجدت فيه شيئاً فعد. وإذا اعتقدت أن هذه الآيات التي كرّرتها عليّ هي من يسوع المسيح، فأنت مخطئ».

اكتفى يسوع المسيح بترداد العهد القديم. وحاول طوال حياته إقناع الناس بـ «أنني آخر أنبياء اليهود». لم يسمع قط بعبارة مسيحي، لم يسمع بعبارة مسيح. فقد وُلد يهودياً وعاش يهودياً ومات يهودياً. وتمثّل جهده كلّه في إقناع اليهود بـ «أنني النبي المُنتظَر، المخلّص الذي وعد به موسى. وقد جئتُ».

استطاع اليهود أن يغفروا له... فاليهود ليسوا أشخاصاً سيّئين. وهم أيضاً ليسوا عنيفين. لا يصحّ أن يكون الذكيّ عنيفاً. فأربعون بالمئة من جوائز نوبل تُمنح ليهود؛ والستون بالمئة لباقي العالم. وهذا لا يتناسب أبداً مع أعدادهم. ولَما قام مثل هؤلاء القوم الأذكياء بصلب يسوع لو أنّه قال شيئاً نابعاً من خبرته الشخصيّة. لكنّه كان يقول أموراً ليست من خبرته، مستعارة كلّها. وادعى مع ذلك أنّها له. وما استطاع اليهود غفران مثل عدم الأمانة هذه.

وبخلاف ذلك، لم يتسبّب يسوع في أي مشكلة لأي أحد. شكّل مصدراً قليلاً للإزعاج. ومثل شهود يهوه، أو جماعة هاري كريشنا تماماً، يشكّل هؤلاء مصدراً ضئيلاً للإزعاج. فإذا أمسكوا بك، فلن يستمعوا إليك. وسوف يواصلون إسداءك كلّ أنواع الحكمة والنصح، وأنت لست مهتمّاً، وتمضي للقيام بعمل آخر ما، وتريدهم أن يدعوك وشأنك. لكنّهم صمّموا على خلاصك. ولا يهم إن أردت أن تخلص أو لم تُرِدْ، عليك أن تخلص.

حدث أنني كنت جالساً على مقربة من الغانج في اللّه أباد، والشمس آخذة في المغيب. شرع رجل في الصياح من المياه، «أنقذوني! أنقذوني!»، وأنا لست مهتمّاً بإنقاذ أحد. نظرت من حولي... إذا اهتمّ شخص ما بإنقاذه، يكون أول من ينتهز الفرصة. لكن لم يكن هناك أحد، فاضطررت في النهاية إلى القفز.

واجهت صعوبة؛ فهو رجل ثقيل الوزن. يعيش أسمن رجال الهند في اللّه أباد وفي فاراناسي، حيث الرهبان البرهمان والهندوس لا يفعلون شيئاً سوى الأكل. تمكّنت بطريقة ما من سحبه. وأصابه الغضب، قائلاً: «لمَ سحبتني؟».

قلت: «هذا أمر! أخذتَ تطلب المساعدة، وتصرخ، 'أنقذوني!'».

قال، «ذلك لأنّني شرعت في الخوف من الموت. لكنّني كنت أقدم في الواقع على الانتحار».

أجاب قائلاً: «آسف، لم أمتلك أي فكرة عن أنّك تحاول الانتحار».

عاودت دفع الرجل إلى الماء! وشرع في الصياح من جديد، «النجدة!».

قلت: «ما عليك إلاّ أن تنتظر قدوم شخص آخر. سأجلس في مكاني وأشاهدك وأنت تُقدِم على الانتحار».

قال: «أي نوع أنت من الرجال؟ أنا أموت!».

قلت، «مت! هذا شأنك!».

لكن هناك أشخاصاً مصمّمون على إنقاذك.

قال معلّم «الزن» لرئيس الأساقفة: «كان يسوع يكرّر قدامى الأنبياء. وأنت تكرّر يسوع. والتكرار لن ينفع أحداً. أنت تحتاج إلى تجربتك الخاصة، هذا هو الخلاص الوحيد، التحرّر الوحيد».

من الجيّد أنّك بدأت تفهم أن ذهنك يتصرّف كالولد، بغير نضج. تذكّر من الذي يراقب الذهن الطفولي، غير الناضج، وكن مع المراقب. اسحب كلّ ارتباطاتك من ذهنك، فما الذهن إلا آليّة؛ وسيبدأ الذهن بالعمل بصورة رائعة. ما إن يتيقّظ مراقبك حتى يبدأ ذكاؤك، للمرّة الأولى، بالنمو.

الذاكرة عمل يجيده الذهن. لكن المجتمع أثقل على الذهن بالذكاء، وهذا ليس عمله. وهو ما عرقل ذاكرته. ولم يجعلك ذلك أكثر ذكاء، بل أحدث خللاً في ذاكرتك وجعلها عرضة للخطأ.

تذكّر دوماً: أن عينيك للنظر، فلا تحاول الاستماع بهما. وأذنيك للسمع، فلا تحاول الرؤية بهما. وعلى الرغم من أن عينيك بخير تام وأذنيك بخير تام، فأنت تحاول العمل بآليّة ليست مخصّصة لذلك.

إذا كان مراقبك صافياً، فسيتولّى الجسم العناية بوظائفه، وسيعتني الذهن بوظائفه. ولا يتدخّل أحد في عمل الآخر.

وتصير الحياة تناغماً، فرقة موسيقيّة.

أشعر أحياناً بأنني مشوّش الذهن، كما لو أنني أفقد ذاكرتي.

على الذاكرة أن تختفي تماماً في أحد الأيّام. وإذا أخذتْ في الاختفاء فتلك علامة جيّدة. أن تُمسَح الذاكرة يعني أن يُمسح الماضي، ويعني مسح الماضي أنّك منفتح كلّياً على المستقبل وحاضر له. فالذاكرة ليست من المستقبل، بل هي من الماضي؛ إنّها مقبرة دائمة. والمستقبل ينتمي إلى الحياة، إلى الذكاء، إلى الصمت، إلى التأمّل. ولا ينتمي إلى الذاكرة.

ما إن يصبح المرء متنوّراً حتى لا يعود يعمل من الذاكرة، بل يعمل بطريقة عفويّة. وتأخذ العفويّة رويداً رويداً، حتى وأنت في الطريق إلى التنوّر، في الحلول محل الذاكرة. فالذاكرة هي أسلوب الإنسان غير الذكي. فمن لا يستطيع الاستجابة الفوريّة للواقع يكون في حاجة إلى نظام الذاكرة ليتمكّن من تذكّر الأجوبة القديمة والمواقف القديمة، وما سبق له أن عمله. إلا أنّ استجابته لا تعود استجابة، بل ردّ فعل. وكلّ ردود الفعل تقصر عن الموقف الذي يواجهك، لأن الموقف يتغيّر باستمرار. أمّا الأجوبة في ذاكرتك فلا تتغيّر. إنها مجرّد سلع ميتة، تبقى على حالها.

ولهذا يجد المرء نفسه، وهو يتقدّم في السن، قد أخذ في الانقطاع عن الجيل الجديد الآخذ في النمو. والخطأ لا يقع على الجيل الجديد، بل على الإنسان المتقدّم في السن الذي لا يمتلك إلاّ الذاكرة، والذاكرة تنتمي إلى الماضي، والماضي لم يعد قائماً. الجيل الجديد أكثر تجاوباً مع الحاضر، وهو ما يخلق الفجوة. يريد الجيل القديم دوماً أجوبة قديمة، كتباً مقدّسة قديمة، قدّيسين قدامى؛ وكلّما أغرقوا في القدم زاد الأمر صحّة.

تحاول الأديان كلّها أن تثبت أن كتبها المقدّسة هي الأقدم، ومن الغريب أنها تريد إثبات ذلك. وهي تتمجّد في قدمها. والواقع هو أنّها كلّما أوغلت في القدم، زاد عدم فائدتها، لأنّها فقدت الاتصال كلّياً مع الواقع. والحقيقة هي أن إنسان الوعي والحكمة، الحي، يستجيب للموقف. وإلا فإن كل الأجوبة ستخفق وتصبح الحياة أكثر فوضى باطراد.

وهكذا، إذا بدأت تفقد ذاكرتك، ووجدت أنّك لا تشعر بأي زيادة مفاجئة موازية للذكاء، فلا تقلق في هذا الشأن. لن تشعر بذلك. فالذكاء دقيق إلى درجة أنّك لا تسمع وقع خطواته. لكنّه سيغيّر شيئاً فشيئاً كامل كينونتك، وفجأة، ما إن يُنجز العمل حتى تفيق من نوم عميق، وتجد نفسك كائناً جديداً، مولوداً جديداً.

إذا أخذت تصير أكثر يقظة وأشدّ ذكاء، فمن أين ستأتي بالطاقة؟ يجب سحب الطاقة المنخرطة والمستثمَرة في الذكريات، ولا ضرر في ذلك. ربّما كان عدم امتلاك ذاكرة جيّدة يشكّل خطراً في السوق العاديّة. لكنّك إذا نظرت إلى عباقرة العالم ستدهش، لأن النقاط الأكثر اشتراكاً بين جميع هؤلاء العباقرة، هي السهو في الذاكرة.

يمضي إديسون في جولة محاضرات في بضع جامعات. وهو يودّع زوجته بحضور الخادمة، قبّل الخادمة اعتقاداً منه أنّها زوجته، ولوّح بيده لزوجته ظنّاً منه أنّها الخادمة. ولم يصدّق السائق الذي أقلّه ما حدث.

قال: «سيّدي، لقد نسيتَ وأشكل عليك الأمر. المرأة التي تلوّح لها بيدك هي زوجتك، والمرأة الأخرى هي الخادمة».

قال: «يا إلهي. ما من ضرر، يمكنني الخروج من السيّارة وتصحيح الأمر». قبّل زوجته ولوّح للخادمة، وقال: «يحدث دائماً أن أنسى أموراً أساسيّة جدّاً».

سافر جورج برنارد شو مرّة في القطار. جاء المدقّق في التذاكر. فتّش برنارد شو في كل مكان، وكاد يشعر أنّه سيصاب بانهيار عصبي، لأنّه لم يتمكّن من العثور على التذكرة. قال المدقّق: «لا تقلق، يا سيّدي. أعرفك، العالم بأسره يعرفك. لا بدّ من أن التذكرة في مكان ما بين أمتعتك، وسأعود في الدورة الثانية ويمكنك عندها أن تبرزها لي، وما من داع للقلق حتى إذا لم تبرزها». لكنّه لم يكن مستعدّاً لما قاله له برنارد شو: «اصمت. أنت لا تدرك مشكلتي. من يبالي بك؟ المشكلة تكمن في أنني إذا لم أعثر على التذكرة. فلن أتمكّن من معرفة وجهتي. وهي مكتوبة على التذكرة. فهل ستقرّر عنّي؟ أنا في ورطة كبيرة، ويجب العثور على التذكرة».

لا بدّ من أنّ المدقّق في التذاكر قد أصيب بالذهول، فذلك وضع غريب. لم يقلق شو من الإمساك به بلا تذكرة، بل ذهب قلقه إلى ما هو أعمق كثيراً. وها هو السؤال المطروح: إلى أين يذهب؟ ولأنّه لم يعثر على التذكرة سيتوجّب عليه العودة إلى المنزل في القطار التالي. لم يستطع أن يتذكّر المكان الذي يقصده.

لكن، في معظم الحالات، تدعو الحاجة إلى الذكاء وليس إلى الذاكرة. وبحسب فهمي للأمور، فإننا إذا أردنا جعل الإنسانيّة أكثر وعياً، أكثر يقظة، أكثر تنوّراً، يجب التوقّف عن التشديد على الذاكرة؛ يجب التشديد على الذكاء.

لكن التركيز في الذاكرة أكثر بساطة للجامعات والأساتذة والمربّين. تطرح خمسة أسئلة. وإذا تمكّن الطالب من استظهار الكتب فسيتمكّن من الإجابة عنها.

اعترى أستاذي القلق الشديد، وقد أحبّني جدّاً، لأنني لم أزعج نفسي قط في شأن الكتب المقرّرة. وساوره الهمّ الكبير: «سيشكّل الأمر صدمة كبرى لنا جميعاً، إذا لم تجب تماماً كما هو مكتوب في الكتب. لديك قدرة التفوّق على الجامعة كلّها، لكنّك بالطريقة التي تتصرّف فيها لا تستطيع حتّى أن تنجح».

قلت: «لا تقلق». لكنّ القلق بلغ منه حدّاً جعله يأتي في الصباح الباكر من كل يوم ليقلّني من النزل إلى قاعة الامتحان. لم يكن متأكّداً من ذهابي، من ذاكرتي.

وكان يبقى واقفاً إلى أن أذهب ويقول للفاحص: «أبق عينك على هذا الطالب، لا تدعه يخرج من القاعة قبل انقضاء الساعات الثلاث، لأنّه قد يجيب في غضون ساعة ويرحل. أجبرْه، سواء أجاب أم لم يجب، على البقاء هنا لثلاث ساعات».

قلت: «هذا غريب...». لكنّ الفاحصين استمعوا إليه، لأنه كان أيضاً عميد كلّية الفنون.

فوجئ جميع أساتذتي، ونوّاب رئيس الجامعة، والجميع، لحلولي الأول في الجامعة، ونَيلي الميداليّة الذهبيّة. لم يتوقّع أحد ذلك. لكن وقعت المصادفة. كان البروفسور راناد واحداً من أشهر الأساتذة في جامعة اللّه أباد... ويُشتَهر عنه أنه، طوال حياته، لم يمنح المركز الأوّل إلا لشخصين فقط. وهذان الاثنان شكّلا الحد الأدنى. وصعب كثيراً، في ما عدا ذلك، الحصول منه حتى على علامة النجاح. ولم يُعتبَر أستاذاً فحسب بل عُدَّ حكيماً أيضاً. وضع كتباً رائعة بتبصّر كبير؛ ولا يدور أيّ شك حول براعته الفكريّة. وصلت أوراقي مصادفة إلى يديه. وكتب ملاحظة أراني إياها نائب رئيس الجامعة، لأن البروفسور راناد قد كتب: «يجب إطلاع الطالب على هذه الملاحظة». قال: «أنت الشخص الوحيد في حياتي الذي يلبّي رغبتي. لطالما كرهت الأجوبة المستظهَرة؛ أجوبتك نضرة ومختصَرة وبما هو لازم. أنت لست رجل ذاكرة. أردت أن أعطيك مئة من مئة، لكن ذلك قد يبدو مريباً بعض الشيء، ربّما كنت أحابيك. ولذلك أعطيتك تسعة وتسعين من مئة. لكن إذا صدف أن أتيت في أي وقت إلى اللّه أباد، فمُرَّ بي لأني أود لقاءك. أردت هذه الأنواع من الأجوبة. أردت هذه الشجاعة، بدلاً من الإجابة عن السؤال، شكّكتَ في السؤال ودحضت السؤال كلّياً. لم تجب عنه، لعدم وجود ما تجيب به؛ السؤال مناف للعقل. وأنتَ عندما تجيب، فإنك تجيب باللازم. لا أريد أجوبة طويلة كلّها تكرار. كلُّهم ما عداك كتبها، ولم يستخدم أحد ذكاءه».

أدركَ واقع أن الذاكرة محض آليّة؛ فالذكاء هو كنزك الحقيقي. وها قد صار ذلك الآن واقعاً مطلقاً. ولن تُستخدم الذاكرة في المستقبل على الإطلاق، لأنك تستطيع حمل حاسوب صغير في جيبك، وفيه كل الأجوبة عن كل الأسئلة التي يمكن طرحها.

وحتى الأسئلة السخيفة... مثل: في أي يوم تزوّج سقراط؟ أو من هو أوّل إنسان استخدم القوس والنشّاب؟ كلّ شيء يمكن أن يكون جاهزاً. يمكنك الحصول على أي جواب من الحاسوب.

ويمكن تصغير الحواسيب كثيراً إلى درجة تمكّنك من الاحتفاظ بها في جيبك. وقد تكون صغيرة جدّاً حيث يمكنك أن تصنع منها ساعة يد. ستبدو في الظاهر مثل ساعة اليد، لكنّها تحمل في طيّاتها كلّ الأجوبة التي تحتاج إليها. اطرح السؤال، فيأتيك الجواب.

ليس عليك أن تقلق في شأن ذاكرتك. فالمهم هو الذكاء. وعلى الطاقة كلّها أن تتوجّه صوب الذكاء. سيجعلك ذلك تشعر بأنّك خفيف جدّاً. أما بخصوص الذاكرة، فما عليك إلا أن تستخدم دفتر ملاحظات. سجّل كلّ ما هو ضروري وأساسي. وعندها لا يحدث تسرّب. التسرّب في حدّ ذاته لا يحدث أبداً.

خرج بادي وشون وميك في أحد الأيام إلى الصيد، وعثروا على بعض الآثار. وبعد أن أنعموا النظر فيها، قال بادي: «هذه آثار دب».

«لا، لا»، قال شون، «بل هي آثار غزال».

«هاي، ميك» سألاه كلاهما، «ما هي باعتقادك؟».

لكن، وقبل أن يتمكّن من الإجابة، صدمهم القطار.

الذكاء هو الذي سيخلّصك، وليس الذاكرة.

كيف يستطيع العاشقون أن يتصرّفوا بذكاء أكبر؟

تبرز، عند انتقالك إلى علاقة عميقة مع إحداهن، حاجة كبرى إلى أن تكون وحدك. تبدأ بالشعور بأنّك مستنفَد، منهك القوى، تعب، تعب بفرح، تعب بسعادة، إلا أنّ

كلّ إثارة منهِكة. كان دخولك في علاقة جميلاً للغاية، لكنّك تريد الآن الانتقال إلى مزيد من العزلة، لكي تستجمع نفسك من جديد، لتصير فيّاضاً من جديد، لتتجذّر من جديد في كيانك الخاص.

انتقلتَ في الحب إلى الكائن الآخر، وفقدت الاتصال بنفسك. صرت غريقاً، ثملاً. وها أنت في حاجة إلى إيجاد ذاتك من جديد. غير أنّك، وأنت وحدك، تولّد من جديد الحاجة إلى الحب. وسرعان ما ستمتلئ جدّاً حيث تودّ المشاركة. سوف تفيض كثيراً حيث تودّ لقاء مَن تسكب ذاتك فيه، من تعطيه من ذاتك. فالحب ينبثق من الوحدة.

الوحدة تتخمك. والحب يتلقّى هداياك. يفرغك الحب لتتمكّن من الامتلاء مجدّداً. وكلّما أفرغك الحب، تحضر الوحدة لملئك من جديد، الوحدة حاضرة لتغذّيك، لتدمجك. وفي ذلك إيقاع.

اجعل أيضاً امرأتك، تتيقّظ على الإيقاع. يجب تعليم الناس أنّ ما من أحد يستطيع أن يحبّ أربعاً وعشرين ساعة في اليوم؛ يحتاج الأمر إلى فترات من الراحة. ولا يمكن لأحد أن يحب على الطلب. الحب ظاهرة تلقائيّة. تحدث عندما تحدث، وإلّا فلا. لا يمكن فعل شيء حيال الحب. وإذا *فعلت* شيئاً، فستولّد ظاهرة مزيّفة، تمثيلاً.

العشّاق الحقيقيّون، العشّاق الأذكياء، يوقظ بعضهم بعضاً على الظاهرة. «لا يعني عندما أريد أن أكون وحدي أنني أرفضك. لكن الواقع هو أنك، بفضل حبّك، مكّنتني من أن أكون وحدي». وإذا أرادت امرأتك أن تدعها وشأنها لليلة واحدة، أو لبضعة أيّام، فلن تشعر بالأذى. لن تقول أنك رُفضت، وأن حبّك لم يجرِ استقباله والترحيب به. ستحترم رغبتها في أن تكون وحدها لبضعة أيّام. بل إنّك ستسعد في الواقع! كان حبّك غامراً حيث شعرت بأنها فارغة: وها هي تحتاج إلى الراحة لتمتلئ من جديد.

هذا ذكاء.

تعتقد في العادة أنّك رُفضت. تذهب إلى امرأتك، وإذا لم ترغب في أن تكون

معك، أو محبّة كثيراً لك، تشعر برفض كبير. تشعر الأنا الخاصة بك بالأذى. وهذه الأنا ليست أمراً ذكيّاً جدّاً. كل الأنا غبيّة. والذكاء لا يعرف أيّ أنا؛ الذكاء يرى الظاهرة ويحاول أن يفهم سبب عدم رغبة المرأة في أن تكون معك. ولا يعني الأمر أنّها تنبذك؛ فأنت تعرف أنّها أحبتك كثيراً جدّاً، وتحبّك كثيراً جدّاً. لكنها اللحظة التي تريد فيها أن تكون وحدها. ولو أنّك تحبّها فستدعها وشأنها؛ لن تعذّبها، لن تجبرها على ممارسة الحب معك.

وإذا أراد الرجل أن يكون وحده، فلن تفكّر المرأة، «أنه لم يعد مهتمّاً بي، ربّما صار مهتمّاً بامرأة أخرى». المرأة الذكيّة تدع الرجل وشأنه، ليتمكّن مرّة أخرى من استجماع كيانه، ليمتلك من جديد الطاقة التي يشارك بها. ويشبه هذا الإيقاع الليل والنهار، الصيف والشتاء؛ يستمرّ في التغيّر.

وإذا تبادل الشخصان الاحترام، والحب دائم الاحترام، فهو يراعي الآخر، وهو حالة كبرى من العبادة والصلاة، فسوف تتوصّلان شيئاً فشيئاً إلى فهم أكبر فأكبر واحدكما للآخر. وستدرك إيقاع الآخر وإيقاعك. وسرعان ما ستشعر، من باب الحب، من باب الاحترام، أن إيقاعيكما يصيران أكثر فأكثر تقارباً. عندما تشعر بالوصال ستشعر هي الأخرى بالوصال. ينتظم الأمر. ينتظم وحده. إنه تزامن.

هل سبق لك أن راقبت التالي؟ إذا صادفت عاشقين حقيقيّين سترى لديهما أموراً كثيرة متشابهة. العاشقان الحقيقيّان يصيران كما لو أنهما شقيق وشقيقة. وستفاجأ، حتى الأشقاء والشقيقات ليسوا متشابهين. ففي تعابيرهما، في طريقة سيرهما، في طريقة حديثهما، في حركاتهما، يغدو العاشقان متشابهين، وهما مع ذلك على درجة كبيرة من الاختلاف. يحدث ذلك بصورة طبيعية. بمجرّد كونهما معاً يصبحان شيئاً فشيئاً متناغمَيْن. ولا يحتاج العاشقان الحقيقيّان إلى أن يقول أحدهما للآخر شيئاً، فالآخر يفهم على الفور، يفهم بالحدس.

لا تحتاج المرأة، لو أنّها حزينة، إلى قول ذلك، لكن الرجل يفهم ويدعها وشأنها. وإذا كان الرجل حزيناً، تفهم المرأة وتدعه وشأنه، تجد عذراً لتدعه وشأنه. ويفعل الناس الأغبياء عكس ذلك تماماً: لا يدعون الآخرين وشؤونهم، يبقون دوماً معاً، يتعبون ويُضجر بعضهم بعضاً؛ لا يتركون أبداً فسحة للآخرين يسعون فيها.

الحب يمنح الحرّية، يساعد الآخر أن يكون نفسه. الحب ظاهرة متناقضة جدّاً. فهو من ناحية يجعلكما روحاً واحدة في جسدين؛ ويعطيكما من ناحية أخرى فرديّة وفرادة. يساعدكما على طرح ذاتكما الصغيرة، لكنّه يساعدكما أيضاً على بلوغ الذات السامية. وتنتفي عندها المشكلة: فالحب والتأمّل جناحان، يوازن أحدهما الآخر. وأنت بين الاثنين تنمو.

الحب يمنح الحرّية، يساعد الآخر أن يكون نفسه. الحب ظاهرة متناقضة جدّاً. فهو من ناحية يجعلكما روحاً واحدة في جسدين؛ ويعطيكما من ناحية أخرى فرديّة وفرادة.

ينتابني الشكّ، أحياناً في شأن ذكائي.

لا تشرع في التفكير أنك إذا لم تكن ذكيّاً، يراودك السؤال المعهود: فماذا بعد؟ يولد الجميع أذكياء. الذكاء صفة متأصّلة، يولد الجميع أذكياء تماماً كما يولدون وهم يتنفّسون.

فكرة أن قلّة من الناس أذكياء، وقلّة منهم ليسوا أذكياء خاطئة تماماً، وهي تنزع صفة الإنسانيّة عن الكثير جدّاً من الناس. وذلك مهين جدّاً ومذلّ. يولد الجميع أذكياء، ولو أنّ ذكاءهم يختلف من حيث التعبير. فأحدهم ذكي في الموسيقى، وآخر ذكيّ في الرياضيّات، ولو جعلتَ من الرياضيّات معياراً فسيبدو الموسيقي عندها غير ذكي. ولو أخضعتهما لامتحانٍ المعيارُ فيه للرياضيّات، فسيسقط الموسيقي. بدّل المعيار، ودع الموسيقي يكن هو المعيار، وأخضعهما للامتحان الذي تفصل فيه الموسيقى، سيبدو عالم الرياضيّات أحمقَ.

لقد اخترنا معايير معيّنة؛ ولذلك حُكم على الكثيرين من الناس بأنّهم أغبياء، وهم ليسوا كذلك. لم أصادف قط شخصاً واحداً غبيّاً؛ فذلك لا يحدث غير أن ذكاءه قد يكون نوعاً مختلفاً من الذكاء. يحتاج الشعر إلى نوع من الذكاء مختلف عن ذكاء رجل الأعمال. لا يمكن للشاعر أن يكون رجل أعمال،

لم أصادف قط شخصاً واحداً غبيّاً؛ فذلك لا يحدث غير أن ذكاءه قد يكون نوعاً مختلفاً من الذكاء.

ويجد رجل الأعمال صعوبة كبرى في أن يكون شاعراً. يحتاج كون المرء سياسيّاً إلى نوع من الذكاء، ويحتاج الرسّام إلى نوع آخر من الذكاء. وهناك ملايين الإمكانات.

تذكّر: يولد كل امرىء ذكيّاً، ولا يستثني ذلك أحداً. ما عليك إلاّ أن تعثر على ذكائك، أين هو؟ وما إن تعثر عليه حتى تصير واضحاً.

يعيش الناس بلا وضوح، لأنّهم يعيشون مع الفكرة الخاطئة التي كوّنوها عن أنفسهم. ثمة من يقول لك، وهو معلّم، أو أستاذ، أو رب عمل، إنك لست ذكيّاً. لكن معيارهم ليس إلاّ معياراً مختاراً؛ معيارهم لا ينطبق على الجميع. فالجامعات ليست شاملة بعد. وهي لا تسمح بكل نوع من الذكاء، لا تقبل كل مظاهر الذكاء.

ما إن تقبل ذكاءك وتشرع في احترامه، حتى تصبح واضحاً؛ ولن تكون هناك من مشكلة.

يشعر الشاعر بأنه غبي لأنّه لا يستطيع أن يكون رجل أعمال جيّداً. وهو ما يولّد إرباكاً. يصير دون المستوى في عين نفسه، ويصدر الأحكام. يحاول النجاح في الأعمال، لكنّه لا يستطيع. وهو ما يخلق الكثير من الدخان من حوله. ولو أنه يفهم فحسب أنّه شاعر، ولم يُقدّر له أن يكون رجل أعمال، وأن نجاحه كرجل أعمال هو بمثابة انتحار له، وأن عليه أن ينجح كشاعر... ذلك هو ذكاؤه، وعلى ذكائه أن يزهر بطريقته الخاصة. ليس عليه تقليد شخص آخر. ويحتمل ألّا يشتري المجتمع الشعر الذي ينظمه، لأنّ الحاجة لا تدعو إلى الشعر بالقدر الذي تدعو فيه إلى القنابل. ولا تدعو الحاجة إلى الحب بالقدر الذي تدعو فيه إلى الحقد.

لذلك يُسمح بالقتل في الأفلام وعلى الراديو وفي التلفزيون؛ ولا يوصف ذلك بالفاحش. لكن ممارسة الحب تُعتبر فاحشة. فهذا المجتمع يعيش من خلال الحقد وليس من خلال الحب. إذا ارتكب شخص ما جريمة قتل، فلا بأس بذلك أبداً. ولو أن شخصاً ما طعن قلبك بالخنجر واندفع الدم كالينبوع، فلا بأس بذلك أبداً. لكنّ المجتمع يخاف متى عانقك شخص، وقبّلك.

من الغريب أن الحب فاحش والقتل لا، وأنّه يُحكم على العاشقين ويُكافأ الجنود، وأن الحرب محقّة والحب خاطئ.

لو أنّك تقبل ذكاءك، لو أنّك تقبل نفسك، ستصير واضحاً، واضحاً تماماً؛ وتختفي كل الغيوم.

كيف أدعم نموّ ذكائي؟

كن في البداية أكثر يقظة في الأمور الصغيرة. وصرْ، وأنت تسير على طول الطريق، أكثر يقظة، حاول أن تكون أكثر يقظة. لا تحتاج إلى أي يقظة في عملية بسيطة مثل السير على طول الطريق. يمكنك أن تبقى غبيّاً وتسير في شكل جيّد. ذلك ما يفعله الجميع. فالغباء لا يعرقلك أبداً. ابدأ من الأمور الصغيرة. كن يقظاً وأنت تستحمّ؛ صرْ يقظاً جدّاً وأنت تقف تحت المرذاذ. ذلك الماء البارد الذي ينهمر عليك، والجسم يستمتع به... صرْ كثير اليقظة، صرْ واعياً لما يحدث، كن مسترخياً ولكن واعياً.

ويجب استحضار لحظة الوعي هذه. المرّة تلو المرّة، بألف طريقة وطريقة: وأنت تأكل، وتحكي، وتقابل صديقاً، وتستمع إليّ، وتتأمّل، وتمارس الحب. حاول في كل الأوضاع أن تصير أكثر فأكثر يقظة. ذلك شاق، وهو صعب بالتأكيد، لكنّه ليس مستحيلاً. ورويداً رويداً سيختفي الغبار، وسيكشف وعيك الشبيه بالمرآة عن نفسه: ستصير أكثر ذكاء.

عش بعدها بذكاء. فأنت تعيش مرتبكاً جدّاً، بطريقة غبيّة جدّاً، بحيث إذا رأيت أحداً غيرك يعيش بتلك الطريقة ستقول على الفور إنّه غبي. لكنّك تقوم بالأمر نفسه، ولو أن الشخص يتجنّب النظر إلى حياته الخاصة.

جاءني رجل وقال: «ما العمل، يا أوشو؟ وقعت في غرام امرأتين». واحدة تكفي، الواحدة تتسبّب بما يكفي من الأذى، لكنّه وقع في حب امرأتين. وبالتالي فإن كلتيهما في نزاع، وهو مسحوق. وقال: «أنا في حالة بؤس. كلتاهما تتقاتلان عليّ». وهو، بطبيعة الحال، يتلقّى الضربات من الطرفين! ولو قلتُ له، «اخترْ واحدة»، لقال

إنّ ذلك صعب. ويعني هذا أن شخصاً واحداً يمتطي فرسين. قال إنّه يصعب اختيار واحدة. إذاً فليكن، قم بذلك على طريقتك. أنت ستدمّر حياتك. من المحتم أنّ يؤدّي اختيار امرأتين، بوصفهما الكائنين المحبوبين، إلى تمزيقك. وستبدأ بالانهيار.

هذا غباء. ويسهل جدّاً النظر في الظاهرة. وربّما صعب أحياناً. ومع ذلك فإن على المرء الاختيار. لا يمكنك المضي في كل الاتجاهات في آن.

سترى، لو نظرتَ إلى حياتك، إلى أي مدى أنت تتصرّف بعدم ذكاء. تطالع كتاباً وتراكم المعرفة وتشرع في الاعتقاد بأنّك تعرف. تعلّمت كلمة *اللّه* وتعتقد أنّك قد عرفت اللّه. وأنت على استعداد للمجادلة، ليس المجادلة فحسب، بل أنت على استعداد أيضاً لتَقتل أو تُقتَل. كم من المسلمين وكم من الهندوس وكم من المسيحيّين قُتلوا في سبيل شيء قرأوا عنه فقط في كتاب! هم أشخاص لهم قناعات قد لا توافقنا. أحدهم يحارب من أجل القرآن، وآخر يحارب من أجل الغيتا، وآخر يقاتل من أجل الكتاب المقدّس، تقاتلون من أجل كتب وتقتلون أشخاصاً أحياء، وتضحّون بحياتكم القيّمة للغاية! ما الذي تفعلونه؟

لكن الإنسان تصرّف بطرائق غبيّة، ولمجرّد أن الجميع يتصرّفون بالطريقة ذاتها لا يجعل من الأمر شيئاً ذكيّاً. ولو أنّهم جميعهم حمقى فلا يجعل منك ذلك ذكيّاً، لأنّك تتبعهم.

تناهى إليّ أن...

سرباً من الطيور كان يحلّق في السماء، وسأل طيرٌ آخر: «لمَ نتبع دوماً هذا القائد الأحمق؟».

وقال الآخر: «لا أدري. سمعتُ أنّه وحده الذي يمتلك الخريطة».

الخريطة؟! ما من أحد يمتلك الخريطة. لكنّك تواصل اتباع البابا، والشانكراشاريا، والمثقّف، والسياسي، وتعتقد أنّهم يمتلكون الخريطة، تعتقد أنّهم يعرفون. انظر إلى حياتهم، ما الذي يعرفونه؟ ربّما كانوا أكثر غباء منك. انظر فقط إلى طريقة حياتهم غير الذكيّة. راقبْها. أهم سعداء؟ أشهدت حياتهم رقصة؟ أيضوع في حياتهم أريج؟

هل تشعر، بمجرّد النظر إليهم، أن الصمت يهطل عليك؟ لا شيء من هذا القبيل. ولا معنى لاتباعهم لمجرّد أنّهم يمتلكون كتاباً قرأوه ودرسوه على مدى سنوات.

صرْ إنسان معرفة، وليس إنسان معارف. وعندها ستعيش بذكاء.

الذكاء، في نظري، هو أساس الأخلاق، أساس الفضيلة. لو أنّك ذكي فلن تؤذي أحداً لأن في ذلك حماقة. ولو أنّك ذكيّ فلن تؤذي نفسك لأن في ذلك حماقة. الحياة ثمينة جدّاً، فلا ينبغي إهدارها؛ يجب أن تعاش في احتفال عميق، في امتنان كبير.

عشْ كلّ لحظة وأنت تدرك كلّياً وتماماً أنّك لن تندم لاحقاً على ما لم تعشه، وكان بمقدورك أن تعيشه، وتتمتّع به. ذلك هو الذكاء: أن تعيش الحياة بكلّيتها.

وعلى المرء أن يكون شديد الحذر واليقظة، لأن اللحظة التي تمضي، إنّما تمضي إلى الأبد. ولن تعود أبداً. فلو أهدرتها بغباء فأنت تضيّع فرصة عظيمة. عشْ كلّ لحظة وأنت تدرك كلّياً وتماماً أنّك لن تندم لاحقاً على ما لم تعشه، وكان بمقدورك أن تعيشه، وتتمتّع به. ذلك هو الذكاء: أن تعيش الحياة بكلّيتها. يكون المرء دائم الرضى. يعرف المرء أنّه قد عاش إلى الحد الأقصى.

الخاتمة

إعادة اكتشاف الذكاء من خلال التأمّل

يحتوي الذهن على مفتاح تشغيل. واسم المفتاح التيقّظ، الإدراك، المشاهدة. وإذا شرعتَ في مشاهدة الذهن؛ سيبدأ في التوقّف. وكلّما توسّعت المشاهدة، ازداد إدراكك للمفتاح السرّي. ويمكن إيقاف عمل الذهن بسهولة. وعندما تتمكّن من إطفاء الذهن لساعات، ستشكّل تلك اللحظة تحرّراً كبيراً. وعندما يعود، عندما تستدعيه، يرجع متجدّداً، نضراً.

لذلك، من المحتّم أن يكون المتأمّلون أكثر ذكاء من غيرهم. وإذا لم يكونوا كذلك، فإن تأمّلهم مزيّف، ولا يعرفون بالتالي ما هو التأمّل؛ وهم يقومون بأمر آخر باسم التأمّل. يتّجه الشخص المتأمّل إلى أن يكون أكثر إحساساً، أكثر ذكاء، أكثر إبداعاً، أكثر حبّاً، أكثر عطفاً. وتنمو هذه الفضائل من تلقاء نفسها. ويكمن السرّ كلّه في أمر واحد: أن تتعلّم كيف توقف الذهن. وفي اللحظة التي تعرف فيها كيف توقف الذهن تصير السيّد، ويمسي الذهن عندها آليّة جميلة. تستخدمه عندما تريد استخدامه، عندما تدعو الحاجة إليه، وتطفئه من ثَمّ.

ما هو التأمّل؟ هل هو تقنيّة يمكن ممارستها؟ أهو مجهود عليك بذله؟ أهو أمر يمكن للذهن إنجازه؟ إنّه ليس ذلك.

لا يمكن كلّ ما يفعله الذهن أن يشكّل تأمّلاً، إنه أمر يتجاوز الذهن، والذهن

هنا عاجز تماماً. لا يمكن للذهن ولوج التأمّل؛ فالتأمّل يبدأ حيث ينتهي الذهن. وهو ما يجب تذكّره، لأنّ كلّ ما نفعله في حياتنا إنّما نفعله من خلال الذهن؛ وكل ما ننجزه إنّما ننجزه من خلال الذهن. وعندما نستدير إلى الداخل، نشرع من جديد في التفكير بعبارات التقنيّة والأساليب والأفعال، لأنّ مجمل خبرة الحياة تظهر لنا أننا بالذهن نستطيع فعل كلّ شيء. نعم. كلّ شيء يمكن أن يجري عبر الذهن، باستثناء التأمّل. لأنّ التأمّل ليس إنجازاً، إنّه الحالة بالفعل، إنّه طبيعتك. ولا يتوجّب إنجازه؛ بل يجب فقط تعرُّفه، يجب تذكّره فحسب. فهو ماثل في انتظارك، متوفّر بمجرّد تشغيل الزر. أنت تحمله معك دائماً وأبداً.

التأمّل ليس إنجازاً، إنّه الحالة بالفعل، إنّه طبيعتك. ولا يتوجّب إنجازه؛ بل يجب فقط تعرُّفه، يجب تذكّره فحسب. فهو ماثل في انتظارك، متوفّر بمجرّد تشغيل الزر. أنت تحمله معك دائماً وأبداً.

التأمّل هو طبيعتك المتأصلّة، إنه أنت، إنّه كيانك، ولا علاقة له البتّة بأفعالك. لا تستطيع الحصول عليه، ولا تستطيع فقده، لا يمكن امتلاكه. إنّه ليس شيئاً، إنّه أنت. إنّه كيانك.

ما إن تفهم ماهيّة التأمّل حتى تتضح الأمور جدّاً. وإلا فسوف تواصل تلمّس طريقك في الظلام.

التأمل حالة وضوح، وليس حالة ذهنيّة. فالذهن ارتباك. والذهن ليس واضحاً أبداً، لا يمكنه ذلك. تولّدُ الأفكارُ الغيوم من حولك، وهي غيوم دقيقة، تخلق سديماً ويتبدّد الوضوح. وعندما تختفي الأفكار، عندما لا يعود هناك من غيوم حولك، وعندما تكون في كينونتك البسيطة، يحدث الوضوح. تستطيع عندئذ الرؤية إلى البعيد؛ تستطيع آنذاك الرؤية حتى نهاية الوجود؛ وعندها تصير نظرتك ثاقبة عمق أعماق الكيان.

التأمّل هو الوضوح، الوضوح المطلق، في الرؤية. لا يمكنك التفكير في شأنه. عليك التخلّي عن التفكير. وعندما أقول: «عليك التخلّي عن التفكير»، لا تتسرّع في

القفز إلى الاستنتاج، لأن عليّ أن أستخدم اللغة. وبالتالي أقول: «تخلَّ عن التفكير»، لكنّك إذا شرعت في *التخلّي* ستخطئ، لأنك ستختزله من جديد إلى عملية فعل.

يعني «تخلّ عن التفكير» ببساطة: لا تفعل شيئاً. اجلس. دع الأفكار تسوّ نفسها. دع الذهن يسقط من تلقاء نفسه. اجلس وأنت تحدّق إلى الجدار، في زاوية صامتة، لا تفعل أي شيء على الإطلاق، مسترخياً، طليقاً، من دون أي جهد. لا تذهب إلى أي مكان. كما لو أنك في غفوة اليقظة، أنت مستيقظ ومسترخ لكنّ جسمك كلّه يغط في النوم. تبقى متيقّظاً من الداخل، لكنّ جسمك كلّه ينتقل إلى استرخاء عميق.

الأفكار تسوّي نفسها بنفسها، ولا حاجة بك إلى القفز بينها، ولا تحتاج إلى ترتيبها. الأمر أشبه بالجدول وقد بات موحلاً... فماذا تفعل؟ هل تقفز إلى الجدول وتشرع في مساعدته ليصفو؟ أنت بذلك تزيد في وحلته. ستكتفي بالجلوس عند الضفّة. وتنتظر. ليس ثمة ما تفعله. لأنك مهما فعلت ستزيد في توحُّل الجدول. ولو أنّ أحدهم عبر الجدول وطفت الأوراق الميتة وظهر الوحل، فسوف يحتاج الأمر إلى الصبر فقط. تجلس ببساطة عند الضفّة. تراقب بلا اهتمام. وسيجرف الجدول مع استمرار انسيابه الأوراق الميتة، وسيبدأ الوحل بالاستقرار، لأنه لا يستطيع البقاء طافياً إلى الأبد.

ستدرك، بعد فترة، فجأة، أن الجدول عاد صافياً كالبلّور.

كلّما خطرت لك رغبة، يصير الجدول موحلاً. وما عليك سوى الجلوس. لا تحاول القيام بشيء. في اليابان، يطلق على هذا «الاكتفاء بالجلوس» اسم *زازن*؛ الاكتفاء بالجلوس وعدم القيام بشيء. وفي يوم من الأيام، يحدث التأمّل. فأنت لا تستطيع جلبه إليك؛ إنه يأتيك من تلقائه. وعندما يأتي، تتعرّف إليه على الفور؛ فهو لطالما كان موجوداً، لكنّك لم تكن تنظر في الاتجاه الصحيح. كان الكنز معك لكنّك انشغلت في مكان آخر، في الأفكار، في الرغبات، في ألف أمر وأمر. لم تهتم بالأمر الواحد الوحيد... وهو كيانك الذاتي.

تذكّر أن التأمّل سيجلب لك المزيد والمزيد من الذكاء، ذكاء لا ينتهي، ذكاء متوهّج. سيجعلك التأمل أكثر حياة وإحساساً؛ وتغدو حياتك أغنى.

يمكنك الدخول في التأمّل بمجرّد الجلوس، لكن عليك عندها أن تجلس، ولا تفعل أي شيء آخر. لو أمكنك مجرّد الجلوس، لبات تأمّلاً. كن في وضع الجلوس التام؛ ويكون عدم الحركة هو حركتك الوحيدة. تُشتق كلمة «زن» في الواقع من عبارة *زازن*، التي تعني مجرّد الجلوس وعدم القيام بشيء. لو أمكنك الاكتفاء بالجلوس، من دون أن تفعل شيئاً بجسمك أو بذهنك، لغدا ذلك تأمّلاً؛ لكنّه صعب.

يمكنك الجلوس بسهولة كبيرة عندما تقوم بشيء آخر. لكن في اللحظة التي تكتفي فيها بالجلوس وعدم القيام بشيء، سيصير ذلك مشكلة. يأخذ كلّ جزء من جسمك في التحرّك في الداخل؛ يشرع كلّ عرق، كلّ عضلة في التحرّك. تشعر بارتجاف غير ملحوظ؛ تصبح مدركاً لنقاط كثيرة في جسمك لم يسبق لك أن أدركتها من قبل. وكلّما حاولت الاكتفاء بمجرّد محاولة الجلوس، شعرت بمزيد من الحركة في داخلك. ولا يمكن بالتالي استخدام الجلوس إلا إذا قمت أوّلاً بأمور أخرى.

يمكنك الاكتفاء بالسير، وذلك أسهل. يمكنك الرقص، وذلك أكثر سهولة. وبعد أن تقوم بأمور أخرى أسهل فأسهل، يمكنك الجلوس. وآخر ما عليك فعله، حقّاً، هو الجلوس في وضعيّة بوذا؛ لا ينبغي القيام بها أبداً في البداية. ولا يمكن أن يبدأ إحساسك بالتماهي الكلّي مع عدم الحركة إلاّ بعد أن تشعر بالتماهي التام مع الحركة.

لذلك، لا أطلب أبداً من الناس البدء بمجرّد الجلوس. ابدأ حيث البداية سهلة، وإلا فسوف تشعر بأمور كثيرة لا داعي لها، أمور لا وجود لها.

ستشعر، متى جلست، بكثير من الاضطراب الداخلي. وكلّما حاولت الاكتفاء بالجلوس، زاد الشعور بالاضطراب؛ وستصبح مدركاً لذهنك المجنون، ولا شيء سواه. وسيولّد ذلك الاكتئاب، وستشعر بالإحباط. لن تشعر بالغبطة؛ بل ستشعر بدلاً من ذلك بأنّك مجنون. وربّما أصبت يوماً بالجنون.

لو بذلت جهداً صادقاً «لمجرّد الجلوس»، لأُصبت فعلاً بالجنون. ولا يحدث الجنون مراراً إلا لأن الناس لا يحاولون فعلاً بصدق. وستشرع، في وضعيّة الجلوس، بمعرفة الكثير جدّاً من الجنون الذي في داخلك. فلو أنّك صادق وواصلت ذلك، فقد

تصاب فعلاً بالجنون. حدث ذلك مرّات كثيرة جدّاً من قبل. ولا أقترح بالتالي ما من شأنه أن يتسبّب في الإحباط والاكتئاب والحزن، أيّ ما من شأنه أن يجعلك مدركاً أكثر من اللازم لجنونك. قد لا تكون مستعدّاً لتدرك كلّ الجنون الكامن في داخلك؛ ويجب أن يُسمح لك بمعرفة الأمور بالتدريج. فالمعرفة ليست جيّدة دوماً؛ بل يجب أن تتكشّف ببطء مع نمو قدرتك على استيعابها.

ابدأْ بجنونك، وليس بوضعية الجلوس؛ فأنا أسمح بجنونك. فلو أنّك رقصت بجنون، لحدث العكس في داخلك. تبدأ، مع الرقصة الجنونيّة، برؤية النقطة الصامتة في داخلك؛ وبجلوسك صامتاً، تبدأ بإدراك جنونك. العكس هو دوماً نقطة الإدراك. وأنا، برقصك الجنوني، الفوضوي، بصراخك، بتنفّسك الفوضوي، أسمح بجنونك. سوف تدرك نقطة خفيّة، نقطة عميقة في داخلك صامتة وساكنة، على نقيض الجنون عند السطح الخارجي. ستشعر بالغبطة الشديدة؛ وسوف يشيع في صميمك صمت باطني. لكنّك لو اكتفيت بالجلوس، لكان الداخل هو المجنون؛ أنت صامت في الخارج، لكنّك مجنون في الداخل.

من الأفضل أن تبدأ بشيء ناشط، شيء إيجابي، حيّ، متحرّك؛ وستشعر عندها أن سكونك الداخلي آخذ في النمو. وكلّما ازداد نموّاً، ازدادت إمكانيّة استخدامك وضعيّة الجلوس أو وضعيّة التمدّد، وازدادت إمكانيّة التأمّل الصامت. لكن الأمور، عند ذلك الحدّ، ستكون مختلفة، تمام الاختلاف.

تقنيّة التأمّل التي تبدأ بالحركة والفعل تساعدك أيضاً بطرائق أخرى. تصير تفريجاً نفسيّاً. تُحبَطُ عندما تكتفي بالجلوس؛ ذلك أن ذهنك يريد التحرّك وأنت تكتفي بالجلوس. كلّ عضلة تدور، كل عصب يدور. فأنت تحاول أن تفرض على نفسك أمراً ليس طبيعيّاً لك؛ وتكون بذلك قد جزّأت نفسك إلى ذلك الذي يفرض وإلى ذلك الذي يُفرَض عليه. بيد أن الجزء الذي يخضع لعمليّة الفرض والكبت، هو في الحقيقة الجزء الأكثر أصالة؛ وهو جزء من ذهنك أكبر من الجزء الذي يَكبُت، ومن المحتّم على الجزء الأكبر أن يربح.

ويجب في الواقع رمي الذي تكبته، وليس كبته. فقد تحوّل إلى تراكم في داخلك لأنك عمدت دوماً إلى كبته. إن كلّ التنشئة والحضارة والتربية كناية عن عمليّة كبت. فأنت عمدت إلى كبت الكثير مما أمكن رميه بسهولة كبيرة مع تربية مختلفة، مع تربية أكثر وعياً بكثير، مع دور للوالدين أكثر إدراكاً. ولكانت الثقافة سمحت لك برمي الكثير من الأمور، لو توفّر إدراك أكبر لآليّة الذهن الداخليّة.

نحن، على سبيل المثال، نقول للولد عندما يغضب: «لا تغضب». ويشرع في كبت الغضب. ومع الوقت، يتحوّل الحدث المؤقّت إلى دائم. وها هو يكفّ عن التصرُّف بغضب، لكنّه سيبقى غاضباً. لقد راكمنا الكثير جدّاً من الغضب من مجرّد أمور مؤقّتة؛ ما من أحد يستطيع الغضب باستمرار، إلا إذا كُبِت الغضب. الغضب أمر مؤقّت يأتي ويزول. وإذا جرى التعبير عنه، فلن تبقى بعدها غاضباً. وهكذا، سأسمح، في ما يتعلّق بي، للولد بأن يغضب بصدق أكبر. كن غاضباً، لكن تعمّق فيه؛ لا تكبته.

ستنشأ مشكلات، بالطبع. لو قلنا: «كن غاضباً»، فستغضب عندها على أحد ما. لكن بالإمكان قولبة الولد؛ كأن يُعطى وسادة ويُقال له: «اغضب على الوسادة. كن عنيفاً مع الوسادة». يمكن، منذ البداية بالذات، تنشئة الولد بطريقة يمكن معها تحويل مسار الغضب. يمكن إعطاؤه غرضاً ما، فيستمرّ في رميه إلى أن يزول غضبه. ونكون في غضون دقائق، في غضون ثوان، قد بدّدنا غضبه، فلا يتراكم.

لقد راكمتَ الغضب والجنس والعنف والطمع وكل شيء! وها هو هذا التراكم قد بات جنوناً في داخلك. ولو شرعت في التأمّل الكبتي، أي الاكتفاء، مثلاً، بالجلوس، لكبتّ كلّ ذلك، ولم تسمح له بالتحرّر. وهكذا فإنني أبدأ بالتفريج النفسي. في البداية، ارمِ المكبوتات في الجو، فأنت قد صرت ناضجاً.

إذا لم أتمكّن من الحبّ وحدي، إذا أمكنني فقط الحب مع شخص أحبّه، فأنا لم أنضج حقّاً بعد. وأنا أعتمد بالتالي على شخص لأكون محبّاً؛ لا بُدّ من وجود شخص لأتمكّن من أن أكون محبّاً. وعندها لا يمكن لهذه المحبّة إلاّ أن تكون أمراً سطحيّاً جدّاً؛ إنها ليست طبيعتي. ولو أنّني وحدي في الغرفة فأنا لست محبّاً على الإطلاق، وفضيلة المحبّة لم تذهب إلى العمق؛ لم تصر جزءاً من كياني.

تصيرُ أكثر فأكثر نضجاً عندما تكون أقل فأقل اعتماداً على الآخرين أو على شيء ما. إذا أمكنك أن تغضب وحدك فأنت أكثر نضجاً. لا تحتاج إلى أي أمر لتغضب. وهكذا تجعل في البداية من التفريج النفسي أمراً واجباً. عليك أن ترمي كلّ شيء في الجو، في الفضاء الرحب، من دون أن تعي أي غرض.

اغضب من دون الشخص الذي تودّ الغضب عليه. انتحب من دون العثور على أي سبب؛ اضحك، اضحك فحسب، من دون وجود ما تضحك عليه. عندها يمكنك رمي كل ما تراكم، يمكنك رميه فقط. وما إن تعرف الطريق حتى يسقط عنك حمل الماضي كلّه.

يمكنك، في غضون لحظات، التخلّص من حمل الحياة، بل الحيوات كلّها. لو أنّك مستعدّ لرمي كلّ شيء، لو تسمح لجنونك بالخروج، لحصلت في غضون لحظات عمليّة تطهير تامة. وها أنت قد تطهّرت. وغدوت نضراً، بريئاً وعدت طفلاً من جديد. يصبح ممكناً الآن، مع براءتك، القيام بالتأمّل الجالس، أي مجرّد الجلوس، أو مجرّد الاستلقاء، أو أي شيء لخلوّ الداخل من جنون يعرقل عمليّة الجلوس.

يجب أن يحدث التطهير، أي التفريج النفسي، أوّلاً؛ وإلاّ فإنك باعتماد تمارين التنفّس، بمجرّد الجلوس، بممارسة وضعيّات اليوغا، تقوم بكبت شيء ما ليس إلّا.

عندما يأتيك الصمت، عندما يهبط عليك، فلا يكون مزيّفاً. أنت لم تعمد إلى رعايته؛ بل يأتي إليك؛ يحدث لك. تشعر به ينمو في داخلك، تماماً كما تشعر الأم بالطفل ينمو. ينمو في داخلك صمت عميق؛ تصير حاملاً به. عندها فقط يحدث التحوّل؛ وإلا فإن الأمر مجرّد خداع للذات. ويمكن المرء أن يخدع نفسه لحيوات وحيوات، ذلك أن قدرته على الخداع لا متناهية للغاية.

يمكن عادة اكتشاف الذكاء. والطريقة الوحيدة لإعادة اكتشافه هي التأمّل. ولا يفعل التأمّل إلا شيئاً واحداً، هو أن يدمّر كل الحواجز التي أقامها المجتمع لمنعك من أن تكون ذكيّاً. يقوم بإزالة الحواجز. وظيفته سلبيّة، يزيل الصخور التي تمنع مياهك من الانسياب، وينابيعك من أن تصير حيّة. يحمل الجميع إمكانيّة كبرى، لكن المجتمع يضع صخوراً كبيرة لمنعها. يبني سور الصين من حولك، ليسجنك.

لو أنّكم مسيحيّون لسجنكم الكهنة المسيحيّون. ولو أنّكم هندوس لسجنكم الكهنة الهندوس. سجونكم تختلف: ربّما اختلفت هندستها، وبُنيت غرفها بطرائق مختلفة، ومواد مختلفة. وربّما كانت بعض السجون أكثر راحة من سواها، بل أكثر تطوّراً. فالسجن الأميركي هو، بالطبع، أفضل من السجن الهندي، أفضل كثيراً، أكثر راحة. ففيه يتوفّر للسجين المذياع والتلفاز. أما السجن الهندي فمن المحتّم عليه أن يكون هنديّاً. فالهنود يعيشون بطريقة غير مريحة للغاية، فكيف يمكنهم توفير التلفاز والمذياع للسجناء؟ يستحيل ذلك. فهم موجودون فيه لتلقّي العقاب؛ لا يمكن السماح لهم بالاستمتاع.

وربّما كانت المسيحيّة سجناً أفضل بعض الشيء من الإسلام، لكن السجن يبقى سجناً. والواقع هو أن السجن الأفضل أكثر خطورة بكثير، لأنّك قد تبدأ تتمسّك به، ولا تودّ الخروج منه؛ وقد تشرع في حبّه كما لو أنّه بيتك. لكن في المحصلة كلّها سجون.

وأحياناً يطفح الكيل بأحدهم من سجن ما فيبدّله سجنه. يصير الهندوسي مسيحيّاً، والمسيحي يتحوّل هندوسيّاً. وثمة كثير من المسيحيّين الحمقى الذين صاروا من جماعة هاري كريشنا، وهو الغباء نفسه، لكنّه متنكّر في زيّ جديد. وهناك كثير من الهندوس الذي صاروا مسيحيّين، لكن الاعتقاد نفسه بالخرافات يستمرّ؛ وليس ثمة فارق على الإطلاق. رأيت أولئك الهندوس الذين صاروا مسيحيّين، ولم يطرأ على حياتهم أي تغيُّر. وشاهدت أولئك المسيحيّين الذين صاروا هندوساً، ولم يتغيّر شيء من حولهم. لقد بدّلوا السجن ليس إلّا.

والخروج من كل السجون، وعدم الدخول إلى سجن آخر، هو الذكاء بحد ذاته. يمكن اكتشاف الذكاء من خلال التأمّل، لأنّ كل تلك السجون قائمة في ذهنك. ومن حسن الحظ أنّها لا تستطيع بلوغ كينونتك. لا تستطيع تلويثها، تستطيع فقط أن تلوّث ذهنك، تستطيع فقط أن تغطّي ذهنك. وإذا تمكّنتَ من الخروج من الذهن فسوف تخرج من المسيحيّة والهندوسيّة والجاينيّة والبوذيّة، ما يضع حدّاً لكلّ أنواع الهراء. يمكنك بلوغ التوقّف الكامل.

وعندما تكون خارج الذهن، تراقبه، تدركه، تكون مجرّد شاهد، فأنت ذكي. تكتشف ذكاءك. تكون قد أبطلتَ ما فعله المجتمع بك؛ قضيتَ على الأذى؛ قضيت على مؤامرة الكهنة والسياسيّين. صرت في الخارج، وأنت حرّ. وأنت في الواقع وللمرّة الأولى كائن بشري حقيقي، كائن بشري أصيل. وها هي السماء بأكملها قد أصبحت لك.

أوشو
OSHO

سلسلة «رؤية لحياة جديدة» الصادرة
عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

عن المؤلّف

يتحدى أوشو التصنيف. تتطرق آلاف الأحاديث التي ألقاها إلى كل شيء، بدءاً بالمسعى الفردي إلى اكتناه الجوهر، وصولاً إلى القضايا الاجتماعية والسياسية الضاغطة التي تواجه المجتمع اليوم.

مؤلفات أوشو لم تُكْتَب بل نُقِلت من تسجيلات صوتية ومرئية لأحاديثه المرتجلة إلى الجمهور العالمي. وكما يقول هو: تذكر أنّ أياً يكن ما أقوله فهو ليس موجّهاً إليك وحدك... أنا أتكلم أيضاً إلى الأجيال القادمة.

وصفته صحيفة «الصنداي تايمز» اللندنية بأنه واحد من بين ألف شخصية صنعت القرن العشرين. أما الكاتب الأميركي توم روبنز، فعدّه «الرجل الأكثر خطورةً منذ يسوع المسيح». اختارته صحيفة «صنداي ميد - داي» الهندية واحداً من عشرة أشخاص غيّروا مصير الهند، إلى جانب غاندي ونهرو وبوذا.

وعن عمله يقول أوشو إنه يساعد على تكوين الشروط لولادة نوع جديد من البشر. وغالباً ما يصف هذا النوع الجديد بأنه زوربا بوذا، القادر على التمتع بالمباهج الدنيوية لزوربا اليوناني والصفاء الساكن لغوتاما بوذا معاً.

تهيمن على جوانب أحاديث أوشو وتأملاته رؤية تحيط، على حدّ سواء، بالحكمة الخالدة في كل العصور الغابرة، وما في علوم وتكنولوجيا اليوم والغد من طاقة كامنة في حدها الأقصى.

المعروف عن أوشو إسهامه الثوري في علم التحوُّل الداخلي مع مقاربة تأملية تقرّ بالإيقاع السريع للحياة المعاصرة. وما تتفرّد به تأملاته الفعّالة مكوّن أولاً لتنفيس

إجهادات الجسد والذهن المتراكمة، وبذلك يكون أسهل خوض تجربة سكون وارتخاء خالٍ من الإجهاد الفكري داخل الحياة اليومية.

لمزيد من المعلومات

www.OSHO.com موقع إلكتروني شامل، متعدد اللغات، يتضمن مجلةً وكتبَ أوشو وأحاديثه بشكليها الصوتي والمرئي وأرشيف المكتبة باللغتين الإنجليزية والهندية ومعلومات مكثفة عن تأملاته.

كما تجدون في الموقع جدول برنامج جامعة أوشو الكبيرة ومعلومات عن منتجع أوشو العالمي للتأمل.

مواقع إلكترونية

http://OSHO.com/resort
http://OSHO.com/magazine
http://OSHO.com/shop
http://www.youtube.com/OSHO
http://www.oshobytes.blogspot.com
http://www.Twitter.com/OSHOtimes
http://www.facebook.com/OSHO.International
http://www.flickr.com/photos/oshointernational

للاتصال بمؤسسة أوشو الدولية:

www.osho.com/oshointernational, oshointernational@oshointernational.com

منتجع أوشو العالمي للتأمل

الموقع: يقع على مسافة مئة ميل أو مئة وستين كيلومتراً جنوب شرق مومباي في مدينة بون الحديثة المزدهرة في الهند. ويعتبر منتجع أوشو العالمي للتأمل مكاناً متميزاً لقضاء العطلة. يمتد المنتجع على مساحة ٤٠ فدّاناً أو ١٦٨ ألف متر مربع من الحدائق الغناء في بقعة رائعة مسوّرة بالأشجار.

التميُّز: يستقبل منتجع التأمل سنوياً آلاف الزوار من أكثر من مئة بلد. ويوفّر المجمع الفريد

من نوعه فرصة لتجربة شخصية مباشرة لنمط حياة جديد، مع مزيد من الوعي والاسترخاء والبهجة والإبداع، ويقدم أصنافاً متنوعة من البرامج والخيارات على مدار الساعة والسنة، منها عدم القيام بأي عمل والاسترخاء فقط. البرامج كلها تركز في رؤية أوشو لزوربا ـ بوذا، وهو نوع جديد من البشر قادر على الإسهام الإبداعي في الحياة اليومية والاسترخاء في جو الصمت والتأمل.

التأمّل: برنامج يومي كامل من التأملات خاص بكل نوع من أنواع الأشخاص، ويتضمن طرائق سلبية وإيجابية وتقليدية وثورية ولاسيما طرائق أوشو التأملية الفعّالة. يجري التأمل في ما يُعتبر صالة التأمل الكبرى في العالم، وهي قاعة أوشو.

الجامعة الكبيرة: جلسات فردية، حلقات دراسية وورش عمل تتناول كل شيء، بدءاً بالفنون الإبداعية والصحّة الشمولية والتحول الشخصي، مروراً بالعلاقات ومراحل الحياة الانتقالية والعمل باعتباره تأملاً، والعلوم الباطنية، وانتهاءً بمقاربة «الزّن» للرياضات والاستجمام. ويكمن سر نجاح الجامعة الكبيرة في حقيقة أن برامجها مُدْمَجة بالتأمل ومعزِّزة لنظرة فحواها أننا، نحن البشر، كمجموع أهم وأبعد شأناً من حالنا كأفراد.

حمام باشو المعدني: يوفر هذا الحمام الفاخر سباحة مترفة في الهواء الطلق في إطار من الأشجار والطبيعة الاستوائية. أما الجاكوزي الفسيح والمصمَّم بشكل متميّز وحمامات البخار وصالة الألعاب الرياضية وملاعب كرة المضرب، فيزيد جاذبيتَها محيطُها الباهر الجمال.

الطعام: أماكن تناول الطعام متعددة ومتنوعة، وتقدم طعاماً نباتياً غربيّاً وآسيوياً وهنديّاً لذيذاً. معظم الأطعمة تُنتج عضويّاً خصيصاً لمنتجع التأمل. كما أن فرن المنتجع الخاص يقدم أنواعاً مختلفة من الخبز والحلوى.

الحياة الليلية: هناك كثير من أنواع الأمسيات، وعلى رأسها الرقص إلى جانب نشاطات أخرى كالتأمل تحت النجوم في ليالٍ مقمرة، وعروض متنوعة وحفلات موسيقية وتأملات في الحياة اليومية. أو يمكنك الاكتفاء بمقابلة الناس في مقهى بلازا أو التنزه في هدأة الحدائق الليلية وسط بيئة ساحرة.

المرافق: يمكنك شراء حاجاتك الأساسية ولوازم النظافة والتجميل من المعرض. وفي المعرض المتعدد الوسائط تجد مروحة واسعة من منتجات أوشو الإعلامية. وهناك أيضاً مصرف ووكالة سفر ومقهى إنترنت داخل المجمع. أما الذين يهوون التسوق فتتيح لهم مدينة بون كل الخيارات، بدءاً من المنتجات التقليدية والاثنية وصولاً إلى مخازن الماركات العالمية.

الإيواء: بإمكانك اختيار الإقامة في الغرف الأنيقة لمضافة أوشو. ولإقامة طويلة الأمد اختر واحداً من حزمة برامج السكن. علاوةً على ذلك تتوفر مجموعة متنوعة من الفنادق القريبة والشقق الفندقية.

هذا الكتاب

يطلق أوشو آخر صيحاته في وجه النظريات المقولبة والأنظمة التقليدية، أكانت دينية، أم سياسية، أم أقتصادية، أم تعليمية، أم اجتماعية، أم عسكرية؛ لما لها من تأثيرات قاتلة في الإنسان. فهي تفقده القدرة على استخدام ذكائه، وتستعبده، وتحوّله مجرّد آلة، وتلغي دوره في الإبداع والابتكار وإبداء الرأي والتغيير الجذري. وبذلك يريح كل السلطات المذكورة آنفاً، ولا يعود يشكّل خطراً على مصالحها؛ وبالتالي على وجودها.

وكتاب الذكاء سلسلة تصوّرات لنمط حياة جديد، يدعو إلى معرفة المعتقدات والمواقف التي تمنع الأفراد من أن يكونوا ذواتهم الحقيقيّة. ويشجّعهم على مواجهة ما لا يرغبون فيه، فيضع بين أيديهم مفاتيح الرؤية الواضحة، ومفاتيح القوّة.

وهو دعوة موجّهة إلى الجميع لاستكشاف الفرق بين الذهن والذكاء، حيث يصبحون أكثر إدراكاً لكيفيّة مقاربة المشكلات المنطقيّة والعاطفيّة والعمليّة، ولطريقة حلّها . وثمة مقارنة بين الذكاء والذاكرة التي بقدر جدواها وأهميتها في تسيير الأمور، فإنها لن تكون بشكل أو بآخر بديلاً من الذكاء، بأدلّة يسوقها عن أنشتاين، وإديسون، اللذين أدهشا العالم: الأول بنظرياته، والآخر باختراعاته التي تفوق التعداد والوصف، مع أنّهما امتلكا أسوأ ذاكرتين في التاريخ، إلى درجة أن إديسون نسي اسمه، حين نودي عليه، وهوه يقف في أحد الطوابير، فراح يتلفّت يمنة ويسرة.

كتاب لا بد من قراءته لإعادة التوازن النفسي، وترتيب الأولويات من جديد، والتمكّن من اتخاذ خيارات صائبة، على الصعيد الفردي، وفي الأمور المصيرية.

ISBN 978-6144-58-515-3

9 786144 585153

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ -١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ٩٦١١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ٩٦١١+

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر